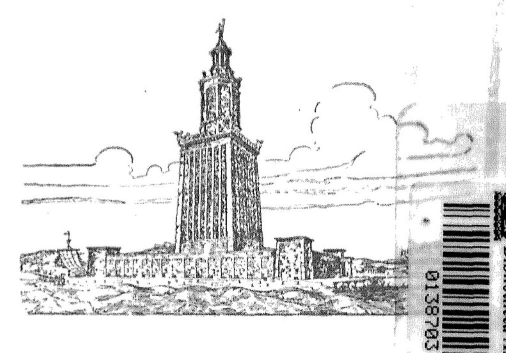
دكتور ابراهيم جمعة

جامعة الإسكندرية

في العصر الاغريقي الروماني

والنقل عنها وتأثر العقل العربي بعلومها



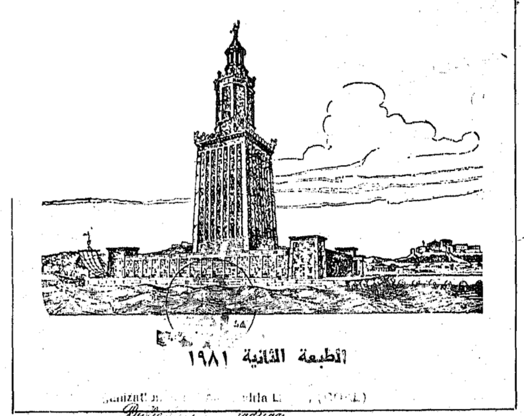
الطبعة الثانية ١٩٨١

دكتور ابراهيم جمعة

جامعة الإسكندرية

في العصر الإغريقي الروماني

والنقل عنها وتأثر العقل العربي بعلومها



الطبعة الثانية ١٩٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

صدر هذا الكتاب سنة ١٩٤٤ لمناسبة انشاء جامعة الاسكندرية الحالية ، وكانت الغاية من صدوره التذكرة بأن المدينة الخالدة مدينة علم واطلاع وبحث منذ عصور قديمة ، وأن الجامعة الجديدة ـ ثانية جامعات مصر فى العصر الحديث ـ ليست الا صورة مبعوثة لجامعة الاسكندرية القديمة التى ازدهرت فى العصرين الاغريقى والرومانى وأدرك الفتح العربى أواخرها فى القرن السابع الميلادى وافاد منها النساطرة واليعاقبة والسريان والعرب، وكان هؤلاء بحق وصدق حفظة على تراث الاسكندريين ، ظل فى أيديهم وصدورهم وعقولهم دهـرا طويلا ، أودعوه مراكز العلم والدراسة والبحث فى المدن التى قـدر لها أن تحتفظ بكنوز العلم اليونانى واللاتينى طيلة العصور الوسطى الاسلامية لتكون هذه الكنوز المعين الذى لا ينضب والمورد العـذب الذى استقى منه الأوربيون وهم يجوبون الشرقين الأدنى والأوسـط بحثا عن تراث الأقدمين يضيئون به الطـريق أمام أوروبا وهى تنهض نهضتها الحديثة ، وتشعل مصابيح العلم ، وتعيد الصورة التى كان قد عفى عليها الزمن ، لتقوم للعالم قائمة كبرى بعد قرون من الغفوة والسبات .

حفز على صدور هذه الطبعة الثانية بعد ست وعشرين سـنة من صدور الطبعة الأولى رغبة تقدم بها مدير جامعة الاسكندرية الى الرئيس **محمد أنور السادات** فى اجتماعه عام ١٩٧٨ بهيئة التدريس بهذه الجامعة ، أن يمد لها العون الذى تعود به « مكتبة الاسكندرية » او بالأصح « جامعتها » ، منارا يشع العلم والنور والعرفان من مدينة الاسكندرية ، استعادة لمكانة ، واحياء لتراث .

وكان أن تلقى السيد الرئيس رغبة الجامعة العريقـــة بالبشر والغبطة ووعد سيادته مشكورا بتحقيق الرغبة ، وكان ذلك من السيد الرئيس غاية الرعاية ايمانا منه بأن العلم ، والعلم المتطور ، دعامة كبرى من دعامات التقدم ، وركيزة قوية من ركائز النهوض ٠

وفيما يلى المامة وافية بمكانة الاسكندرية « متحفا ومكتبة وجامعة » نضعها مرة ثانية أمام محبى الدرس والبحث لعل فيها بعض الغناء ؟

القاهرة فى يوليو ١٩٨١ دكتور ابراهيم جمعة

إلى المدينة الخالدة
مدينة الفاروس والمتحف والمكتبة
مدينة الهداية والعلم والمعرفة
إلى الاسكندرية

الفصـــل الأول

تمهيــــد

المتحف الاسكندرى

ظلت « اثينا » كعبة الفنون ، ومستقر الثقافة زمنا طويلا قبـل الميلاد وبعده ، وبقيت مدارسها عامرة بالعلم والفلسفة حتى عــــام ٥٢٩ للميلاد ، وقدر بهذا لعاصمة اليونان أن تحمل لواء العـلم فى العالم القديم أكثر من عشرة قرون ٠

* * *

وكان الأغارقة منذ زمن بعيد قبـل ظهور « الاسكندر » ، قـد ادركوا بلاد الشرق الأدنى مشتغلين بالتجارة ، أو منخرطين فى سلك جيوشها جنودا مرتزقة ، أو مضطلعين ببعض الوظائف فى حكوماتها أو حذاقا للفنون يمارسونها فى أنحائها ماجورين عليها ٠

* * *

وما ان سطع نجـم مقدونيا ، وغزا « الاسكندر » بلاد الشرق الأدنى ، حتى أزمع الملك الفتى ان يحقق فيها تلك الســـــياسة التى رسمها لتحضيرها ونشر الثقافة اليونانية بين ربوعها ، غير ان الملك الطموح عاجلته المنية قبل أن يجنى الثمرة التى بذر بذورها فى أرض الهلال الخصيب ٠

* * *

وانتج ذلك الغزو المقدونى نتائجه المرتجاة فى نواحى السياسة والعلم والأعراف واللغة والفنـــــون ـ فتاثرت مواطن الحضارات القديمة تاثرا محسوسا بالنظم الهلينية ، وبثقافة اليونان وعاداتهم

وفنونهم ، ولغتهم ، ولم يضعف من شأن هذه المؤثرات ويحـــد من اطرادها ، الا موت الملك الفتى ، وانقسام ملكه بين قواده ٠

وانعطف تيار الثقافة رغم ذلك نحو مصر ، وهدأ فيها واستكن فى « الاسكندرية » ـ المدينة التى أسسها الاسكندر على حافة أرض الفراعنة ، لتكون عاصمة لملكه المنشود ، ومستقرا للثقافة التى حمل لواءها فى البلاد المغزوة ٠

* * *

وقدر بطليموس ، صديق الاسكندر ، وأحد قواده العظام ، أن يحكم مصر مستقلا بها على نحو ما كان يحكمها الفراعنة ٠ ولقد كان القائد الذى انتهت اليه مقاليد الأمور فى مصر مشـــبعا مثـــل سيده بآراء « أرسطو » ـ لا يقل رغبة وحماسة عن الأسكندر فى بث الروح الهلينية والثقافة الاغريقية فى البلاد التى آلت مقاليـــدها اليـــه ٠

* * *

وقد كان بطليموس ، فوق ما اتصف به من المقدرة الحربية ، عقلا راجحا وفكرا منظما يحب البحث العلمى ، كلفا بآراء الفلاســفة اليونان ، محبا للتاريخ ، مصنفا فيه ٠ ويعتبر « بطليموس الأول » المعروف باسم « بطليموس سوتر » أول مقرر لنظام « المنح العلمية » تشجيعا للعلماء على البحث والانتاج ؛ وهو متأثر فى هذا بما كان يراه من سيده الاسكندر ، من مد أستاذه « أرسطو » بالمـــال اللازم لموالاة أبحاثه وجهوده العلمية ٠

* * *

لهذا أنشأ بطليموس الأول فى الاسكندرية ، بعـــد أن خلا من شواغل الحرب والسياسة ، مؤسسة علمية ، وهبها لآلهة الشـــعر (Muses) أطلق عليها مؤسسوها من اليونان اسم « الموســـيون » بمعنى « المتحـــف » ، ومنــــه اشـــــتق اســـــم « الميـــوزيوم »

Museum و « الميـــوزيه » Museé بمعنى دار التحف أو دار الحكمة (١) ٠

وهكذا كان المتحف الاسكندرى « أكاديمية » تشبه الاكاديميات الأثينية ، زودها بطليموس الأول بنفر من خيرة الأساتذة اليونان ، يذكر « بلوتارخ » أنه استدعاهم من بلادهم ، وحبب اليهم الاقامة فى عاصـــمة ملكه ، وقربهـــم منه ، وبمعونة مستشاره « ديمتريوس الفاليرى » (١) اســـتطاع « ســـوتر » أن ينشىء « الأكاديميـــة » الاسكندرية ، وأن يزودها بمكتبة كبرى ٠

* * *

وقد كان حرص « سوتر » على جعل الاسكندرية كعبة للعـــلوم والفنون ، لا يقل عن حرصه على تركيز تجارة البحر الأبيض المتوسط فيها ــ فمنذ أوائل القرن الثالث قبل الميلاد ، انشئت بالاسكنـــدرية « أكاديمية » علمية أشبه شىء بالمحفل ، يجتمع فيه العلماء يتجادلون ويتناظرون فى أروقته ، وفى المكتبة الملحقة به ، يشـــــهد جدلهم ، ويستمع اليـــه العـــاهل الذى أسس الأكاديمية ، ونفـــر من خاصـــة القوم أغـــرم بالدراســـة والبحث والمناظرة ، ويذهب المؤرخ الألمـــانى « كليل » Klippel الى أن المؤسسة العلمية التى قامت بالاسكندرية فى الحلقات الأولى من القرن الثالث قبل الميلاد ، ليست فى جملتهـــا وتفاصيلها الا صورة من « الأكاديمية » الآثينية ٠

* * *

ويعتبر « سترابو » المكتبة التى انشأها « ديمتروس الفاليرى » لبطليموس الأول فى الاسكندرية محـــاكاة ناجحـــة لمكتبة « أرسطو » التى كانت تقوم فى أثينا على مقربة من « الليسيوم » ٠ وعلى نحو

---

(١) فى كلمة mu... الانجليزية معانى التأمل والدراســـة الصامتة واعمال القرائح ٠

(١) نسبة الى فاليرون احدى مدن اليونان الساحلية ٠

ما جمع « سوتر » لمؤسسته العلمية نخبة من علماء العصر وأدبائه وفلاسفته ، كذلك استطاع أن يجمع لمكتبته الكبرى أثمن المخطوطات اليونانية وأندرها ٠

* * *

ولم يعد ثمة شك ، بعد أن محصت آراء المؤرخين ، أن المؤسس الحقيقى للأكاديمية الاسكندرية والمكتبة الكبرى التى ألحقت بها ، هو « بطليموس الأول » وأن الفضل الأوفى فى انشائهما معا يرجع الى الفيلسوف اليونانى « ديمتريوس فاليرون » الذى استدعاه بطليموس الأول من أثينا ، واتخذه مستشارا ثقافيا ٠

ويميل بعض المؤرخين المحدثين من أمثال « بطلر » « وبرستد » « ومايرز » الى اعتبار « المتحف » الاسكندرى جامعة ، ما لبثت أن أصبح لها مع الزمن كل عتاد الجامعات ونظامها وروحها وانتاجها ، ومن ثم لا نرى ما يحول دون اطلاق كلمة « جامعة الاسكندرية » على المؤسسة العلمية التى أنشأها بطليموس الأول فى عاصمة ملكه ، والتى سماها مؤسسوها من اليونان باسم « الموسيون » ، وعرفها الانجليز والألمان باسم « الميوزيوم » ، واعتاد الفرنسيون أن يذكروها فى مؤلفاتهم باسم « مدرسة الاسكندرية » L'école d'Alexandrie والتى أطلق عليها أحيانا اسم « الأكاديمية » Académie ، لشدة شبهها بالأكاديمية الأثينية ٠

* * *

كان « المتحف الاسكندرى » فى حقيقة الأمر جامعة ، تتكون من أروقة للدراسة وقاعات للبحث والمناظرة ، فضلا عن المكتبة الكبرى ، والحدائق والحظائر الملحقة بالأبنية ، والمرصد المتاخم لها ٠ وكانت الحدائق والحظائر تحتوى الكثير من نماذج النبات والحيوان التى

أفادت دراسة العلوم الطبيعية ودراسة الطب بالجامعة أعظم الفائدة وأجلها .

* * *

وقدر للمتحف الاسكندرى والمكتبة الملحقة به أن يبلغا أعظم شأن لهما فى عهد بطليموس الثانى (فيلادلف) ، ومن ثم وقع بعض المؤرخين فى الخطأ ، فذهب « يوزيب » Eusebius (٢٦٥/٣٤٠م) ومن نحا نحوه من المؤرخين ، الى اعتباره المؤسس له ، وهو رأى لا نلبث أن نرجع الى ما كتب « بلوتارخ » حتى نتبين خطأه .

وتكاد تجمع المراجع التاريخيـــة على أن مكان هذه المؤسسة العلمية والمكتبة الملحقة بها ، كان فى حى البروكيوم Brochium الحى الملكى فى المدينة ، على مقربة من قصور البطالمة ، ــ والظاهر انه كانت بالمتحف أروقة لسكن العلماء ، وليس ذلك عجيبا على كل حال ، فقد قيل أن ملوك البطالمة كانوا لشدة ميلهـم الى العلمـــاء ، وتقريبهم لهم ، يسكنونهم معهم فى قصورهم الخاصة .

* * *

واضطربت هذه المؤسسة العلمية بين القوة والضعف ، وكان ذلك مرهونا بقوة البطالمة أو ضعفهم من الوجهة السياسية . وهوت هويا شديدا عندما زلت أقدام البطالمة ، وارتموا فى أحضان السياسة الرومانية ، منذ عهد بطليموس السابع (١٤٥/١١٦ ق.م.) . والحق أن فتـرة ازدهارها لم تطل كثيرا . ويكاد يعين بطليموس الخامس (٢٠٣/١٨١ ق.م) ، الحد الفاصل بين عصر القوة وعصر الضعف فيها ، كما يكاد يعين غزو « يوليوس قيصر » لمصر ، وتبعية البــلاد للرومان (منذ ٤٨ ق.م) ، عصر انتقال العلم الاسكندرى من طوره اليونانى البحت ، الى طوره اليونانى الرومانى .

* * *

أما انتاج هذه المؤسسة فى عصورها المختلفة ، وأما نظامهـا وتطورها وعلماؤها وأبحاثهم ، فى الرياضة والفلك وعلوم الطبيعـة

والنبات والحيوان والطب والتشريح والجغرافيا وقواعد اللغة ونقد الآداب والخطابة والفلسفة وغير ذلك ، فان القارىء يجد بعضـــه مطويا بين دفتى البحث ـ على النحو الذى قدر لجهد مؤلفه أن يصل اليه ٠

* * *

والحق أن فضل الاسكندرية على الحـــركة العلمية الانسانية واضح لا يجحد ، ويصعب أن يوفى الانسان هذه المدينة حقهـــا من الناحية العلمية ، أو أن يلم الماما تاما بنظام الجامعة التى نشـــأت فيها ، أو بالانتاج العلمى الذى صدر عنها ، لتقادم العهـــد على تلـك الآثار العلمية ، وكثرة ما انتاب المدينة من العواصف السياســـية والاضطرابات الدينية ـ ومهما يكن من الأمر ، فقد خلصت لنا طائفة من المعلومات ، أثبتناها فخورين معجبين بما كان لمدينتنا العظيمة من فضل على العلم الانسانى ٠

* * *

ومن أسف أن تؤدى أحداث الزمن ، كحريق الاسكندرية عنـد حصار قيصر لها سنة ٤٨ ق٠م ، واصطدام المســـيحية بالوثنية فى القرون الأولى بعد الميلاد ، ونزاعها معها ، ذلك النزاع الذى انتهى بتدمير معبد « السرابيوم » فى القرن الرابع الميلادى ، وانتصـــار المسيحية على الوثنية انتصارا حاسما بهذا التـــدمير ، الى زعزعة الحياة العلمية ، والقضاء عليها فى كثير من الأحيان ٠ فلما أن تسنت لها الحياة ، الفينة بعد الفينة ، وسط ذلك الاضطراب الدينى ، ظهرت آثار أدبية وعلمية ، صدرت عن المدينة فى أوقات متباعدة ، وبدرجات متفاوتة بين قوة الانتاج وضعفه ، وتسمت هذه الحركات المتقطعـة باسم « مدارس الاسكندرية » فى عصور ضعف الجامعة وانحلالها ، وزوال عتادها القديم ، بتدمير « السرابيوم » ٠

* * *

وكانت أشهر المدارس التى صادفها انتجاع العرب للأسكندرية غداة الفتح ، حوالى منتصف القرن الســـابع الميـــلادى ، مدرسة

« طبية » افاد منها السريان والعرب فائدة كبرى ، ونقل العرب فيما نقلوا عظ مدارس الاسكندرية المتأخرة هذه « فلسفة الاسكندرانيين » أو فلسفة « الشيخ اليونانى » أفلطون ، كما نقلوا الجغرافية ، والفلك ، والكيمياء ، والرياضة ، وغيرها مما يرى مفصلا بعض التفصيل بين دفتى الكتاب ٠

واتيح للعرب بهذا النقل أن يكونوا حفظة على الثروة العلمية اليونانية ، وحلقة اتصال بين القديم والحديث ٠ ونحن لا نجهل مدى ما افادت أوربا من علوم الأقدمين بطميق العرت فى أسبانيا والشرق الأدنى ، اذ بفضلهم عمرت دور الكتب فى كل مكان بنفائس المخطوطات القديمة ، واتيح للأوربيين النقل عنها فى الوقت المناسب الى اللغة اللاتينية أول الأمر ، ثم الى غيرها من اللغات الأوربية بعد ذلك ٠

الفصــل الثــانى

خطة الاسكندر

الحضارة الهلينية والحضارة المصرية ـ حــكم الأمبراطورية الجديدة من مصر ـ انشاء الاسكندرية ـ لم تكن للتجارة أول الأمر ـ تاثير انشائها على كانوب والفرما ـ هل كان لانشائها تأثير ما على أهمية صور ؟ ـ الاسكندر وأغريق نقراطس ـ متى أصــبح للمدينة شأنها التجــارى ـ التعاون المصرى الأغريقى وأثره فى نمو المدينة ـ البطالمة واعلاء شأن المدينة ٠

كان الاسكندر مشبعا بالروح الاغريقية ، شــغوفا بها فى كل مظهر من مظاهرها ، فقد أحب منذ كان فتى أساطير الاغريق وادابهم، ومجد أبطال «هلا» (١) وود لو كان بطلا مثلهم . درس ادابهم وعلومهم على خير أستاذ جاد به الزمن ـ على أرسطو ، المعلم الأول ٠ وتغلغلت فى نفسه عقيدة لم ير الى الحيدة عنها من ســبيل ، تلك العقيدة هى تفوق المدنية الاغريقية على ما سواها من المدنيــات المعاصرة لهــا ، ولازمته هذه العقيدة يافعا ، فكان لها فى نفسه تشكل خاص ، دفعه الى الرغبة فى نشر المدنية الاغريقية فى البلاد التى قدر له أن يغزوها وقد كان هذا العمــل الخطير ملازما لكل فتوحاته الحربية ، فانى استقر به المقام ، أسس حكومة على النمط اليونانى ، وأطلق العلماء المرافقين له يدرسون ويبحثون ، ويضيفون الى حقائق العلم اضافات جديدة ٠ وكان يبغى أن يجعــل « بابل » مقرا لحكم مملكته ، الا أن توســعه فى الفتح ناحية الغرب ، وميــله الى مد فتــوحه غربا حتى

---

(١) بكسر الهاء وتشديد اللام ٠

سواحل المحيط الأطلسى ، جعله يعدل عن حكم الدولة من بابل ، ولذا فقد رأى أن يحكمها من « مصر » ذات الحضارة القديمة ٠

والمعروف أن المصريين لم يرحبوا بحكم الاسكندر استبدالا لحاكم أجنبى بحاكم اجنبى آخر ، ولكنها الأقدار التاريخية الغالبة التى جازت على كثير من الشعوب العريقة فى كثير من الأزمان ، حالت حينذاك دون الوقوف فى وجه الفاتح الكبير ٠

لم يكن هينا على نفوس المصريين قبول الغزو الهلينى ، كما لم يكن هينا خضوعهم للحكم الفارسى ، ذلك أن أصالة الشعب المصرى وديانته المصرية القديمة ، ترفضان المذلة وتأبيان الاستسلام ، فان غلبت المقادير ، فذلك لفترة محدودة من الزمن سرعان ما يستعيد المصريون بعدها حريتهم واستقلالهم كاملين ٠

* * *

وكان الجيش المصرى يتكون ابان الفتح المقدونى من عنصرين: عنصر وطنى ، وعنصر مرتزق ٠ وكانت العداوة بين هذين العنصرين مستحكمة الأواصر ، وبلغ الحقد منتهاه بينهما فى زمن الفتح ، حين رغب الوطنيون فى حماية الملك وشددوا فى حراسة قصره ٠

وتتوفر الأدلة على أن الوطنية المصرية لم تقبل الخضوع للفاتح الجديد عن طواعية ، وانما بتأثير ظروف العالم السياسية التى غير « الاسكندر الأكبر » من معالمها وبدل بفتوحاته الفسيحة ٠

حقق الاسكندر من سيادته على الفرس ما مكنت له قوته الحربية القاهرة ، ودانت له بلاد ما بين النهرين ، واتجه بعد ذلك غربا يريد أن يبسط سلطانه على مصر وما يليها من سواحل القارة الأفريقية الشمالية ، وغزا فى طريقه المدن السورية ، فسقطت الواحدة تلو الأخرى ، وكان قد استولى فيما استولى وهو

سائر لفتح مصر على«صور» سيدة «الليفانت» Lévant بعد أن صمد لها طويلا ، لأنها كانت منيعة التحصين برا وبحرا ، ولا غرو فقد كان أسطولها الضخم يحميها من ناحية البحر ويبث فيها الحماس والثقة بمناعة مركزها • ولكن سرعان ما أنقلبت الحماسة فتورا ، ودب الفزع فى نفوس الصوريين ، فأسلموا المدينة للفاتح الظافر •

وبهذا التسليم انعقد لواء السيادة البحرية للاسكندر ، فتابع سيره ، سيد البر والبحر معا الى غزة ، فمصر •

وفى مصر لم يلق الفاتح عناء يذكر ، واستقبله رجال الدين على أبواب الفرما « بلوزيوم » ، ورافقوه الى « منف » ، حيث أظهر عطفه الشديد على الديانة المصرية وقدم القرابين للعجـل « أبيس » وغيره من الهة المصريين ، وكان الكهنة أشبه بالحراس على مقادير الشعب تجاه الحاكم الجديد ، أما اليهود فدلوه على موارد المال ، وكان فى أشد الحاجة اليه بعد جهاده الطويل •

وكان الاسكندر قد صادق اليهود ، واتخذهم عونا له مذ كان ما يزال فى فلسطين ، وذلك لسـعة خبرتهم بالعالم ، بسـبب كثرة تجوالهم فيه ، هم الذين دلوه على معالم الطـريق بين فلسـطين ومصر ، ومعظم الظن أنهم قاموا بدور السفارة بينه وبين المصريين ، وهم الذين أدخلوا فى روع المصريين أن الاسكندر لا يقصد بهم سوءا، وانما هو موال لهم ومصاحب •

ولما أصبح له أمر البلاد ، نصب عليها حاكمين ، أحدهما يحكم مصر العليا والثانى يحكم الدلتا ، وأقام حول شـخصه حرسا من الأغارقة ، وقرب اليه صـفوة منهم ، أخصهم « كليومنيس » الذى يقال أنه نصح للاسكندر ببناء الاسكندرية •

وهادن الاسكندر كهنة منف ، وأظهر خضـوعه وولاءه للاله

(آمون) ، وارتحل الى واحة « سيوه » ، وكانت قد سبقته اليها كتيبة من الجند ، أرسلها كهنة آمون ٠

وسلك الاسكندر الى سيوه طريق الشمال ، ومر فى سيره اليها « بنقراطس » فى غرب الدلتا ، وكانت بها جالية اغريقية على رأسها « كليومنيس » ، وقد نصبه الاسكندر على مالية البلاد ثقة به ، واعتزازا بأبناء جلدته ٠

٠ويذكر « جستين » أن كليومنيس هذا كان أحد مهندسى الاسكندرية ، اشترك مع زميله « دينوقراتيس » فى تخطيط المدينة ووضع أساسها بعد أن أشار على العاهل الكبير باتخاذ مدينة جديدة ٠

وقد صارح الاسكندر أهل « نقراطس » (١) من الاغريق بخطته التى اعتزمها ، فأعلن لهم أنه سوف يجعل ملكه هلينى الصبغة ، ولم يتوان منذ أعلن عزمه هذا عن العمل على تنفيذه ، فخطط المدينة العظيمة ، ومنحها اسمه الضخم ، وخلع عليها كل ما من شأنه أن يركز فيها الحضارة الهلينية ، ويجعل منها مقرا لحكم الامبراطورية بعد تمام انشائها ٠

وربما سأل سائل لم لم يجعل الاسكندر « نقراطس » الاغريقية الصبغة نواة لمشروعه الكبير ؟ والجواب على ذلك سهل هين ، فقد وجدها الاسكندر على حال من التداعي والعزلة ، جعله يحجم عن التفكير فيها ٠ أضف الى ذلك أنه وجد الاتصال بينها وبين العاصمة الجديدة التى آثر انشاءها سهلا بطريق الماء ، حيث كان هناك طريق مائى يصل ما بينها وبين بحيرة مريوط فرضة الاسكندرية الخلفية ، هو هو فرع النيل الكانوبى ، وبهذا ضمن الاسكندر أن تكون نقراطس عضدا له عند الشدة ٠

---

(١) أنظر موقع نقراطس على خريطة الدلتا قريبة من دمنهور ، وكانت مركزا لجالية اغريقية كبيرة ٠

وانتفع تجار «نقراطس» أيما انتفاع بالمدينة البحرية الجديدة ، ويرى « ملــن » Milne أن حسن اختيار موقع الاسكندرية لا يرجع الى سلامة تقدير الاسكندر ، بقدر ما هو راجع الى قربها من نقراطس ·

ولم يكن لانشاء هذا الثغر تأثير على الموانى المصرية الأخرى مثل الفرما وغيرها من موانى مصر الشرقية ، بســبب قرب هذه من موانى الشام ــ ولذا فقد ظلت هذه الموانى طوال حكم البطالمة عامرة بالمتاجر السورية ·

* * *

والحق أن الاسكندرية استلبت مكانة « كانوب » لقربها منهــا ، ولئن كان المصريون قد تحولوا عن كانوب تحــولا تدريجيا ، فانهــم لم يهجروها الى الثغر الجديد بالسرعة التى قد تخطر بالبال ، وذلك لأن العداوة بين العنصرين المصرى والاغريقى ظلت مريرة محتدمة فى غضــون الفتح وبعده ، الى أن رأى الأغارقة ضرورة ملحة الى التنازل عما كانوا قد رسموه لأنفسهم من خطة التعالى على العنصر المصرى ، وحين وجدوا الا مفــر من إشراك هــذا العنصر اشراكا اقتصاديا فعالا فى حياة المدينة الجديدة · عندئذ فقط ، بدأ المصريون يتحولون عن كانوب الى الاســكندرية ، وبدأت قيمــة كانوب تنحط كميناء ساحلى ، وأخذت الاسكندرية تطرد نموا بعــد هذا التحــول ، وأمكن أن تصبح ثغرا تجاريا ، بعــد أن كانت مجرد منتجع للعنصر الاغريقى ، ومقرا أمينا لسياسة الاسكندر وخلفائه ·

* * *

ومما يدعو الى شيء غير قليل من التأمل والتفكير ، ما فعــل الاسكندر بصورة من ثغور فينيفية ــ هــل كان ما انزله بها من ثل عرشها التجارى مقصــودا به اهداء تاج الســيادة البحرية لمدينته الجديدة ؟

لا شك أنه كان يطمع منذ أول الأمر فى سيادة البحر المتوسط ، ولم يكن ممكنا أن يتحقق له ذلك الا بالقضاء على « صور » و « الأسطول الصورى » ، وهو غرض حربى سياسى لا علاقة له بالتجارة ٠

والناظر فى الترتيب الزمنى للحوادث يرى أنه حين استولى على صور ، لم يكن قد فكر بعد فى تأسيس مدينة الاسكندرية ـ فليس معقولا والحال كذلك ، أن يكون قد أزال عظمة « صور » التجارية ليزجيها ، الى مدينته الجديدة ٠

قضى الاسكندر على « صور » قبل أن يفتح مصر ، والمعروف أن فكرة تأسيس الاسكندرية جاءت عفو الخاطر ، وهى من اقتراح « كليومنيس » على ما يقرر « ميلر » Müller ، أما ما توفر للمدينة الجديدة من المكانة التجارية فقد جاء لها بحكم الطفرة التى هيأها لها حكامها من البطالمة ـ وكان ذلك بعد أن مات الاسكندر ، وانقضت دولته ٠

الفصـل الثـالث

الحضارة الهلينية فى الاسكندرية (١)
وتأسيس المتحف الاسكندرى

استدعى « فليب » ملك مقدونية « أرســـطو » ، المعلم الأول ، ليكون أستاذا لأبنه ووارث ملكه « الاسكندر » • وكان الاســكندر

---

(١) « الهلينية » نسبة الى « هلن » Hellen احدى قبـــائل « تساليا » من مقاطعات بلاد اليونان • كان زعيمهـا يدعى (هلن) ، عاش فى القرن السادس قبل الميــلاد ـ ولم يلبث لشـــهرته أن عم استعمال اسمه ، حتى أصبح علما على جميع الأغريق ، فالهلينيون على ذلك هم الأغريق : والحضارة الهلينية هى الحضارة الأغريقية • « والهلينزم » اصطلاح غامض • ويقصد به عندما يطلق ، جميع مظاهر الثقافة الأغريقية من عهد الاسكندر حتى نهاية العصر التاريخى القديم فى أوروبا •

ومنذ بداية القرن السادس ق•م• ، كانت « الثقافة الهلينية » قد أخذت تقوى وتغزو الحضارات القديمة التى قبل بعضها حضارة الهلينيين ، وقاوم بعضها الآخر (كما حدث فى مصر وبلاد النهرين) وكان تأثيرها قويا ظاهرا بصفة خاصة فى الشعوب غير المتحضرة التى كانت تسكن فيما بين أسبانيا وبلاد القوقاز •

وسرت روح « الهلينزم » هذه فى جميـــع المدن التى خضعت للأغريق خضوعا سياسيا وجاوزت هذه بتأثيرها القوى الى جهـــات أخرى فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وبلغت « الثقافة الهلينية » أكبر شأن لها فى اثر غزوات الاسكندر المقدونى ، وأدركت بفضل فتوحاته مصر وبلاد النهرين وايران والهند ، وتركت فى هذه الجهـــات آثارا واضحة •

حينئذ لم يجاوز عامه الثالث عشر ، فرشف الأمير الصغير من هـذا المنهل الصـافى ، وأحب من بين ما لقن أغانى « هومر » وغيره من رواة الأعمال المجيدة لأبطال اليونان القدماء ٠

شغف الفتى بروائع الأدب اليونانى ، وغزت أعمـال الأبطال قلبه ، وأشعلت خياله ، وبعثت فيه روحا وخلقا يمتـان الى البطـولة بأقوى الأسباب ، ذلك أنه ولـد ليكون بطلا ــ لا كأبطال الأقاصيص ، خلقهم الرواة من كتاب اليونان وشعرائهم خلقا فكريا لا وجود له فى عالم الحقيقة ، وانما ولد ــ ليكون بطلا حقا ٠ خلف أباه على عرش مقدونيا ولم يجاوز العشرين من عمره (٣٣٦ ق٠م) ، وورث فيما ورث من مشاكل أبيه عداء المدن اليونانية المناهضـة لمقدونيا وعداء الفرس فى وقت معا ، وما زال بالمدن اليونانية حتى أهلك « طيبة » ، لم يدع منها قائما غير بيت الشاعر « بندار » ٠ وأرغم بقية المدن على الاعتراف بزعامته ، الا « اسبرطة » العنيدة المكابرة ، فقد ظلت بعيدة عن مخالفته أو مهادنته ٠

وبهذا أمن الاسكندر جانب اليونانيين ، وأصبح بطل الهلينيين غير منازع ، اللهم الا اسبرطة ، وكانت بما وهبها الله من طبيعة جبلية ، وما نشأ أبناؤها عليه من خشونة فى العيش ، وغلظة فى الطباع ، تتخذ لنفسها بين مدن اليونان طابعا خاصا ٠ وانصرف الاسـكندر بعد ذلك يعد العدة لمنازلة الفرس ، وأمدته المدن اليونانيه بفصـائل من الجنود ، انضمت الى جيشـه المقدونى ، فتكونت من جموعهم جبهة قوية ، تشتعل حماسة للقضية الهلينية ضد الفرس ٠

وخرج الاسكندر فى جيشه الكبير الى آسـيا الصغرى ، فبلغ سهول « طرواده » ، وعسكرت جنوده حيث عسكر أبطال الأقاصيص الهومرية من قبل ، كان الاسكندر قد ضرع الى الآلهة فى معبد «أثنا» أن ينصروا قضيته على الفرس الذين اغتصـبوا قديما مدن آسـيا الصغرى من اليونان ٠

والتقى الاسكندر بالفرس فى موقعة « غرانيق » ، على النهر المسمى بهذا الاسم فى آسيا الصغرى ، وأبلى بنفسه فى الموقعة بلاء حسنا ، وانتهت المعركة بفوز عظيم للأغريق على الفرس ، واسترد مدن آسيا الصغرى من أيدى هؤلاء واحدة فواحدة ، وخلصها جميعا من النير الفارسى ٠

* * *

وكانت للاسكندر آمال لم تكن لأبيه ، فقد كان يطمع فى اقصاء الفرس عن آسيا الصغرى ، ويطمع فوق ذلك فى غزوهم فى بلادهم ، وفى جعل بلادهم هذه جزءا من أمبراطورية اغريقية واسعة النطاق تضم آسيا الصغرى وفينيقية ومصر وبلاد فارس حتى تخوم الهند ، وأن يجعل فوق ذلك كله من البحر الأبيض المتوسط « بحيرة اغريقية »٠

ولم يكن الاسكندر ليشك مطلقا فى امكان تحقيق هذا الحلم الكبير ، لأن نفسه كانت أكبر ٠ وقد حمل فيما حمل من الأمانى العذاب ، أن يجعل العالم الجديد الذى اعتزم فتحه وتكوينه «هلينيا» في نظمه وصبغته وثقافته ٠

وسقطت موانىء فينيقية الواحدة بعد الاخرى فى يد الاسكندر، وانفسخ الطريق الى مصر ، وكانت فى أواخر خضوعها للحكم الفارسى من الضعف بحيث لم يكلف فتحها الاسكندر عناء يذكر ، فأسلمت القياد بعد فينيقية للفاتح الجديد ، وأصبح البحر الأبيض الشرقى فى قبضته ٠ وباستيلاء الاسكندر على سواحل فينيقية ، انقطعت الصلة بين الاسطول الفارسى فى البحر الأبيض ، والأملاك الفارسية فى الداخل ، وكان ذلك بمثابة هزيمة ثانية للفرس ، بعد هزيمتهم النكراء فى موقعة غرانيق ٠

وعاد الاسكندر أدراجه من مصر الى حيث يمكنه أن يقضى القضاء المبرم على الدولة الفارسية ، فيمم شطر آسيا يبغى لقاء العدو ، وسار حتى انتهى الى خرائب « نينوى » ، حيث وقعت واقعة

« اربل » الفاصلة ، وفيها هزم الفرس هزيمة منكرة ، نتيجة جهلهم الفاضح بما كان قد وصل اليه المقدونيون من التقدم فى فنون الحرب٠ وفر فى أعقاب الموقعة « دارا » ملك الفرس ، وقتل وهو يولى الأدبار بيد بعض الخونة من أتباعه ٠

وهكذا انكشف الطريق الى بلاد فارس ذاتها ، فغزا الاسكندر الفرس فى صميم بلادهم ، وأحرق عرش عاهل الفرس انتقاما لما كان قد اقترفه هؤلاء من حرق مدينة « ميليطيا » اليونانية فى آسيا الصغرى ، ومعابد « الاكروبول » فى أثينا ٠ ولم يكن الاسكندر يقصد بهذا سوى اعلان مقدرته على الانتقام من العدو ، فلم يكد يرى النيران يدب دبيبها فى ملك الاكاسرة ، حتى أمر بوقف الحريق ، قبل أن تستفحل خسائره ٠

وبلغ الاسكندر بعد ذلك حدود الهند ، وعاد أدراجه الى بابل التى كان قد اعتزم جعلها مركزا متوسطا للأشراف على امبراطوريته المترامية الاطراف ٠ وحمل الاسكندر الى البلاد المفتوحة روحا وثقافة يونانيتين ، وأنشأ المدن على النمط الاغريقى حيثما استقر ، وأطلق عليها اسمه الكبير ٠ ومن هنا وجد الفن الاغريقى سبيله الى آسيا الفارسية ، ودرج منها الى الهند والصين ، فترك اثارا له ما تزال ملحوظة فى فنون تلك البلاد حتى الوقت الحاضر ٠

* * *

اقترنت فتوح الاسكندر بفكرة معنوية الى جانب فكرة الفتح المادية ، ذلك أنه قصد فيما قصد الى نشر العلم اليونانى وبث روحه فى البحث ، فأرسل وهو بمصر حملة الى أعالى النيل تتعرف أسباب زيادته كل عام ، وبعث بأخرى الى سواحل بحر « الخزر » لتبنى أسطولا تجوس به خلاله ، وتكشف الاجزاء الشمالية منه ٠ وساعده على تحقيق الاغراض العلمية ذلك العدد الوفير من علماء النبات

الذين استصحبهم معه من بلاد الأغريق . وبمعونة هؤلاء ، أرسل الاسكندر مجموعة ثمينة من أنواع النبات التى صادفها علماء هذه الحملة الى استاذه « أرسطو » الذى كان يعلم فى الأكاديمية الأثينية حينذاك .

وقد كانت خطة الاسكندر فى جعل العالم الجديد الذى فتحه اغريقيا » واضحة كل الوضوح ، ولم يدخر وسعا فى العمل على تحقيق هذه الغاية ، فصاهر الأسرة الفارسية الحاكمة ، وحمل ضباط جيشه على الزواج من فارسيات ، وأوجد بهذا نسلا جديدا دان بدين الاسكندر ، وهو دين حضارة جديدة ، مزجت بين العنصرين اليونانى والشرقى . وكان فى ذلك أكبر تحقيق لأحلام الملك الشاب ، بعد رغبته الملحة فى الانتقام من الفرس ، وتكوين امبراطورية واسعة على أنقاض ملكهم العتيد .

* * *

تم للاسكندر ما أراد من قضاء على عزة الفرس باستيلائه على « سوسه » عاصمة دارا ، وانتهى اليه أمر الدولة التى طالما دوخت الاغريق . واستقر به الرأى آخر الأمر أن ينزل مدينة « بابل » السامية ، فيجعل منها مقرا لحكم البلاد المفتوحة ، بسبب توسط موقعها بين آسيا الصغرى وهضبة ايران ومصر . ولعله رأى أنها لهذا التوسط نفسه ، قد تصلح مكانا لادماج الغرب الأغريقى بالشرق ، وتكوين الحضارة الجديدة التى شغلت باله ، تلك الحضارة التى أساسها وقوامها العنصر الهلينى ـ لأنه كان يؤمن الايمان الوثيق بتفوق الحضارة الهلينية على ما عداها من الحضارات المعاصرة لها .

ولما فرغ الاسكندر من أمر الفرس ، عاد فوجه همه نحو الغرب ، يريد هذه المرة أن يطوق البحر الأبيض الغربى بسيادته .

ويقال أنه قد داخل الاسكندر ، بعد تلك الانتصارات الحاسمة التى أحرزها فى كل مكان ، شىء غير قليـــل من الغـــرور والنزعة « الأوتوقراطية » المقرونة بفكرة الحق الالهى المقدس ٠ وكانت نظرية « الحق الالهى » معروفة فى الشرق ، وفى مصر خاصــة ، منذ كان الملوك فيها آلهة هبطت الى الأرض ، ثم أبناء للآلهة فيما بعد ، كمــا كانت النظرية معروفة فى بلاد الأغريق ذاتها ــ فما أرتفع شأن أغريقى الى مثل ما ارتفع اليه شأن الاسكندر الأكبر ، الا وأصــبح بين قومه فى عداد الآلهة ٠

وما كاد الاسكندر ، بعد أن احرز انتصاراته الباهرة ، يلتفت الى الغرب ، لينجز فيه مثلما انجز فى الشرق ، حتى تكشــفت له مؤامرة خبيثة ، دبرها له صــفوة من أصـــدقائه الذين أكل الحقد قلوبهم ، بسبب ما كان يتأجج فى نفوســـهم من نيران الغيرة ، لأن العاهل العظيم لم تكن أطماعه لتقف عند حد ، ولأن شخصه عــلا فى نظرهم ، وبلغ من الســمو والدنو من مرتبة الآلهة حــدا لا يطاق ! ولكن الاسكندر لم يتردد لحظة فى القضاء على المتآمرين ، ومنهم أعز أصدقائه وأخلصهم « كليتس » الذى أنقذ حياته فى موقعة «غرانيق»، حين كان قاب قوســين أو أدنى من المــوت ٠ ومضى فى أثر كليتس « هيفستيون » ، أقرب أصدقاء الاسكندر الى نفسه ، فحزن عليه حزنا أثر فى بناء جسمه فأضناه ٠

وبينما الاسكندر يتأهب لاخضــاع شـــبه الجزيرة العربية ، ليتفرغ بعد ذلك لانجاز مشروعه الكبير فى الغرب ، عاجلته المنية فى بابل عام ٣٢٣ ق٠م٠ ، فى سن الثالثة والثلاثين ٠

* * *

حقق الاسكندر الأكبر للاغريق تفوقا سياســيا عظيما ، وكان موته حادثا تاريخيا كبير الأثر فى عالم السياسة فى ذلك الوقت ، اذ قدر للعالم الجديد الذى كونه أن تتقطع أوصاله ، كما كان فى الوقت

نفسه حادثا تاريخيا فى عالم المدنية ، حيث لم يقدر للفكرة الكبيرة التى ملأت نفس الرجل أن تتحقق على النحو الذى أراده لها ، ـ وهى فكرة ادماج الشرق بالغرب عن طريق حضارى ٠

* * *

وتنازع قواد الاسكندر بعد موته « فى بابل » تنازعا لم يمكن معه لأحدهم يتم مشروعه الكبير ، لأنهم كانوا جميعا دونه مقدرة على الاضطلاع بمثل أعبائه الجسيمة ، وانتهى نزاعهم الى النتيجة المحتومة ـ الى تقسيم ملكه ، وكانت مصر من نصيب « بطليموس » أحد قواد الاسكندر المهرة ٠

* * *

استقل « بطليموس » بمصر ، وكون بها أسرة أغريقية الأصل ، « تمصرت » تدريجا ، وحكمت مصر على غرار حكم الفراعنة ، وتمتعت بكثير مما كان لهؤلاء من بأس وسلطان ٠

وجد بطليموس الأول بادىء الأمر ضرورة الى الاستعانة بحامية اغريقية ، وابتنى لدولته الناشئة أسطولا فى البحر المتوسط ، وحكم مصر من الاسكندرية ، المدينة التى أسسها الاسكندر عام ٣٣٢ قبل الميلاد ٠

* * *

وليس يعنينا هنا كثيرا أن نتابع كيف حكم البطالمة هذه البلاد حكما سياسيا ، بقدر ما يعنينا أن نتابع كيف كان لذلك الوجود السياسى الذى أحدثه غزو الاسكندر لمصر أثره على وجوه المدنية والثقافة ، وكيف نهضت الاسكندرية ، مدينتنا العظيمة ، بأعباء العلم والثقافة حينا من الدهر ، أدت فيه رسالتها أمينة مخلصة للعلم والمدنية ٠

الفصل الرابع

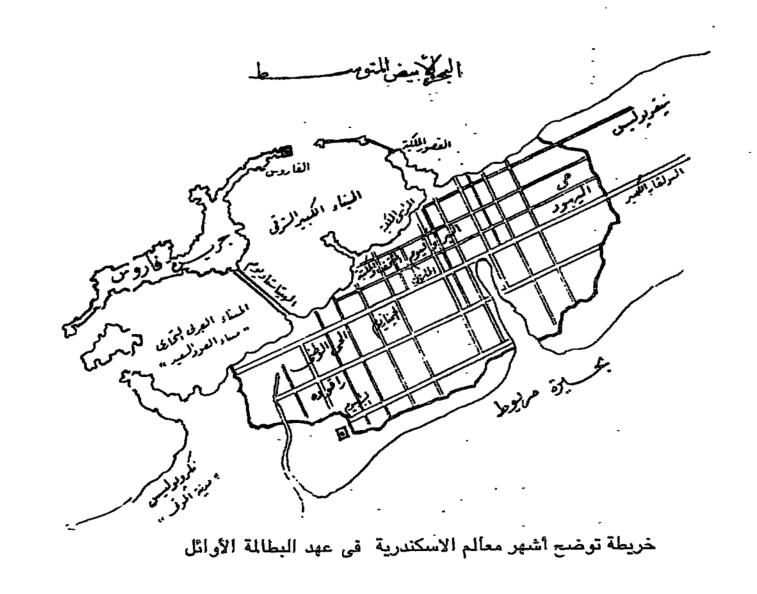
تأسيس الاسكندرية

اختيار الموقع ـ راقودة القرية الساحلية نواة الاسكندرية ـ تخطيط المدينة الجديدة وأشهر أحيائها ـ البروكيوم ـ اينوستوس الميناء التجارى ـ راقوده الحى الوطنى « راكوتس » ـ الحى اليهودى ـ أحياء اللهو والمجانة ـ فرضة الاسكندرية الخلفية على بحيرة مريوط ـ معبد السرابس ـ الفاروس ـ الجمنازيوم ٠

اختار الاسكندر لمدينته الجديدة مكانا فى الشمال الغربى من دلتا النيل ، بعيدا بعض البعد عن الاتصال بداخلية البلاد ، لتكون فى مأمن من المصريين اذا تنكروا للفتح الاغريقى يوما من الأيام ٠ وقد توخىأن تكون بهذا الابتعاد عنالدلتا قاعدة حربية سهلة الاتصال ببلاد اليونان بحرا ، وبمصر برا ، وأن يكون ما هنالك من صعوبة الاتصال بين داخلية البلاد المصرية وبينها نوعا من أنواع الحماية للمدينة الجديدة ٠

ويرى بعض المؤرخين انه لوحظ فى انشاء الاسكندرية من أول الأمر أن تؤدى مهمة تجارية الى جانب مهمتها كقاعدة سياسية وحربية ٠ وفى هذا الصدد يقول « رانكه » Ranke انها كانت أعظم مدن العالم حركة تجارية بعد « بيرية » ميناء أثينا ٠

هذا وقد دلت أحداث الزمن على حكمة سامية فى اختيار هذا الموقع ، ولا غرابة فقد كان الاسكندر صائب الفكر بعيد النظر ، رأى فى هذا الموضع خير مكان لانشاء مدينة واستقرار مدنية ٠



خريطة توضح أشهر معالم الاسكندرية في عهد البطالمة الأوائل

كانت تقوم فى موضع الاسكندرية قبل غزو الاسكندر قرية مصرية ساحلية ، يسكنها عدد ليس بالقليل من الصيادين ، وكانت تعرف هذه القرية باسم « راقوده » . وليس هنالك من شك فى أنها كانت قرية مصرية بحت كغيرها من قرى شمال الدلتا الساحلية ، لم تكن تبعث ضالة شأنها على أى نوع من أنواع الاتصال بموانى البحر الأبيض المتوسط ، لا سيما وأن سكانها من الصيادين لم يكونوا يملكون غير قوارب صغيرة للصيد ، لا تقوى على التوغل فى قلب البحر . وهكذا لم يكن لراقوده ، ولا لغيرها من قرى الساحل الشمالى لمصر ، أى اتصال تجارى أو غير تجارى بالعالم الخارجى قبل الغزو المقدونى .

ومن هنا ندرك مقدار التحول فى تاريخ هذه القرية التى قفزت فجأة الى الوجود كثغر هام من ثغور البحر المتوسط قبل ميلاد المسيح بقرون ثلاثة تقريبا .

اندمجت « راقوده » فى التخطيط الجديد ، وأصبحت الحى الوطنى فى مدينة الاسكندر الناشئة الى جانب الأحياء الاغريقية واليهودية . واحتفظت راقوده الحى الوطنى بالمدينة الجديدة بطابعها المصرى البحت على طول الزمن ، وأغلب الظن أنها كانت تتكون من مجموعة الأحياء الوطنية الممتدة من الأنفوشى الى القبارى . يحدونا الى هذا الظن أن معظم هذه الأحياء يقع خلف الميناء التجارى للمدينة ما يزال . وكان للوطنيين بتجارة المدينة منذ أسست أوثق اتصال لأنهم كانوا روح الحركة التجارية وقوامها ، لم يجد الأغارقة بدا من الاستعانة بهم فى شئون التجارة والملاحة ، فى وقت عكفوا هم فيه على الاستعمار وأحكام اساليبه وتمكين قواعده .

وظل شأن المصريين من سكان هذا الحى مستضعفا حينا من الدهر ، ولكنهم احتفظوا رغم ذلك بوحدتهم وقوميتهم ، وصمدوا

لأذى الأغريق بادىء الأمر ، وقاوموهم مقاومة عنيفة ، واحتفظوا بكيانهم المصرى أمام جبهة أغريقية غاية فى القوة والتماسك ، وكونوا عصبية مصرية ما تزال ملحوظة حتى الآن فى تلك الأحياء ، يفخر بها الاسكندريون الوطنيون ، ويعتزون ٠

وقد أدى تحول « راقوده » من قرية صغيرة خاملة الشأن ، يشتغل أهلها بالصيد ، الى ميناء عتيد ذى حركة تجارية عالمية ، الى ضرورة اشتراك الوطنيين واندماجهم فى حياة المدينة الاقتصادية ، لا سيما بعد أن مضى زمن على بدء الفتح ، تنازل فيه الأغريق عن كثير من شعور الأنفة الذى يصاحب الغزاة عادة ، اذ وجدوا من المصلحة ، وقد أصبحوا مصريين بالاستيطان ، ألا يجعلوا فارقا بينهم وبين المصريين الوطنيين ٠

وقد كانت الأسكندرية قبل الفتح الرومانى ، أى فى أواخر حكم البطالمة ، تتكون من عدة أحياء أشهرها :

(١) حى البروكيوم ، وفيه كانت تتمثل الأسكندرية الناعمة ، الرافلة فى الدمقس ــ وكانت به قصور البطالمة مشرفة على الميناء الشرقى ، من طابية السلسلة حتى موضع الأنفوشى ٠

(٢) الحى الوطنى ، فيه كانت تتمثل الأسكندرية المكدودة ، الدائبة الحركة ، وكانت تقع خلف الميناء الغربى « اينوستوس » أو « العود السعيد » كما كان يسمى ، ممتدة من رأس التين الى موضع الورديان ٠ وكانت قرية راقوده تحتل مكانه قبل انشاء المدينة ٠

(٣) حى اليهود ، وكان يقع خلف الميناء الشرقى أو الميناء الكبير ، الى الداخل ، فى أول الطريق العظيم « البولفار » المؤدى الى كانوب « أبى قير » ، وفيه كانت تتمثل الأسكندرية الممولة ٠

(٤) ضاحية « نيقوبوليس » ، وكانت تمتد على ساحل البحر فى موضع الرمل الحالى ، وفيه كانت تتمثل الاسكندرية العابثة اللاهية ٠

(٥) الأسكندرية الجادة ، الغارقة فى بطون الكتب ، المتهالكة على البحث فى المتحف الأسكندرى والمكتبة الملحقة به ، وكانت تقع بعيدا عن جلبة الحياة فى حى راقوده الوطنى ، ونعيمها ودعتها فى الحى الملكى ، ومجونها واستهتارها فى نيقوبوليس ، بعيدا عن شرور المال فى حى اليهود ٠

أما الحى الملكى فيصفه « سترابو » : بقوله « كانت تمتد القصور الملكية على الميناء الكبير فى الجزء الشمالى الشرقى من القوس الذى يكون الميناء ، ويلى ذلك غربا « المسرح الكبير » على التلعة المجاورة ، (١) ثم معبد « البوسيديون » فالغرفة التجارية ، فمخازن البضائع ، فبعض الأرصفة فيما جاور « الهبتاستاديوم » الذى هو نهاية قوس الميناء الشرقى الكبير ٠

وكان بالمدينة من الطرق الرئيسية ثلاثة : أحدها آخذ من الهبتاستاديوم مفرق الميناءين الشرقىوالغربى ، وكان يشق المدينة حتى موضع ميدان المنشية ، ثم يتابع سيره الى « السرابيوم » المعبد الأكبر، حيث كان البطالمة يعبدون « السرابس » أو عجل أبيس ، على نحو ما كان يفعل أواخر الفراعنة ٠

أما الطريق الثانى فكان يؤدى من الميناء الكبير الى فرضة الأسكندرية الخلفية على بحيرة مريوط ، وكان لا يقل اتساعا وتنسيقا عن سابقه ٠ وكانت بدايته من ناحية البحر تعرف « بباب القمر » ونهايته عند البحيرة تعرف باسم « باب الشمس » ٠

---

(١) وهى على الأرجح الربوة التى يقوم عليها الآن المستشفى الأميرى ٠

أما الطريق الرئيسى الثالث ، فكان يجرى عرضا ، وكان يعرف باسم « البولفـــار العظيـم » وينتهى الى كانوب « أبى قيـــر » ، ويمـــر بحى اليهـــود ، وكان به « الجمنازيوم » أو الملعب الرياضى القديم ، وكانت تحيط به من الجانبين العمد والآزاج وكانت على درجة من الجمـــال تبعث على كثير من الدهشة والاعجاب ٠ فاذا ما سرنا بهذا الطريق حتى وصلنا العراء ، ألفينا ميادين السباق التى اشتهرت بها الأسكندرية من قديم ٠ ومن عجب أن نرى ميادين السباق ما تزال قائمة فى نفس المكان حتى اليوم فى حى « سبورتنج » وعلى طول هذا الطريق كان يرى المار جماعات من النخيل مالت كلها نحو الجنوب من توالى عصف الريح عليها من ناحية البحر ٠

والى الشمال من هذا « البولفار » وبمحاذاة ساحل البحـر ، كانت ضاحية نيقوبوليس » حيث كان يقوم عدد كبير من المقاصف وأماكن اللهو البرىء ، وغير البرىء ، يؤمها اخلاط من الناس لـم يرعوا للأخلاق حرمة ٠ وكان كرام الأسكندريين يعافون ارتياد هذه الأماكن ، ويفضلون أن يتحملوا مشقة الانتقال الى الشرق القاصى ، حيث أقاموا جواسقهم على الساحل ، بمنأى عن شرور هذا الحى ، واصطافوا كما يصطاف أفاضل القوم الآن فى جهات الساحل النائية عن المدينة شرقا ٠

* * *

ولابد لمن يدرس الأسكندرية دراسة علمية ، أن يلم الماما دقيقا بأشهر المواقع والأبنية فى المدينة القديمة ويكفيه من ذلك ما قدمنا كما لابد لمن يدرسها من الوجهة المادية ، من أن يعرف شـيئا عن الثغـر الأسكندرى ، « والفاروس » منار الأسكندرية الأعظم ٠

كانت تقـع أمام الأسكندرية جزيرة تعـرف باسم « جزيرة فاروس » رأى بطليموس « فيلادلف » أن ينشىء عليها منارا لهداية

السفن ـ ونظـرا لضخامة البناء ، وجد من الضرورى أن تتصـــل الجزيرة بالساحل ببرزخ صناعى ، حتى يصبح من السهل نقل مواد البناء الى حيث أعتزم اقامة المنار ، ولكى يسهل تموينه بما يلزم من الوقود ومواد الغذاء التى تتطلبها اقامة حامية عسكرية على مقـربة منه أو فى بعض جهاته · وعرف هذا البرزخ باسم « الهبتاستاديوم » وبه انقسم الميناء قسمين : يكون كل منهما قوسا عظيما ، أحدهمـا ـ وهو الواقع الى يسار الداخل الى الميناء من جهة البحـر ، عرف باسم الميناء الكبير ـ والثانى، وهو الواقع الىيمينه ، عرفباسم ميناء « العود السعيد » تفاؤلا · وهو فرضة الأسكندرية التجـــارية على البحر المتوسط ·

وحدث فى القرن الرابع الميلادى أن هوى زلزال عنيف بالجـزء الشرقى من جزيرة فاروس حيث كان يقوم المنار ، فأصاب ذلك من المنار ما أصاب ـ وبعد ذلك فعل به الزمن شيئا غير يسير من التدمير، وأجهز عليه زلزال شديد فى القرن الرابع عشر الميـلادى فأغرقه عن آخره فى مياه البحر ـ وأغرق هذا الزلزال فيما أغرق الجزء الشمالى الشرقى من الميناء الكبير ، بما كان عليه من بقايا قصور البطالمـة ، وبقى هذا الشق من الميناء غير واضح التقـــويس منذ ذلك الحين وضوح الشق الآخر الغربى ·

* * *

أقام بطليموس فيلادلف على الطرف الشمالى الشرقى لجزيرة فاروس أكبر منار عرفه التاريخ الملاحى على الاطلاق ، بناه بأمـره المهندس المليطى « سوستراتس » فوق صخرة من الرخــام الأبيض على مثال برج بابل ، ولكى تسهل عملية بنائه ، أوصلت الجـزيرة بالساحل بممر عظيم الاتساع هو « الهبتاستاديوم » روعى أن تتصل من تحتــه ميــاه جزئى الميـنــاء ، فكان أشــبه شىء بجســر عظيم ، وتراكمت الرمال على مر الزمن ، فسدت الفتحات التى كانت تصل ما بين شقى الميناء تحت الممر ، فتحـــول الى برزخ صناعى ، يصل ما بين المدينة والجزيرة ·

ويرجح أن يكون مكان الهبتاستاديوم هو أكثر جهات المدينة دخولا فى البحر فى الوقت الحاضر ـ الأنفوشى ورأس التين .

وكانت مهمة هذا الفنار العظيم هداية السفن القادمة في البحر، بوهج من النار الدائمة الاشتعال فى قمته .

قيل أن بناء المنار كلف « فيلادلف » ما يقرب من مائتى ألف من الجنيهات ، والذى يقيس هذا القدر من النفقات بعظمة البناء ، يعتقد أن السخرة لابد أن تكون قد لعبت دورا كبيرا فى تشييده . وقد ضن « سوستراتس » مهندس المنار بهذا الجهد العظيم ألا يقرن باسمه ، فنقش اسمه على قاعدة المنار وغطاه بطبقة من « الأسمنت » نقش عليها اسم سيده « بطليموس » ، ما لبث أن أزالها الزمن وظهر اسم سوستراتس من خلفها . وقدر ارتفاع المنار بما يقرب من قامة الرجل مائة مرة ، وكان بناؤه يتكون من طوابق أربعة ، ثلاثتها السفلى مربعة ، تصغر ثانيتها عن أولاها ، وثالثتها عن ثانيتها ، ورابعتها مستديرة . وكانت تحيط بكل طابق شرفة عريضة ، ولكيلا تتأثر قاعدة البناء بارتطام أمواج البحر به ، قيل أن الرصاص المذاب استخدم بدلا من « الأسمنت » فى بناء القاعدة . وقيل أن المنار كان يحتوى على ما يقرب من ثلثمائة حجرة ، تقيم به حامية عسكرية لا بأس بعددها . وكان الوقود يحمل اليه يوميا على عجلات تصل الى الجزيرة بطريق الهبتاستاديوم ، ومن ثم يرفع الوقود الى القمة ، بنوع من الآلات الرافعة عرفه المهندس سوستراتس حينذاك .

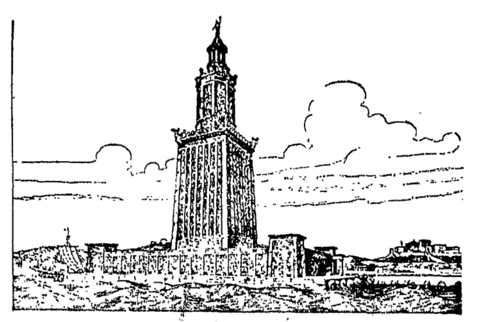
* * *

وفى أساطير العرب عن منار الأسكندرية شىء غير قليل من المبالغة ، اذ يقولون أنه أقيم على أساس زجاجى ، لأن مهندسه جرب جميع المواد ليرى أصلحها لبناء القاعدة ، فوجد أن الزجاج هو المادة الوحيدة التى يمكن أن تصنع منها لثقله (كذا) .

وأهم ما استرعى نظر العرب الذين فتحوا الأسكندرية فى

القرن السابع الميلادى ، المرآة العجيبة فى قمة المنار ـ تلك المرآة التى روى أن مناظر القسطنطينية كانت تنعكس عليها فيراها سكان الأسكندرية ! كما روى أيضا أن أشعة الشمس كانت تنعكس على المرآة ، ثم تصوب بما يتجمع فيها من حرارة الى سفن الأعداء فى البحر فتحرقها وهى على بعد مائة ميل ! ولا شك أن هذه القوة الخارقة التى أودعها سوستراتس مهندس المنار فى انعكاس الأشعة على مرآته ، ان صحت ، لكانت مما ينبهر له العقل الحديث ، اذ يبعد أن تكون نظرية العدسات قد عرفت فى مثل ذلك الزمن الممعن فى القدم . فاذا صح أنها عرفت ، فلابد أن يكون العلم اليونانى قد استنبطها فى « ميليطيا » Miletus أو فى « مصر » ، قبل أن يعرفها الفكر الحديث بالاف من السنين .

وافترى على العرب أنهم استخدموا المنار فى أغراض دينية ضد المسيحيين ، فاستغلوا هذه المزايا التى ترويها الأساطير عن المنار



الفاروس : فنار الاسكندرية الأعظم ـ أسسه بطليموس فيلادلف فى الطرف الشمالى لجزيرة فاروس حوالى ٢٩٠ قبل الميلاد وبقى قائما فى مدخل الميناء حتى عام ١٣٢٦ للميلاد

للانتقام من عدوهم فى البحر ، بالوقوف على حركات العـدو وتسليط الأشعة المحرقة على سفنه • قيل وظل أمر المنار هكذا حتى أرسل أحد أباطرة الروم الى الخليفة « الوليد » من يخدعه فيفهمه أن قاعـدة المنار تقـوم على كنز ثمين • قيـل نجحت الخـديعة ـ وأخـذ العرب يهدمون المنار ـ ولكنهم ما لبثوا أن فطنـوا الى الخديعة ، فاوقفوا معول الهدم ، وعبثا حاولوا اعادة الجزء المتهدم الى حالته الأولى ، وتهشمت المرآة الكبرى أثناء محاولة ارجاعها الى مكانهـا الأول فى قمة البناء ، والرواية مغرضة ومن افتراء المؤرخين اليهود لا محالة ، وما لم تعصف به يد آدمية عصفت به الأيام ، عملت الزلازل عملها السىء فيه فى القرن الرابع عشر الميلادى ، فلم تدع منه غير صخرة بيضاء ، غارقة فى البحر فى جهة « قايتباى » •

الفصل الخامس

الجامعة فى المتحف الاسكندرى
فى عصر بطليموس الأول « سوتر »
(٣٠٥ ـ ٢٨٥ ق٠م) ٠

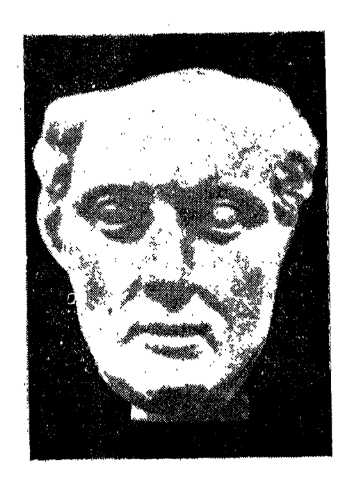
سوتر وتأسيس المتحف الاسكندرى ـ بعض معلوماتنا عن المتحف ـ نشأة الجامعة فى المتحف على غرار الأكاديميات الأثينية ـ وجه الخلاف بينهما ـ الغرض من اقامة المتحف ـ راعى المتحف ـ جامعة الاسكندرية وجامعات العصور الوسطى فى أوربا ـ كلية الملكة وكلية All souls فى اكسفورد وجامعة الاسكندرية ـ النظام الداخلى للجامعة ـ معاهد العلم اليهودية ـ اسكندرية سوتر المندثرة والمتحف ـ مكتبة المتحف ـ بعض علماء العصر الأول من عصور الجامعة: فليتاس القوصى ، زنودوتس البيزنطى ـ زيارة ميناندر الأثينى وافتتاح مسرح الاسكندرية ـ اكتشاف فيلون للبحر الأحمر الجنوبى ـ دراسة مانيتو وتيموثيوس وهيكتاتيس للعقائد المصرية القديمة ـ اقليدس وهيروفيلوس ـ سوتر يكلف بالدراسة والتاليف آخر الأمر ـ قيمة كتاباته ـ الفن الاسكندرى والفن الأغريقى ٠

ينسب بناء المتحف الاسكندرى خطأ الى بطليموس الثانى « فيلادلف » ، والحقيقة أنه من منشآت بطليموس الأول ، أو بطليموس «سوتر» أسسه بمشورة «ديمتريوس فاليروس» Demetrios Phaleros

الخطيب الأثينى الذى استصـــــحبه ســـــوتر فى عودته من حرب « ديمتريوس » ملك مقدونية ، تلك الحرب التى استعرت بينهما بسبب التنازع على السيادة البحرية على البحـــر الأبيض الشرقى حوالى سنة ٣٠٧ ق٠م٠

ومما يؤيد صحة نسبة « المتحف » الى بطليموس « سوتر » ، أن تنظيمه واعداده خليقان بأن يكونا من فكر رجل فيلسوف كديمتريوس، لا من عمل بطليموس « فيلادلف » رجل السياسة والحرب ٠ ومما نأسف له أننا لا نحصل الآن على كثير من معالم ذلك المتحف ــ فى الوقت الذى استطعنا فيه أن نلم بكثير من المعلومات عن المعـــــاهد المعاصرة له ٠ ومن عجب أن يكون هذا لأن المتحف أنشىء فى وضح التاريخ ، وفى عصر ملك شهير ، وفى مدينة من أعظم المدن المطروقة فى العالم القـــديم ، فاذا ما أمكننا أن نكشف عن بقايا الاسكندرية القديمة ، وهى الآن غائرة على بعد عشرين قدما تقريبا من مستوى سطح المدينة الحالية ، استطعنا أن نعثر ــ على الأرجح ــ على بعض معالم المتحف الاسكندرى ٠ هذا ، وقد أمكن أن نصل الى شىء غير قليل من انتاجه لحسن الحظ فى النقد الأدبى وفى العلوم الرياضية والجغرافية وغيرها من فروع العلم الذى كان يدرس فيه ، والذى كان من شأنه أن ساعد على تقدم العلم الانسانى بوجه عام ــ ولئن لاحظنا قصورا ظاهرا فى الشعر أو الفلسفة ، فانما يعزى ذلك الى ضـــعف هذا العصر الأول من عصور الجامعة فى هذين النوعين من الانتاج ــ بالقياس الى « أثينا » و « أيونيا » اللتين كانتا فى هـــذا العصر فى أوجهما العلمى ٠

اختمرت فكرة جعل الاسكندرية مركزا للتجارة ومستقرا للعلوم والآداب والفنون تدريجيا فى ذهن بطليموس « سوتر » ٠ ويرجع زمن انشــــاء المتحف كما قدمنا الى الوقت الذى وصــل فيه ديمتريوس فاليروس الى مصر ، وهو الذى ساعد سوتر على اخراج فكرة المتحف الى حيز الوجود ، على غرار الأكاديميات الأثينية ٠ وتســـمية هذه



بطليموس الأول « سوتر »
مؤسس المتحف الاسكندرى
(٣٠٥ ـ ٢٨٥ ق٠م)

المؤسسة العلمية باسم « المتحف » ترجع الى أصل « أتيكى » (١) ٠ ولا تزال تطلق كلمة المتحف على بعض الأندية الأدبية فى المانيا حتى الآن ٠

* * *

نشأت الأكاديميات الأثينية بادىء الأمر على شكل حلقات للدرس ، تنتظم حول معلم يتحدث الى تلاميذه فى ناحية من نواحي المعرفة ، وما لبثت هذه الحلقات أن استحالت هيئات علمية منتظمة ، عرف كل منها باسم « الأكاديمى » ، وتسمى باسم معلمه الأول ٠ وقد كانت هذه الهيئات فى بلاد اليونان غير خاضعة لأى اشراف حكومى، الا حين كانت ترى الحكومة ضرورة قصوى للتدخل فى حريتها العلمية ابتغاء الحد منها ، محافظة على سلامة الاداة الحكومية من أى شطط قد ينتجه التفكير الحر ٠

أما فى مصر ، فقد ضمنت « البيروقراطية » الحربية أن يكون المتحف تحت الاشراف الحكومى المباشر ، وفى رعايته ٠ وهكذا كان المتحف الاسكندرى منذ بدء نشأته ، هيأة حكومية تستمد وجودها مباشرة من الملك ، ويستمد كل فرد فيها حريته منه ٠

اذا كان هذا ــ فلأى غرض أقيم المتحف ؟

الحق أن بطليموس سوتر لم يكن يرمى من وراء انشاء المتحف الى اداء رسالة معينة للعلم تصدر عن ذلك المعهد ٠ ولم يكن هو يدرى كثيرا أو قليلا من أوجه الفرق بين الجامعة التى خلقها بالمتحف، وبين تلك الأكاديميات التى ازدهرت فى أثينا ، كما لم يكن من المتعلقين بمذهب خاص من مذاهب الفلسفة يمكن أن يقال أنه أسس هذا المعهد ليشغف فيه بتقصى مسائله الفلسفية ٠

لم يكن سوتر ذلك الرجل ــ وان كان فى ذاته شخصية من

---

(١) نسبة الى أتيكا Attica من مقاطعات بلاد اليونان ٠

أعظم شخصيات التاريخ وأضخمها آثارا · قصد « سوتر » الى غرض قد يكون سياسيا وقد لا يكون ـ قصد الى جعل المدينة التى أسسها الاسكندر الأكبر ، مقرا لحكم العالم الهلينى ، ما اســتطاع الى ذلك سبيلا · ومن أجل هذا شغف سوتر بالاستيلاء على مقدونية وفــرض سيطرته المطلقة على البحر الأبيض الشرقى · ولا شك أن سياســته هذه كانت ترمى الى مثل ما كانت ترمى اليه سياسة الاســكندر من التوسع ، مع فرق جوهرى ـ فقد كان الاســكندر يريد أن يجعل من مقدونيا نواة لامبراطوريته ، فى حين كان سـوتر يريد أن يجعل من مصر ، التى آلت اليه بعد وفاة سيده ، نواة لدولة هلينية ·

والذى يتأمل فى شخصية سوتر ، لا يعجب من سعة رغباته ، ولا يرى غضاضة فى أن يكون للرجل مثلما كان لسيده من الأطمــاع الســياسية التى أصــبح بحكم الظروف مركزها الطبيعى مدينــة الاســكندرية ، لهذا ـ لم يأل ســوتر جهدا فى توفير مظاهر الأبهة والعظمة لعاصمته الخالدة ، وكان غرضه الأول والأخير من انشاء المتحف ، أن يجمع فى الاســكندرية جمهرة من العلمــاء ـ تفكر ، وتحاضر ، وتكتب التواليف ، وتمتاز بتفوقها فى الأدب والعلم بغيــة التشبه بأثينا ، عاصمة العــالم الهلينى ومستودعه ـ وهكذا كانت رغبات العاهل الكبير منحصرة فى أن يســلب « مقدونيا » نفوذها السياسى ، ليتركز فى مصر ، و « أثينا » نفوذها العلمى ، ليســتقر فى الاســكندرية ·

* * *

وكانت هذه الجمهرة من العلماء تسكن المتحف ، تحت اشراف رئيس دينى يعينه الملك من الكهنة ، ويجــدر أن نذكر هنا أنه لم يكن مصريا كمعظم أعضاء هيئة المتحف ، اقتصرت مهمته على رعاية المتحف رعاية دينية ، وذلك تقليد نقلته جامعة الاسكندرية عن جامعة أثينا ، مع شيء من الاختلاف ، هو أن راعى الأكاديمية الأثينية كان ينتخب

انتخابا ، أما راعى متحف الاســـكندرية ، فقد كان يعين تعيينا لمدة تطول وتقصر تبعا لارادة الملك ٠

ولما استطاع سوتر أن يجعل للاسكندرية مكانة سياسية ممتازة، وتمكن فى الوقت نفســه من أن يهىء لهـا جوا علميا خاصـا ، أمها الطلاب من كافة أنحاء العالم الهلينى ، يطلبون العلم فيها على خير أســاتذته ٠

* * *

اقتصرت الجامعة الناشــئة على البحـث العلمى الذى كان مظهره أول الأمر النقد والنظر فى مؤلفات السابقين ، دون أن تكون مبتدعة أو مضــيفة الى الثروة العلمية جديدا ٠ ويعوزنا الكثير من المعلومات عن عدد الطلاب الذين كانوا يختلفون الى حلقات الدرس بالجامعة ، وعن نظام معيشـــتهم ، وعن العلاقة بين هؤلاء الطلاب وبين أســاتذتهم ، لنستشــف من تلك العلاقة شـيئا يشفى الغلة عن « الروح الجامعى » ٠

أما عن عدد الطلاب فلم نهتد الى احصـــاء ، ولم نقرأ هنـا أو هناك الا شيئا يفيد أن عددا من الطلبة الغرباء أم الاسكندرية طلبا للعلم ٠ ولابد أن يكون هذا العدد قد سكن المتحف أو سكن على مقربة منه ، حيث لم يكن له بالمدينة من غرض غير الدراسة ٠

حقا ــ لقد كانت بالمتحف أروقة ، الشائع أنها كانت لســـكن العلماء ، ولكن حقيقة معينة تدعونا الى الاعتقاد بأن الطلاب عامة ، سواء أكانوا من الأجانب النازحين الى الاسكندرية أو من الوطنيين ، كانوا يساكنون الأساتذة فى أروقتهم ، هى تلك الحقيقة التى يذكرها « مافى » فى كتابه « الحياة والعقائد الاغريقية ، ويقـــرر بهـــا ان نظام جامعة الاسكندرية كان كنظام «كلية الملكة» Queen's College فى اكسفورد فى أول انشائها ، أشبه شىء بمدرسة داخلية ، يختلف الطلاب فيها الى دروس يلقيها الأســـاتذة ، ثم ينصرفون فى أوقات

فراغهم الى الاســـتذكار فى حجراتهم · وأقل ما يؤخذ من ذلك ، أن الطلاب كانوا يعيشون بحكم هذا النظام مع أساتذتهم فى بناء واحد · ومن شأن هذا أن يفسح مجالا للتعاون العلمى ، بين الطلبة أنفسهم من ناحية ، وبين الطلبة وأساتذتهم من ناحية أخرى ـ ومن شـــأنه فى الوقت نفسه أن يظهر الجامعة بمظهر لا يتفق مع سمو النظام الجامعى الذى من أوضح خصائصه « البحث العلمى » وأخذ الطلاب به رويدا رويدا حتى تنمو فيهم ملكته · وذلك ما فطنت اليه جامعة الاسكندرية فيما بعد ، فقد نزلت عن هذا النظام العقيم تدريجا ، واشترك الطلبة فى الأبحاث العلمية ، وقاموا أحيانا بمهمة الأساتذة ، تدريبا لهم على مزاولة التدريس الجامعى ، ووقعت جامعـــات أوربا فى القـــرون الوسطى لا سيما « كليـــة الملكة » فى اكسفورد فى مثل ما وقعت فيـــه جامعة الاسكندرية أول عهدها بالحياة ، ولكنهـــا أدركت ما فى هـــذا النظام من قصور ، وجاءت كلية « أول صولز » All souls فى شكلها الأخير ، مصححة لهذا الخطأ فى النظام الجامعى ، فتقرر أن يقوم « الرفقاء » « بأبحاث » علميـــة وأدبية ، بعد أن يحصـــلوا من جامعة اكسفورد على درجاتهم العلمية ·

* * *

ويحق لجامعة الاسكندرية أن تفاخر جامعات العالم طرا بما سبقت اليه من جمع الآداب اليونانية وتنقيتها من الشوائب ، بفضل ما توفر لعلمائها وطلابها فى زمن بطليموس الثانى (فيـــلادلف) من المقدرة الفائقة على النقد الأدبى ·

ولم تكن جامعة الاسكندرية المعهد العلمى الوحيد فى المدينة ، بل كان لليهود معاهد خاصة يتلقى أبناؤهم العلم فيها على شرائعهم المتوارثة · وبقيت المعاهد اليهـــودية معاصرة للجامعة الى أن قامت بالاســـكندرية فى عهد الامبراطور « كلوديوس » دور أخرى للعلم أهمها « الكلوديوم » لدراسة التشريع الرومانى ، والاشادة بمؤلفات الامبراطور فى تاريخ الأتروسكيين والقرطاجنيين · وصحب دخـــول

المسيحية الى الاســـكندرية ، قيام مدارس نصرانية ناوأت الجامعة الوثنية كما ناوأت المعاهد اليهودية على السواء · وفى هذه المعاهد ، وعلى أيدى معلميها ، نمت القومية المصرية ، ونضج الشعور العام ، وانتقض فى الوقت المناسب على الآثار الإغريقية والرومانية ·

ويذكر « مافى » فى كتابة « امبراطورية البطالمة » أن جامعــة الاسكندرية اتخذت نموذجا لكل الجامعات التى تلتها ، فعلى غرارها نشأت جامعات أوربا الوسطى فى العصر الوسيط ·

* * *

حشد « سوتر » فى عاصمة ملكه جميع مظاهر الأبهة · وكان له الشرف الأكبر اذ نقل جثمان « الاســـكندر » الى مقبرة أقامهـــا له بالاسكندرية « السيما » ، أسس أفخم القصـــور ، وكون أروع بلاط ملكى عرفه البطالمة ، ذلك كله ـ الى ما وفره للمدينة من العتاد الأدبى والعلمى بهؤلاء الأكابر من رجال الأدب والعلم ، الذين اجتذبهم الى الاسكندرية من كافة أنحاء العالم الهلينى ·

وبلغت الاسكندرية فى عهد « سوتر » من روعة المظهر مبلغا بهر زائريها من المؤرخين · وصفها « أخيلاس تاتيوس » وصفا موجزا ، لكنه بليغ ، شـــاد فيه بذكر أنماطها الهلينية فى البناء ـ تلك الأنماط التى امتازت بالأعمدة ذات البائكات تقى المارة من حمـــــارة القيظ ، وتلك الضوضاء التى عرفت بها الاسكندرية من أثر وقع ســـــنابك الخيل تجر العربات على طرقاتها المرصوفة ، ومبانيها العامة البالغة حد الكمال فى العظمـــة والروعة ، ومرحها وطربها أيام الأعيـــاد ، وأضوائها الساطعة ليل نهار ، وأســـوارها التى أحاطت بها احاطة السوار بالمعصم ، وتلك البساتين النضرة تتخلل القصور الملكيـــة ، وفرضتها العظيمة ، وساحلها الرملى الجميل الذى يتلاشى فيه اليبس فى الماء تلاشـــيا غير محس ـ فى طرقاتها تقابلت مختلف اللهجات والعــــادات ، اكتنفتها الضاحيـــات الجميـــلة : كانوب والوزيس

ونيقوبوليس من الشرق ـ وجاورتها « نكروبوليس » مدينة الموتى ، من الغرب ٠

ومما يدعو الى الأســف أن أحـدا من المعاصرين الذين رأوا الاسكندرية رأى العين ، لم يخلف لنا وصفا كاملا لها ـ فهذا وصف « سترابو » لها مشوه مختصر ـ ولم تصل الينا صورة حيــة بعض الحياة سوى ما كتبه المؤرخ « بوليبيوس » فى فصل عقدة عن تتويج « بطليموس الخامس » ـ ليس هنا مكان لسرده ٠ وكل الأوصاف التى انتهت الينا عن المدينة خالية من ذكر شىء يشفى الغلة فى أمر المتحف الاسكندرى أو « الجامعة » ٠

ويرجح أن تكون أول مكتبة أنشئت بالمدينة قامت فى وقت واحد مع « المتحف » فى حى البروكيــوم ـ « الحى الملكى » ٠ ولا يذكـر « سترابو » وقد زار الاسكندرية فى عهد « أغسطس » ، شيئا ما عنها أو عن احتراقها ـ يقال أنه سكت عن ذلك عمدا ، تلبية لرغبة « اليوس جالوس » الوالى الرومانى ٠ وكل ما ذكره « ديودور » الصقلى ، أنه اطلع على نشرات كانت تصدر فى البلاط الملكى ، استقى منهـا بعض معلوماته التاريخية ـ ولم يشــر قط الى « مكتبة » اســتمد منها معلوماته ٠

ويرجح « مافى » Mahaffy أن تكون مكتبة الاسكندرية قد جمعت بطريقة مشابهة لتلك الطرق التى جمعت بها بعض المكتبــات الانجليزية الشهيرة ، كمكتبة « سندرلاند » ومكتبة « سبنسر » عــلى نحو ما تجمع وتقتنى قطع الخزف الثمينة ، أو صــور مشــاهير المصــورين ٠

فاذا ما كان الأمر كذلك ـ تعذر علينا أن نلم بفكرة واضحة عن الحياة الأدبية فى الاسكندرية فى عهد بطليموس « سوتر » ٠ والحــق أنه يصعب أن ننسب الى عصر « سوتر » تلك النخبة من رجال الأدب والعلم ممن يزخر العهد الأول بأسمائهم ، وتظل أسماؤهم مضطربة

حائرة بين أن تنسب الى أواخر عصر بطليموس الأول (سوتر) ، أو أوائل حكم بطليموس الثانى (فيلادلف) ٠

واذا سلمنا بنتائج أبحاث الألمان فى هذا الموضوع ، نسبنا هذه النخبة فى اطمئنان الى عصر بطليموس الأول ، الذى يعتبره « سوزميل » Susemihl صاحب الفضل الأوفى فى خلق حركة فكرية أدبية علمية فى الاسكندرية ، قام هو بحمايتها ، وترأس مجالسها ، وأصغى الى مناقشاتها المحتدمة التى خلت فى بعض الأحيان من الفائدة العلمية ، واقتصرت على اللجاج وحب المناقشة ـ ولا غرابة ، فهو تلميذ وصديق لأرسطو ٠

وكان بطليموس سوتر يعنى بتربية ابنه بطليموس فيلادلف عناية فائقة ، عهد بتنشئة الى « فيليتاس القوصى » (١) وهو شاعر ينسب اليه أول مجهود أدبى عرف عن الاسكندرية فىالشعر الرثائى ـ بل أول مجهود عرفه العالم القديم من هذا النوع من الشعر ٠ وكان « فيليتاس » الى هذا ، من أشهر علماء اللغة الاغريقية الذين صنفوا فيها ، ووضعوا لها موسوعة حوت كل مصطلحاتها ٠

وفى هذا العصر تابع « زنودوتس البيزنطى » Zenodotus of Byzantium التأليف فى قواعد اللغة اليونانية ، وراجع مصنفات هومر ـ وامتاز عصر الجامعة الأول بالدراسات اللغوية ، أكثر من امتيازه بغيرها ٠

ويحتمل أن يكون بطليموس « سوتر » قد أسس مسرح الاسكندرية ، وأن يكون قد دعا اليه « ميناندر » الأثينى المؤلف المسرحى الفذ ، ليشرف المسرح الجديد باحدى مسرحياته تمثل فيه ، وليطوق جيد الجامعة الناشئة بزيارته لها ٠

---

(١) نسبة الى جزيرة قوص من جزر بحر أيجه ٠

ومن طريف الأمور أن تكون جامعة « سوتر » قد قامت فى ذلك الزمن السحيق برحلات كشفية فى البحر الأحمر ، لا سيما فى الجزء الجنوبى منه ، بفضل أمير البحر « فيلون » Philon ، تصحبه نخبة من رجال علم الجغرافية الملاحين ـ وهى رحلات تذكر له بالاعجاب البالغ اذا ما عرفنا أن اليونان لم يكونوا قد جاوزوا منطقة البحر الأحمر الشمالية فى تجوالهم فى البحار ، وكان خليقا حقا بجامعة الاسكندرية أن تضيف الى علم الجغرافية جديد ٠

وعنى هذا العصر فيما عنى بدراسة « العقائد المصرية القديمة » (الميثولوجيا) ـ فقد وكل بطليموس الى « هكتاتيس الأبديرى » و « مانيتو » المؤرخ المصرى السمنودى ، والعالم « تيموثيوس » أمر هذه الدراسة ، قصدا الى تزويد الأمبراطورية البطلمية الناشئة بما يحتاج اليه تدعيم كيانها من العقائد المصرية القديمة ٠

* * *

والحق أن كل هذه الجهود الأدبية ، على مالها من قيمة ، كانت دون ما بلغته الاسكندرية فى علم الهندسة على يد «اقليدس» Euclid وفى التشريح على يد « هيروفيلوس » Herophilos ٠

وأشهر معلمى هذا العصر قاطبة « اقليدس » أبو الهندسة غير منازع ، ومؤسس مذهب البحث العلمى ـ وكتابه « المبادىء » أو « الأصول » أنماط فى صميم المنطق ، أكثر منه موضوعات فى الرياضيات ٠ واليه يرجع الفضل فى جعل عصر « بطليموس سوتر » عصر تفوق رياضى عظيم ـ له أثره البالغ فى تقدم العلم والعقل البشرى ٠

ويعتبر « هيروفيلوس » أبا « للتشريح » ، على نحو ما يعتبر « أبقراط » أبا للطب ٠ وبفضل « هيروفيلوس » سبقت مصر بلاد العالم طرأ فى دراسة الأمعاء دراسة دقيقة ٠ وكانت الحكومة تمده بالمجرمين المقضى فيهم بعقوبة الأعدام ، كما أمدته حظيرة الحيوان

الملحقة « بالمتحف » بأنواع من الحيوان ـ شرحها ودرسها واستنبط من كل ذلك طريقة علميـــة للتشريح ، ســـاعدت على رفع شـــأن جامعة الاسكندرية القديمة فى العلوم الطبية ٠

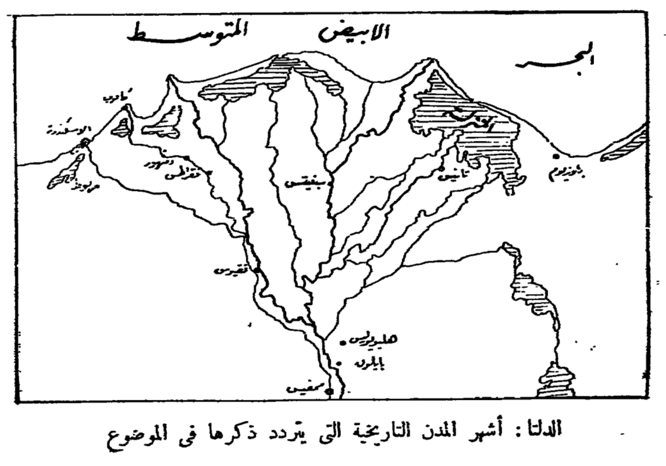
وتآزرت جهـوده وجهـود « اقليدس » ، على خلق تلك المكانة السامية التى بقيت مقترنة باسم المتحف الاسكندرى حتى وقتنا هذا ٠

وبينما كان الاسكندريون مشغوفين بمباحث العلوم البحتة ، كان الاثينيون مشغولين بدراسة الفلســـفة الرواقية والأبيقورية فى بلاد اليونان ذاتهـــا ٠

وهكذا كان عصر « سوتر » عصر نشاط أدبى ولغوى ورياضى وطبى عظيم ـ حقا لم تعن الاسكندرية بالفلسفة ، عناية « أثينا » التى كانت معقـــل الدراســـات الفلسفية بأنواعها ـ ولـكن ذلك لـــم يقلل من قيمة الدراسات الاسكندرية ، ولم يحط من قدرها ٠

* * *

انتهت شـــواغل « سوتر » بانتزاع الســـلطة البحرية من يد « ديمتريوس المقدونى » ، واســـتيلائه على قبرس ، وتفرغ للمدينة العظيمة يريد أن يجعل منها أعظم المدن الهلينية على الاطلاق ٠ واذا نحن أصغينا الى رواية « بلوتارخ » عن نقل جثمان الاسكندر ، ضعف لدينا القول بأن « سوتر » هو الناقل له الى الاســكندرية ٠ وتتلخص رواية « بلوتارخ » هذه فى أن بطليموس « فيلادلف » هو الذى نقـل جثمان الاسكندر الى منف ، ومن ثم الى الاســكندرية حيث دفن فى « السيما » ٠ ولكنا اذا ذكرنا حرص « ســـوتر » على أن يجمـع كل مظاهر الأبهة حول اسمه الكبير ، شككنا فى رواية « بلوتارخ » هذه ، وملنا الى الاعتقاد بأن « سوتر » صاحب ذلك الاسم الضخم ، هـو الذى أنجز ذلك العمل الكبير ٠



الدلتا : أشهر المدن التاريخية التى يتردد ذكرها فى الموضوع

وما أن اطمأنت نفس « سوتر » بنقل جثمان سيده ، وخلا من شواغله الخارجية ، حتى عنى بأمر المكتبة والمتحف ، واتجه آخر أمره الى الدراسة والتأليف • وقد عرف عنه أنه وضع مصنفا « فى حروب الاسكندر الأكبر » ، تلك الحروب التى أسهم هو فيها كأحد قوادها • ويضع « أريان » مؤلف « سوتر » هذا فى رأس المراجع التى استمد منها تاريخه ، ويصفه بأنه خير مصدر رجع اليه !

والمذكرات الخاصة التى يكتبها القواد عن أعمال أسهموا فيها ، لا يمكن أن تكون مرجعا تاريخيا يعتمد عليه ، اذ النفس البشرية مجبولة على حسن تقديرها لذاتها ، ميالة فى ذلك الى المبالغة والاغراق والتورط فى الكذب أحيانا • ولهذا لا يجمل أن تتخذ سندا من أسانيد التاريخ ، الا بكثير من الحيطة والحذر • وينسب الى نابليون الأول شىء من هذا فيما كتب من مذكرات خاصة • وقلما يكتب قائد أو سياسى عن نفسه متحريا الحقيقة ، ولم ينج « يوليوس قيصر » من الوقوع فى الخطأ نفسه ، حين كتب مذكراته الخاصة عن الحرب الغالية •

ويذكر عن « سوتر » أنه كتب عددا من الرسائل عن الشئون العامة فى عصره ، نشرها « ديونيسودورس » أحد تلاميذ « ارستاركاس » اللغوى ـ يؤسفنا أننا لم نفز بشىء منها حتى الآن •

* * *

وفى أواخر أيام « سوتر » ، كان لابد له من تسوية مسألة وراثة العرش ، حيث كان له أكثر من وريث • وكان أشدهم بأسا ولد له من يونانية ، أخذ « ديمتريوس المقدونى » يشد أزره ويناصره على بطليموس « فيلادلف » • وكان النزاع بين هذين الوريثين نزاعا فى الحقيقة بين اليونانية والمصرية • وكان انتصار أحدهما على الآخر تفوقا نهائيا لاحدى الناحيتين • وكان هوى الملك المسن مع بطليموس « فيلادلف » ، اذ كان يرى فيه خير

ممثل لسياسته ، سياســة الجمع بين اليونانية الهلينية والمصرية الفرعونية · وكان البطالمة أحرص ما يكونون تمسكا « بالمصرية » ؛ يقيمون على قواعدها ملكهم الجديد ـ لا مناص لهم من ذلك ـ خوفا على دولتهم الناشئة من أن تتزعزع أركانها ـ فتبيد ·

والذى يتأمل كيف كان يعنى « سوتر » بتربية ابنه « فيلادلف » على أيدى خير الأساتذة المربين ، يرى كيف كان يحرص الحرص كله على أن ينتهى ملكه الى « فيلادلف » دون ســـواه · وأخيرا ـ نزل « سوتر » عن العرش « لفيلادلف » ، وظل دائبا على الظهور فى بلاط ابنه عامين ، كواحـد من الرعايا · ومات سنة ٢٨٣ ق·م· ، تاركا على الزمن تاريخا حافلا بكثير من الحوادث الجسام ·

* * *

استطاع « سوتر » أن يركز دراسة العلوم والآداب والفلسـفة والطب فى عاصمة ملكه ـ ولكن ، هل استطاع أن يجعل الاسكندرية كعبة الفنون فى ذلك العصر ؟

ـ اذا جاز لنا أن نحكم بالشواهد التى بين أيدينا ، وهى تلـك النقوش البديعة التى ترى على العمـلة المتخلفة من هــذا العصر ، والمحفوظة فى دور العاديات ، لما توانينا عن الحكم بتقـدم الفن فى عصر البطالمة ، فى شتى نواحى الفنون الدقيقة ، المعروفة بالفنـون التطبيقية · غير أنه لا يجب أن يغيب عن بالنا ، ونحن نذكر الفنون ، أن الفن الاغريقى كان عليه أن يغالب فى مصر فنا من أقوى الفنون التى عرفها التاريخ ، هو الفن الفرعونى ـ فاما أن ينتهى الى التفوق عليه ، فيغلبه على أمره ، وأما أن يذعن له فى موطنه ، فيندمج فيه · والشاهد بصفة عامة أن المبانى التى أقامها البطالمة خارج الاسكندرية روعى فيها أن تكون فرعونية الصـبغة ـ غير أنها لم تخل من التأثر بالفن الاغريقى ·

ويمكن القول اجمـــالا ، أن البطالمة تأثروا بالديانة المصرية ، اكثر مما تأثر المصريون بالفن الاغريقى ـ فأقامـوا معابدهـم على على الطراز الفرعونى ، وهكذا طغت «المصرية» على الفن الاغريقى ـ اللهم الا فى الاسكندرية ذاتها ، حيث بقى كل شىء يونانيا صرفا • واقيم بالاســكندرية فى ذلك العهد عدد لا بأس به من الأبنية العامة كالمتحف والملعب والمسرح والسيما (قبر الاسكندر) • وكانت كلها اية فى ابداع الصنعة الاغريقية •

* * *

ومن الأدلة المادية على تقـــدم الفن الاغريقى فى هذا العصـر ما ابدعته يد نحات اغريقى لتابوت من الرخام ، لا يزال باقيـا فى متحف القسطنطينية ، لملك مجهول الاسم من ملوك (صيدا) ، هـو تحفة من تحف فن الحفر وحذق الألوان ـ ومنها كذلك ، تلك المشاهد التاريخية التى ترى محفورة على الأحجار ، تمثل المعارك الحـربية التى وقعت للفرس مع الاغريق ، وتلك الصـور الرمزية التى أنتجها خيال رجال الفن من الأغارقة ، وقصدوا بها أن تمثل امتزاج الغرب بالشرق بطريق الحضـارة الاغريقية ـ وغير هذا وذاك من مناظر الصيد ، وزخرفة واجهات المعابد بالمنحوت البارزة ـ وكلها آيات فى الفن رائعات ، ما تزال باقية شـاهدة بتفوق العصر فى الفنون على اختلافها ؛

وأغلب الظن أن الاسكندرية ، بما توفر لها من سمو المكانة بين مدن العالم الهلينى ، لابد أن تكون قد استهوت أمهر البنائين ورجـال الفنون • وما من شك فى أن عروس البحر المتوسط ، ووارثة أثينـا فى العمران والمدنية ، لم تكن الا من صنع هؤلاء الفنانين وابداعهم •

* * *

ويحدثنا « شريبر » Shreiber عن فن نشأ فى الاسكندرية ، وازدهر فيها ، وانفردت به ، هو صناعة الأوانى الذهبية والفضـية

التى تتخذ عادة مقياسا لتقدم الحرف اليدوية · وهو يحاول جاهدا أن يثبت أن الاسكندريين كانوا أساتذة العالم فى هذا المضمار ، وهو فى الوقت نفسه يدلل على أن المدرسة الشعرية الايطالية التى يختتمها « بنفنيتو سلينى » ، والمدرسة التى تزعمها « سلينى » قبله ، أخذتا بنصيب وافر من الأدب الاسكندرى ، ويشير « شريبر » الى حب الاسكندريين للطبيعة ومناظرها ، وتقديرهم لما فيها من روعة وجلال · وهو يحرص على الاشارة ، الى أن الاسكندرية كانت فى هذا العصر نقطة التقاء العلم بالفن ، ومركز امتزاج الشرق بالغرب ، وبؤرة الجمع بين القديم والحديث ـ أشبه ما تكون فى هذا كله ، بثوب « بيزنطى » مختلط الوشى ·

* * *

وليس الفن ناحية من نواحى نشاط الجامعات ، ولا هو عادة يتصل بانتاجها ، ولكنا عرضنا الى الفن بهذه الكلمة القصيرة ، لنرى مدى ما اثر فن الاغريق فى مصر عامة ، وفى الاسكندرية خاصة ـ ولا جدال فى أن فن العمارة استدعى من الاسكندريين دراية بدراسة الأصول الهندسية · ونحن وان كنا لا نحصل الآن على ما نثبت به أن الهندسة التى اشتهرت بها الاسكندرية ، كانت تطبق أصولها ، ويستفاد منها فى فنون البناء استفادة عملية ، الا أننا نرجح أن فن العمارة لابد أن يكون قد استفاد كثيرا من هندسة اقليدس ·

الفصـــل السادس

الجامعة فى المتحف الاســكندرى
فى عصر بطليموس الثانى « فيلادلف »
(٢٨٥ ــ ٢٤٧ ق٠م٠)

فيلادلف نصير الحركة العلمية والأدبية ـ شغف فيلادلف بالدراسة وتشجيعه لها ـ الكشف وخدماته للمتحف ـ فيلادلف يترأس مجالس الأدب والمناظرة ـ الأدب الذى نتج لهذا العصر ـ تخاصم الفلاسفة والأدباء وأثره فى الحـــــالة الأدبية ـ بعض الآثار الأدبيـــــة لثيوكزيتس وأبولونيــــوس وأراتس وكليمـــــاخوس وهيرونداس ـ العناية بالمكتبة ـ أثر تلك العنـــاية فى الثروة العلمية اليونانيـــة ـ طبيعة الشعر الاسكندرى وأثر « ثيوكريتس » ـ مانيتون يضع تاريخه ـ ترجمـــة التوراة السبعينية الى الأغريقية ـ البردى المكتشف من هذا العصر ـ الرخاء المادى فى عصر فيلادلف وأثـــره فى تقدم العلم ـ الفاروس والمرآة ذات الأشعة الحارقة ـ انشاء مكتبة فرعية فى السرابيوم ٠

اعتلى بطليموس « فيلادلف » عرش مصر وســـط عاصفة من المنافسة الشديدة بينه وبين أخوة له من يونانية ـ كان « ديمتريوس المقدونى » يشد أزرهم ، وقدر لفيلادلف أن يفوز بالعرش ، وكان ذلك من حظ مصر ، لأن فيلادلف كان من انصـــار ســـياسة الأدماج بين الحضارتين اليونانية والمصرية ٠

وكانت نشأة فيلادلف العلمية وتربيته كفيلتين بأن يخلقا منه نصيرا للحركة العلمية • وكان قد أظهر منذ الصغر ميلا الى الدراسات الطبيعية كدراسة الحيوان والنبات • ويذكر « سترابون » و « سيودور » كلف البطالمة عامة وفيلادلف خاصة ، بالكشف وما تدفعه من اجتلاء الحقائق الجديدة فى عالمى الحيوان والنبات •

ويرجع الفضل فى تنمية الرغبة فى دراسة الحيوان والنبات الى « ديمتريوس الفاليرى » الذى اضطلع فى عهد « سوتر » بانشاء الاكاديمية ، بمعاونة نفر من جلة رجال العلم المعاصرين له •

أدى شغف البطالمة بالحيوان الى جمع عدد لا يستهان به منه فى حديقة الحيوان الملحقة بالمتحف ، فقد كانت تحوى من عجيب الحيوان ٢٤ أسدا ، ٢٦ ثورا هنديا أبيض ، ٨ ثيران اثيوبية ، ١٤ لبؤة ، ١٦ فهدا ، ودبا أبيض وعددا وفيرا من الفيلة ، ١٤ وعلا ، ٨ حمير وحشية ، وعددا من القردة والجمال اليمنية ، وغير ذلك مما يستدل منه على أن سفن البطالمة جاست خلال البحر الأحمر وبلغت بلاد « بونت » والسومال والمحيط الهندى حتى سواحل الهند ، وربما ارتحلت غربا ، فشمالا فى المحيط الأطلسى ، حتى وصلت الأقاليم الباردة •

وأدت حركات الكشف والارتياد ـ فضلا عما أسدت من خدمات للعلم فى ميدان النبات والحيوان ـ الى رواج التجارة بين الاسكندرية وتلك الانحاء النائية • وجلبت السفن الى مصر ما كان يلزمها من الأخشاب والعطور والتوابل والأبنوس وريش النعام وسن الفيل ، وهكذا كانت حركة التقدم المادى التجارية مصحوبة بحركة تقدم علمى ـ اذ لم تخل سفينة قادمة تحمل البضائع من جهات المحيط الهندى والبحر الأحمر ، من شىء تمد به المتحف ، من عجيب النبات وغريب الحيوان •

ورغم ما صادف « فيلادلف » من شواغل السياسة والحرب ، فقد صرف عناية مشكورة فى تشجيع دراسة الفلسفة والشعر والعلم البحت ، وخص أعضـاء المتحف بفضله العميم • ولم يدخر هؤلاء وسعا بدورهم فى تعليم الملك وتثقيفه ، وادخال السرور على نفسه • ولم تخل مجالسـهم من نقاش كان يحتدم أحيانا الى حد المهاترة ، وكان من شـأن هذا الاحتدام أن خلق روحا أدبيا صاخبا ، امتاز به مجتمع الاسـكندرية فى ذلك العصر • واختصـم رجال العـلم بالاسكندرية فيما بينهم ، وتنابذوا ، وتنافسوا بغية الحصـول على الحظوة عند الملك الذى كان على ما يلوح يعجب بهذا النضال الأدبى بين فلاسفته ، اعتقادا بأن ذلك الوطيس الحامى بينهم ، من شأنه أن يساعد على نضوج الأدب ، ورقى النقد الأدبى •

وأعظم مختصمين فى هذا العصر « كليماخوس » Callimachus العالم الشاعر ، « وأبولونيوس » الرودسى Apollonius of Rhodes وقد استفاد الأدب من الحرب الشعواء بينهما أيما استفادة •

* * *

كتب أدباء الأسكندرية فى عصر فيلادلف مثل الذى كتب أدباء انجلترا من « سبنسر » و « تايلور » و « سوفت » و « بركلى » لطبقـة خاصة من الشعب أدبا متساميا لا تتذوقه الطبقات الدنيا ، لبعـد ما بين لغتها الدارجة ولغة الأدب الرفيع • ومن ثم حرم الأسكندريون من عامة الشـعب من ذلك الأدب الذى كتب باليونانيـة الفصـحى للبلاط الأسكندرى •

* * *

ولكن الحركة الأدبية شاهت بعض الشىء من جراء ذلك التنابذ، واعتكر جو « المتحف » الأسكندرى بتلك الخلافات الشخصية ، ونزع الأدباء الى حب الظهور ، وتسـقطوا الأخطاء بعضـهم لبعض ،

فتتساءلت الثمار الأدبية ، وان لم تخل من جمال · ومن أمثلتها فى هذا العصر أغانى « ثيوكريتس » Theocritus ، وقصائده عن حياة الرعاة فى صقلية موطنه الأول ، ومقطوعة « أبولونيوس » الرائعة Rhodius ومنظومة « أراتس » Aratus التعليمية فى الفلك والطقس ، وأناشيد « كليماخوس » للآلهة وعواهل البطالمة ، وتصوير « هيروندإس » Hirondas للشخصيات البارزة ، وشعر الرثاء الذى ازدهر فى هذا الوقت وعظم أمره على يد استاذه كليماخوس ، وكانت له منزلة رفيعة بين فنون الشعر فى ذلك الحين ·

ووكل فيلادلف أمر المكتبة الملحقة بالمتحف الى « زنودوتس » البيزنطى Zenodotus of Byzantium وأمده بعالمين فى فن المكتبات يساعدانه على تبويب « الرواية » وتقسيمها الى « فاجعة » و « هازلة » ـ هما الأسكندر أنوتوليان وليكوفورون ، فى حين قام « زنودوتس » منفردا بتبويب الشعر الغنائى والشعر الروائى ·

من هذا نرى أن الانتاج الأدبى المحلى فى الأسكندرية كان بالاضافة الى الأدب الموروث عن اليونان يكون ثروة كبرى ، لا يقوى على تبويبها شخص واحد · وكثيرا ما وكل أمر المكتبة الى أكثر من « أمين » واحد ، ويتضح من ذلك عظم محتوياتها وتشعب العمل فيها · ولقد كان ذلك العمل الجليل الذى قام به « زنودوتس » ومساعداه وتابعه من بعدهم الشاعر الفيلسوف « كليماخوس » ، عظيم الأثر فى حفظ الثروة الادبية اليونانية ، والتعليق عليها بما كفل لها حياة خالدة أفادت الباحثين فى تراث الاقدمين فائدة كبرى ·

ولم تقف جهود علماء هذا العصر عند التعليق والنقد ، بل تعدتهما الى الوضع والتأليف · وكان العلماء يجدون فى جزيرة « قوص » Cos من جزر بحر ايجه مهربا من ضوضاء المجتمع الاسكندرى ، وهناك أخذوا ينتجون فى هدوء تلك الجزيرة ما قدر لهم أن ينتجوا · ومما يؤسف له أننا لم نفز بما كتب الإسكندريون فى نقد الأدب اليونانى وان كنا قد فزنا ببعض ما وضعوا من الأشعار ·

وأقوى شعراء هذا العصر على الاطلاق «ثيوكريتس» Theocritus الذى ضنن بفنه أن يذهب بجماله ملق أو رياء ، فلم يسخره للمديح ، وآثر أن يكتب عن الحياة الريفية فى صقلية ، فوصف وهاد الجزيرة وربناها ومراعيها وغاباتها وصفا رائعا ، وصـــور حياة الرعاة فيها أدق التصوير ـ فخلق بما كتب روحا جديدا فى الشعر الاسكندرى ، بعد كل البعد عن ذلك الزيف الشعرى الذى جرى عـلى السنة كثير غيره من شعراء العصر ٠

ويؤخذ على « فيلادلف » حبه الشـــديد للملق ، وهو فى هـــذه الناحية يشـــبه « لويس الرابع عشر » ٠ وكان فى بلاطه تنافس بين النســـاء على نيل الحظوة عنـــده ، وتنافس بين رجال الأدب على التقرب منه ـ والى هذا يعزى ضـــعف الأدب فى جملته ، ويرجـــع السبب فى قلة غنائه ٠

ومن مآثر «فيلادلف» على الزمن أنه كلف «مانيتون» Manethon بنقل تاريخ مصر الى اللغة الأغريقية ، ولهذا العمـــل أهميته ، فقد ظلت المصادر اليونانية فى تاريخ مصر العماد الوحيد فى تاريخ البلاد الى أن كشف « حجر رشيد » ، وأمكن الاتصـــال بأخبار المصريين القدماء اتصالا مباشرا ، بطريق حذق « الهيروغليفية » رأسا ٠

وفى عهد فيلادلف قام جماعة من فلاسفة اليهـــود بترجمـــة التوراة الى اللغة الأغريقية بأمر من الملك ، فظهرت النسخة المعروفة باسم « التوراة السبعينية » ويونانيتها نموذج رائع من الأســـاليب اليونانية ، يرتفع كثيرا عن مســـتوى اليونانية التى كانت شـــائعة حينذاك فى المستعمرات الأغريقية ٠

وعثر « سير فلندرز بترى » على مجموعة من أوراق البردى فى منطقة الفيوم تحمل الآن اسمه ، وهى قطع من « هومر » « وأفلاطون » و « يوربيديز » و « الكوميديا الجديدة » وغير ذلك من الشعر والنثر

اليونانى ، نسبها جميعا الى عصر « فيلادلف » ، حيث كانت تقيم بالفيوم على عهده جالية يونانية مثقفة ، تقرأ الأدب وتتذوقه ــ وهى محفوظة كلها بالمتحف البريطانى ٠

* * *

ولا مفر من أن نذكر هنــا أن عصر بطليموس فيلادلف امتاز برخاء مادى منقطع النظير ــ ولابد أن يكون انفاقه على معاهد العلم وأندية الأدب ، وشراء الكتب لمكتبة المتحف ، قد بلغ حــدا كبيرا من السخاء وبسط اليد ٠

* * *

هذا وقد أغراه تقدم المدينة التجارى ، على بناء أكبر « فنار » عرفه العالم القديم ــ بل والعالم الحديث أيضــا ، ذلك الفنار الذى ما يزال يعد أعجوبة من أعاجيب البناء ، شاده له المهندس اليونانى « سوستراتس » Sostratus فى مفرق الميناءين الغربى والشرقى ، للاسكندرية على الطرف الشــمالى الشرقى من جزيرة « فاروس » Pharos ومن ثم اتخذ الفنار اسم « الفاروس » واشتهر به ٠

والفنار فى ذاته ــ بغض النظر عما كان فى المدينة من الأبنية العامة ، نموذج فذ لتقدم فن البنــاء فى ذلك العصر الممعن فى القدم ، وهو الى ذلك ، دليل على تقدم علم الهندسة العملية ، وعلم الطبيعة الذى استعان به « سوستراتس » على اقامة قاعدة البناء الضخم فى ماء البحر ، ووضع المرآة الكبرى ذات الأشعة الحارقة فى قمته ، بمــا كان لها من خصــائص أحاطتها الأقاصيص بكثير من المبالغات التى تجعلها فى عداد الأساطير ٠

ولكن ــ ترى هل كانت نظرية العدسات قد عرفت فى مثل ذلك الزمن ؟ وان صح أنها عرفت ــ فهل كانت معرفتها فى بلاد اليونان ــ

أم فى الاسكندرية ؟ وفى هذا يؤكد « هـ٠ج٠ ولز » فى تاريخه ، قعـود الاسكندريين عن الاستفادة العملية من نظريات علمائهم ٠ على أنه ليس غريبا فى عصر تقدمت فيه علوم الطب الى حد ممارسة نظرية التشريح الحى ، ورقت الهندسة الى درجة العلوم الرفيعة ، أن تعرف نظرية العدسات ، وأن تستخدم استخداما عمليا ٠

* * *

وهناك خلاف بين المؤرخين فى أمر مكتبة أنشئت بالمدينة بعيدا عن البحر فى موضع السرابيوم ، عند ما ضاقت أبنية المكتبة الملحقة بالمتحف بكتبها ، يؤكد « كلبل » Klippel أنها أنشئت حوالى عام ٢٥٠ ق٠م٠ ـ فى حين يرى « ماتر » Matter أن الذى أنشأ هذه المكتبة الفرعية هو بطليموس أورجيتس الثانى (١٤٦ ـ ١١٧ ق٠م) والأرجح أنها انشئت قبل عام ٢٥٠ ق٠م بقليل ، وأن منشئها هـو بطليموس فيلادلف ٠ وعرفت هذه المكتبة باسـم المكتبة « الوليدة » بالنسبة لمكتبة المتحف الكبرى التى ظلت تعرف باسم المكتبة «الأم» ٠

الفصــل الســابع

فى عصر بطليموس الثالث « أورجيتس الأول »

(٢٤٧/٢٢٢ ق٠م)

أورجيتس وبهاء عصره ـ اراتوستنيز العـــالم الأديب ـ دوسيثيوس وكانون ـ قطعـــة من اراتوستنيز بنصها اليونانى وترجمتها العـــربية ـ أدب هذا العصر بوجه عام ـ المجموعات الألمانية المحتوية على أهم الآداب المتخلفة من عصر البطالمة ـ ارسطفانيس البيزنطى ونقد الأشعار الهومرية ٠

هذا العصر فى رأى بعض المؤرخين أزهى عصـــور جامعة الاسكندرية انتاجا اذ كان المتحف والمكتبة أظهر ما فى الاسكندرية فى عهد بطليموس الثالث ٠ ويذكر سوزميل Susemihl أن ميول بطليموس الثالث « ايورجيتس الأول » كانت علمية بحت ، فقد كلف بدراســـة العلوم كلفا لا حد له ، فى حين كان شغف سلفه « فيلادلف » قاصرا على علمى النبات والحيوان ٠ ويرجع الفضل فى كلف « أورجيتس الأول (الرحيم) بالعلم الى هذا الحد ، الى « اراتوستنيز » Eratosthenes العالم الرياضى الأديب ، الذى استدعاه « أورجيتس » من « أثينا » ليحل محل « كليماخوس » أمين المكتبة بعد موته ، وليكون اســـتاذا خاصا لولى العهد ـ و«اراتو» Erato يعد بحق ، لسعة معارفه ، وعلو كعبه فى العلم « افلاطون » عصره ، فقد صنف فى الهندسة والنحـــو والفلسفة الى جانب الجغرافيا والفلك ٠

شغل « اراتوستنيز » وشغل معه أعضاء المتحف بمباحث الفلك والجغرافيا الطبيعية بوجه خاص ، وهو أول من قاس محيط الأرض ٠ ووفد على الاسكندرية فى هذا الوقت «أرشميدس» عالم الطبيعة المعروف ،

ومكث بها مدة فى صحبة « اراتوسثنيز » · وفى نفس الوقت تمكن « دوسيثيوس » Dosithios « وكانون » Canon وغيرهما من توسيع دائرة العلوم الرياضية · وتبدت فى هذا العصر رغبة واسعة فى جمع المخطوطات أغرت كثيرا من الناس على تزويرها ومحاكاة أوراق البردى القديمة ، طمعا فى الكسب ·

وتمتع هذا العصر بتقدم فى الآداب ساير التقدم العلمى والرياضى ، فيه بذل العلماء جهودا لا بأس بها فى الميدان الأدبى · وقد كانت « لأراتو سثنيز » نفس شاعرة الى جانب عقليته الرياضية · وقد وصلتنا بعض المقطوعات الشعرية من هذا العصر ، أشهرها مقطوعة « اراتوسثنيز » فى بطليموس الثالث وولى عهده ، وهى اكتشاف كبير الخطر فى دائرة الأدب والعلم ، وهى تحمل تحية الملك العظيم ، ودعاء الملكه أن تتوطد دعائمه ، كما تتضمن بعض أبحاثه العلمية ـ ففيها عثرنا على حل عملى للمسألة الهندسية المعروفة « ايجاد الوسطين المتناسبين بين خطين » ·

Finding two mean proportions between any two lines.

هذا الى جانب ابحاثه فى الفلك ، وأشهرها « قياس محيط الكرة الأرضية » وجهوده فى ناحية الجغرافيا الطبيعية ، والخريطة الدقيقة التى وضعها للعالم المعروف اذ ذاك ·

وفيما يلى النص اليونانى لجزء من منظومة « اراتو » :

Εὐαίω Πτολεμαΐε, πατὴρ ὅτι παιδὶ συνηβῶν
Πάνθ' ὅσα καὶ Μόνοαις, καὶ βασιλεῦοι Φίλα
Αὐτός ἐδωρηόω ὅδές ὕστερου, οὐράνίε Ζεῦ,
Καὶ σκήπτρωυ ἐκ σῆς ἀντιάσειε Χερός
Καὶ τὰ μὲν ὡς τυλεοίτο λεμοι δε τις αὐθέμα λεύσσωυ.
Τοῦ κυρηναίου τοῦτ' 'Εράτσα θευεός

وترجمته العربية :

« أنت يا بطليموس خليق بالمديح

اذ حبوت ابنك بما صبت اليه آلهة الشعر(١)
وأنت ما تزال فى شرخ الصبا ، وميعة الشباب ٠
« أما أنه(٢) سليل السماء ـ فحق ٠٠٠
ولسوف ينقل اليه « جوبتر » صولجان الملك من يدك ٠
« اللهم حقق رجائى ، واستجب لدعائى !
ان كل من يسمع هذا الثناء عليك
سوف يهمس : « هذا قريض لكرنيوس اراتوستنيز »(٣)

والأدب الذى هذا شأنه ، أدب مادة لا أدب فن ٠ وكنا نود أن نحصل على شىء مما كتب الشاعر عن الحياة الريفية فى صقلية ، فلا شك أن ما كتبه فى ذلك المعنى ، كان أصدق تصويرا لشاعرية « اراتوستنيز » من هذا الشعر المادح ٠

وهكذا كان الأدب يتجه نحو الملوك يمدحهم ، ويؤيد عرشهم ، ويتملقهم رغبة فى عطاء يبذل أو حظوة تنال ٠

ويحيلنا « مافى » على مجموعات « كلنتون » « ورتشـل » « وهولم » « وونجر » « وسوزميل » ـ وتحتوى جميعها على كل ما أمكن الحصول عليه من الآداب اليونانية الاسكندرية ٠

ومن علماء العصر البارزين « أرسطفانيس البيزنطى » وهو تلميذ للعالم « زنودوتس » الذى مر بنا ذكره ، والعالم « كليماخوس » وهو ناقد أدبى كبير ، نظر فيما كتب « زينودوتس » من نقد سابق لأشعار « هوميروس » ، وزاد من فهرس الأداب اليونانية الذى وضعه « كليماخوس » ٠ وشغل ارسطفانيس وظيفة أمين مكتبة المتحف ، ونيط به أمر تربية ولى العهد ٠

---

(١) Muses (٢) ولى عهدك
(٣) لعل فى ذلك اشارة الى أنه كان شاعر البلاط ٠

الفصل الثامن

من بطليموس الرابع الى بطليموس السابع
(٢٢٢ ـ ١١٧ ق ٠ م)

عصر انحلال ـ بطليموس الرابع يغـــرم بالأدب والتصنيف الأدبى ـ العناية بالهـــومريات ـ الكشف والارتياد ـ كراهية اليهـــود والتحبب الى المصريين ـ أرسطونيم ـ التقرب من الديانة المصرية ـ أرستارخاس اللغوى ـ هباركس الفلكى ـ بوليبيوس المؤرخ ٠

كان بطليموس الرابع على خلاف من سبقه من ملوك البطالمة ، ميالا الى اللهو والمجانة ، كثير الانفاق ، غير محبـــوب من رعيته ، يحب الملق ويصغى الى الأقاويل ـ ولكنه كان فى الوقت نفسه حريصا على سمعة الدولة التى أنشأها جده « سوتر » ، حارب من أجلهـــا « أنطيوخوس » الثالث عام ٢١٦ ق٠م ، وهزمه فى « رافيا » ودفـــع خطره عن مصر ٠

عنى عناية سلفه بأمر المتحف والمكتبة ٠ ويذكر «كلبل» Clippel أنه هيأ لهما حياة طيبة ، باستدعائه نخبة من كبار علماء اليونان الى مصر ، وكان هو كبير الشغف بدراسة « هومر » ، دعاه حبه للشاعر اليونانى الخالد أن يقيم له معبدا بالاسكندرية تخليدا لذكراه ٠ كان بطليموس الرابع أديبا ، وضع رواية أسماها « أدونيس » Adonis حاكى فيها الشاعر اليونانى « يوربيديز » ، علق عليها ومدحها وزيره المتأدب « أجاثوكليس » Agathocles

وفى هذا العصر مالت الاسكندرية ميلا ظاهرا الى دراسة آثار الاغريق الأدبية والتعليق عليها وتنقيتها وتخليصها من الشوائب ـ واليه يرجع الفضل فى تيسير الهومريات وتقريبها من أذواق العامة ،

وتعوزنا أسماء تلك النخبة من رجال الأدب الذين اضطلعوا بهذا العمل القيم ، وليست دراسة « هومر » وتيسير أشعاره بالأمر الهين ، ولا شك فى أن ذلك كان مجهودا ضخما ، يعترف به متذوقو اليونانية الكلاسيكية ، وعن هذه التيسيرات والتعليقات أخذت أوربا فى العصور الوسطى وأذاعت بين أديرتها · ومنذ نشأت الجامعات الأولى راستقرت برامج التعليم فيها ، كان « هومر » والأشعار الهومرية وغيرهما ، موضوعات هامة للدراسة فيها · يقول « سوزميل » : « ولولا جهود الاسكندريين فى هذا السبيل ، لاستحال على العالم الالمام بأشعار « هومر » سائغة مذللة الصعاب ، يتوارثها الدارسون جيلا بعد جيل » ·

* * *

عنى هذا العصر فيما عنى بالكشف والارتياد ، فقد فطن بطليموس الرابع ، كما فطن بطليموس الثانى من قبل ، الى فضل الكشف فى توسيع مدارك الاسكندريين عن العالم الخارجى والاضافة الى علم الجغرافية الملاحية والحصول على نماذج جديدة من النبات والحيوان ـ ولهذا أوفد « بطليموس » الرائد « ليخاس » Lichas فى رحلة ثانية الى « أثيوبيا » توجت بالنجاح ، وأحضر الرائد معه كل ما استطاع حمله من أنواع النبات والحيوان ، وأحضر فيما أحضر عددا من الفيلة الأثيوبية ·

* * *

ويمتاز هذا العصر بكراهيته الشديدة لليهود وكل ما هو يهودى ، وبميل واضح الى التقرب من المصريين والتحبب الى ديانتهم · ومن أدلة ذلك انشاء بطليموس معبدين بالاسكندرية أحدهما للآلهة « ايزيس » والآخر للمعبود « أبيس » ، ـ غير ما أقام من المعابد فى الوجه القبلى

* * *

ومن أشهر شخصيات الاسكندرية فى هذا الزمن الشاعر الهازل « أرسطونيم » Aristonyme ، وقد كانت حياته مضطربة بين

الاقامة فى الاسكندرية والارتحال الى ملوك « برجام » Pergamus فى آسيا الصغرى ، وكانوا ينافسون ملوك مصر ، وقد وكل اليه فى وقت ما أمر الاشراف على المكتبة العامة . ولكنه لجأ آخر أمره الى آسيا الصغرى وعاش فى كنف ملوك « برجاموس » حتى مات .

* * *

وممن أنجبتهم هذه الفترة العـــالم الفلكى « هباركس » Hipparchus (١٦١/١٢٧ ق.م) أشهر فلكيى العالم القـديم اطلاقا ـ أصـلح من أخطاء « أراتوسثنيز » . وقرر أول نظـرية صـحيحة لدوران الأرض حول الشمس ، خطئت أول الأمر ، ولكن الأيام أثبتت صـحتها . وهو لذلك يعتبر المبتـدع لنظرية النظام الشمسى Solar System اعترف بفضل أبحاثه العلامة « كوبرنيق » البولندى .

ومن علماء هذا العصر غير هذين ، الفيلسـوف « سفيروس » Sepherus الذى جادل الملك المتـأدب كثيرا ، والذى كتب فى الثروة والمجد والمقسوم وغيرها من الموضوعات الفلسـفية ، قضى آخر أيامه بعيدا عن مصر كما فعـل « أرسطونيم » ، حيث لجأ الى « اسبرطه » وأقام بها ونبغ ومات .

* * *

ومن العلماء المعدودين « أرستاركاس » Aristarchus اللغوى الذى كان على رأس المكتبة الكبرى (٢١٧/١٤٥ ق.م) . عاونه فى أمور المكتبة نفر من العلمـاء هم « دنيس » لوثريس Denys و « فلومين » Philomine و « ديـديم » Didime . وكان أرستاركاس الى جانب اضطلاعه بأمر المكتبة محاضرا فى علوم اللغة والأدب بالجامعة ، وأستاذا للملك وأولاده . عاش حتى أدرك عصر بطليموس السادس، ونشر كثيرا من مؤلفات «بندار» Pindar

و « سفوكليس » و « اسكليوس » ، وعلق على الأشعار الهومرية ، وله ترتيب خاص للالياذة والاوديسى ، ومات فى حكم بطليموس السابع فى قبرس ٠

* * *

ومن أبرز الشخصيات المؤرخ (بوليبيوس) Polybius (٢٠١/١٢٠ ق٠م) وهو ليس اسكندريا ، ولكنه اختلف الى المدينة كثيرا ٠ وله تاريخ عن « مصر » يتصف بالغموض ، أهم ما فيه وأوضحه ، ذلك الفصل الذى عقده لتتويج بطليموس الخامس ، ففيه نرى وصفا دقيقا رائعا لمدينة الاسكندرية ٠

الفصل التاسع

من بطليموس السابع « أورجيتس الثانى » الى كليوباترة

(١١٧ ق٠م ـ ٤٨ ق٠م)

أورجيتس الثانى ـ نهضة علمية عامة فى المستعمرات الهلينية ـ كراهيته لبعض رجال العلم وتشتيته لهم ـ أثر ذلك التشتيت ـ وضوح سياسية الانتقاض على الحضارة الهلينية ـ تدهور المتحف الاسكندرى بعده مباشرة ـ الملك يؤلف ويجمع بعض العلماء حوله ـ هو تلميذ لارستاركاس ـ التعليق على هومر ـ مجالس المناظرة ـ شغف أورجيتس بجمع الكتب ومنافسته لملوك برجاموس ـ جموذ الحالة العلمية فى زمن بطليموس الثالث عشر ووقوف دولاب العمل فى المتحف ـ آخر عهد الاسكندرية بقوة الانتاج ـ عصر كليوباترة ـ الميل الى الفلسفة ـ أثر اليهود ٠

يقول « أثنوز » Athenaeus نقلا عن مؤرخ اسكندرى يدعى « منكليز » Menekles انه كانت هناك نهضة علمية فى جميع انحاء المستعمرات الأغريقية على طول عصر بطليموس السابع ، وذلك بالقياس الى ماكانت عليه الحال فى بلاد اليونان ٠ وعلى الرغم من ذلك كانت فى نفس الرجل موجدة لا يعرف سببها على رجال العلم عامة ٠ ولعل الخلافات العائلية بين البطالمة هى التى أحفظت نفس بطليموس السابع على علماء عصر بطليموس السادس ، فنفى منهم

الكثير الى الجهات النائية · وهناك أخذ الفلاسفة ورجال اللغـــة والهندسة والموسيقى والفن يعلمون مأجورين على تعليمهم ، بسـبب ما اعتراهم من جراء هذا التشتيت من الفاقة وضيق ذات اليـــد ـ ويذكر « أثنوز » ان الاسكندرية كانت فى هذا العهد كعبة العـــلم ما تزال يؤمها القصاد من بلاد اليونان ذاتها ، ويقارن « شـــارب » Sharpe أثر هذا الحادث الذى دفع بهؤلاء العلماء الاسكندريين الى خارج المدينة ، بالأثر الذى نتج عن فتـح القسطنطينية عـلى يد « محمد الفاتح » ١٤٥٣ م ـ ذلك الفتح الذى كان من أثره نشر العلم فى أنحاء القارة الأوربية ، بسبب هجرة العلماء من القسطنطينية ·

ويلاحظ الباحث فى تاريخ هذا العصر ، أن ســـياسة جديدة أخذت تفصح عن وجودها ، ترمى الى تمصير » البلاد وازالة الصبغة الهلينية عنها ، وكان ذلك على حساب العنصرين اليونانى واليهودى معا ، بدأت بوادر هــذه الروح تدب منذ أيام « بطليموس الرابع » · ويعجب الانسان اذ يلحظ هذا ويحار فى تعليـــله ، ســـيما ولـــم تكن قد مضت مدة طويلة على بذر بذور الحضارة الهلينية فى البلاد ـ أما بطليموس السابع ، فقد خضع بمرور الزمن لتقاليد المصريين ، وانحاز الى حضارتهم ، واستسلم لسلطانها القاهر ·

والذى يهمنا من هذا نتيجته المحتـــومة ـ ألا وهى الغض من شأن الثقافة الهلينية ، وتعوزنا الأدلة على حيوية المتحف الاسكندرى أو « الجامعة » فى هذا العصر الذى ينسب اليه ظهور عدد من أقـــدر رجال العلم الاغريق ، هوى المتحف من بعدهم هويا شـــديدا ، حتى لكأنما كانت تلك صحوة الموت !

كان الملك نفسه فضلا عن حمايته للعلمـــاء ، مؤلفـا وناقدا ،

وظل أرستاركاس Aristarchus اظهر شخصيات الأدب فى هذا العصر ، وله تعليقات على الأشعار الهومرية . وكما وضع بطليموس « سوتر » مذكرات عن مغامراته فى الشرق ، وضع « بطليموس السابع » مذكرات شبيهة بها عن حملاته الحربية .

وعلى الرغم من أن بطليموس السابع استبعد عددا من صفوة رجال العلم أول عهده بالحكم ، فان عددا آخر منهم بقى فى الاسكندرية مواليا خدماته للمتحف ـ يذكر « ماتر » Matter انهم لم يكونوا على جانب كبير من الثقافة ، واليهم يرجع الفضل فى اكساب مجلس الملك روحا ادبيا على كل حال .

* * *

وهاك قطعة منسوبة الى بطليموس السابع « أورجيتس الثانى » (المحسن) ، فيها تعليق على بعض الهومريات التى شغف بها العاهل كل الشغف ـ عرف فيه رجال بلاطه من المتأدبين هذا الميل ، فكثر ما كانوا يتناقشون فى مجلسه الى ساعة متأخرة من الليل ، وهذه القطعة محفوظة ضمن مجموعة سوزميل Susemihl

Πτολεμαῖος ὁ δεύτερος Εὐεργέτης παρ' 'Ομήρῳ (ε 72) ἀξιοῖ γράφειν « ἀμφὶ δὲ λειμῶνες μαλακοὶ οἷον ἠδε σελίνη ». οἷα γάρ μετὰ σελίνου φύεσθαι· ἀλλὰ μὴ ἴα, (Athen. ii 61, C, and also) οὕτως δε και Πτ. φιλομαθεῖν δοκοῦντι περὶ γλώττην καὶ στιχιδίου καὶ ἱστορίας μαχόμενοι μέχρι μέσων νυκτῶν ἀπέτειναν. (Susemihl, i. 9.)

اشتغل بطليموس السابع بالأدب ونقد الآداب اليونانية ، وهو فى هذا يمثل شغف الاسرة عامة بالدراسات اليونانية القديمة ،

وحبها لرجال الأدب وحمايتها لهم ــ وليس من شــــك فى أن ذلك قد ساعد على نمو روح الحركة الأدبية فى المتحف السكندرى وفى بلاط بطليموس · وكان « أرستاركاس » شـــــيخ الأدباء النقاد فى هـــــذا العصر وهو من كبار المعلقين على اشعار هومر كما قدمنا ، ويعتبر استاذا لبطليموس فى هذا المضمار ·

وفى هذا النص المثبت فى مجمـــوعة « ســـــوزميل » ، نرى بطليموس يحمل الناس على تفسير كلمة « ايون » التى فى « هومر » بأنها نبات يكسو سطح الماء الراكد ، هو الى فصيلة النباتات الدنيـا أقرب (١) . أبعـــد ما يكون عن فصــــيلة الأزاهير ــ وبطليموس بتفسيره هذا يدحض آراء بعض النقاد الشارحين لهومر ·

وان دل هذا على شىء ، فهــو دال على أن البطالمة الذين كان «سوتر» أو لهم شغفا بالدراسة والبحثوالتصنيف، قد استفادوا كثيرا من اشتراكهم فى مجالس المناظرة ، كحماة للأدب ، أو كأشخاص فى الحوار ــ فأصبح من بينهم مع الزمن ، الباحث والناقد والأديب ·

سبق البطالمة فى تشجيعهم للأدب وترأسهم لمجالسة خلفـــــاء العباســــيين الذين كانوا يعقدون مجالس المناظرة ، ويصرفون فى شهودها أوقاتا طويلة ــ وكأنما التاريخ يعيد نفسه فى هذه المسألة ، شأنه فى غيرها من المسائل : ففى عصر المأمون العباسي حمى وطيس الجدل بين الأدباء والشعراء ، ولذ للخلفاء أن يشهدوا هذا الوطيس الحامى ، على نحو ما لذ لسابقيهم من عواهل البطالمة أن يشـــهدوه

---

(١) هـــو الطحلب ·

سواء بسواء ٠ ولعل هؤلاء وهؤلاء قصدوا بما فعلوا الى ازكاء روح الجدل والمنافسة ، واستثارة القرائح ــ أو لعلهم كانوا يشبعون به رغبة خاصة في نفوسهم ٠

ولقد اكتسبت الحركة الأدبية والفلسفية في العصرين من جراء هذا التناظر كثيرا من أسباب نموها وازدهارها ٠

* * *

وعلى الرغم مما ينسب الى بطليموس السابع من موقف غير محمود مع نفر من علماء عصره ، فانه يتمتع بسمعة أدبية عجيبة ، فالمعروف الذى يذكره الرواة أنه كان حريصا كل الحرص على تزويد مكتبة الجامعة بنفائس الكتب ٠ وكثيرا ما أرسل الرسل من التجار وغيرهم يبحثون له عن المخطوطات اليونانية ــ وقد يكون السبب الدافع له على ذلك حبه لاقتناء الكتب ، رغم ما انطوت عليه نفسه من كراهية لنفر من العلماء ، كما قد تكون رغبته في منافسة ملوك «برجام» بآسيا الصغرى هي الباعث ، وكانوا في ذلك الحين يجمعون مكتبة كبرى في عاصمة ملكهم ، وليس أدل على ذلك مما يروى من أن « بطليموس السابع » منع اصدار البردى المصرى الى «برجاموس» ــ فاتخذ البرجاميون «الرق» (١) Parchment بدلا منه في كتابة المخطوطات ــ وكان ذلك من خير العلم في مستقبل الزمن ، اذ بذلك كسب العلم مادة أبقى على الدهر من البردى ــ كان لها فضل الاحتفاظ به قرونا بعد قرون ٠

---

(١) الرق بفتح الراء وتشديدها : نوع من الجلد الرقيق حل محل البردى في كتابة المخطوطات ٠

وليس صحيحا ما يقال من أن بطليموس السابع أنشـــأ مكتبة السرابيوم ، وهى المكتبة التى احتفظت بعدد كبير من كتب القـدماء فى الوقت الذى احرقت فيه المكتبة الكبرى فى حى « البروكيوم » عام ٤٨ ق٠م٠

ومنذ عام ١١٧ ق٠م ، أى منـذ قضى بطليموس « أورجيتس الثانى ، وقعت البلاد فريسة للخلافات الأسرية بين أفراد البيت الحاكم٠ وفى هذه الحقبة من الزمن تدخلت « روما » فى شئون البطالمة وشئون مصر الداخلية ، بســـبب التجاء هؤلاء اليها يبتغون عنـدها حلولا لمشاكلهم الخاصة ٠ وفى هذا النزاع الذى طال أمده ، أفتقرت البلاد ، ولم تعد قادرة على تزويد « المتحف » ومكتبته بالكتب ٠ وشغل بطالمة العصر الأخير بالانقسام والتنافس على العرش عن أمور العلم ، وكان هذا آخر عهد الجامعة والمكتبة معا بالقوة والانتاج ٠

وجرت الأمور على هذا المنوال حتى عصر بطليموس الثـالث عشر ، وفى عهده جمدت الحركة العلمية فى الاســـكندرية ، وفقد الجمهور السكندرى صبغته اليونانية ، وغدا ــ وكان ذلك من حسن الحظ ــ مصرى النزعة ٠ وكاد دولاب العمـــل يتوقف نهائيـا « فى المتحف الاسكندرى » ٠

وعلى الرغم من كل هذه الاحداث الهامة ، ظهـــر فى عصر « كليوباترة » الذى يعتبر بمثابة الحد الفاصل بين عهدين ، نفـر من تلاميذ «ارستاركاس» أشهرهم «ديونيسيوس الثاريسى» Dionysius Le Thrace الذى درس أول أمره فى روما ، ثم رحـــــل الى الاسكندرية وعلم فى جامعتها ٠

وفى عهد كليوباترة نشطت حركة كشف جغرافى قادها « ايودوكس » Eudoxe الذى رحل الى الهند للتجارة والكشف ·
وممن نبه ذكرهم فى هذا العصر الطبيب «ديسكوريدس» Diascorides وله مؤلفات كثيرة فى الطب ، وهو غير ديسكوريدس النباتى المعروف صاحب كتاب خواص العقاقير الذى نقله العرب ·

ويصف « ماتر » Matter الاسكندرية فى هذا العصر الجديد ، بأنها كانت ملاذا لبعض فلاسفة اليونان انزوت فيه أشخاصهم وجهودهم ، لأن أعظم ما كان يشغل بال الأباطرة لم يكن علما ولا أدبا ولا فلسفة ، وانما كانت الادارة والنظام واستتباب الأمن شغلهم الشاغل · وليس بغريب ، والحال كذلك ، أن ينزح علماء الاسكندرية الى « روما » موطن الأباطرة وكبار الرومان · وهناك استطاع هؤلاء أن يجدوا شيئا من التقدير لأدبهم وفضلهم ، وكان ذلك من سوء حظ الاسكندرية · غير أن هذا التحول ، كان من شأنه اضطلاع نفر من فلاسفة اليهود فى الاسكندرية بأمور العلم والفلسفة ، ولا غرابة ، فقد احتفظ اليهود بكثير من كنوز العلم منذ فرق « أورجيتس الثانى » شمل علماء الاسكندرية ، ومنذ مالوا هم الى دراسة الفلسفة وخلطوها بتعاليمهم الدينية ، ومن زعماء هذه الحركة العلمية اليهودية « ارسطوبيول » Aristobule و « فيلو » Philo الاسكندرى ، وتحمل مصنفاتهم فى هذا العصر اسم « الهلينزم » Hellenism ·

شغلت الحروب بين مصر وسوريا « بطليموس الخامس » عن الالتفات الى الشئون الداخلية ، كما شغلت المنازعات العائلية ومسألة التنافس على وراثة العرش ملوك البطالمة عامة على طول القرنين

السابقين على الميلاد ـ وربما يرجع تأخر الجامعة وتدهور الحركة العلمية فيها الى هذين السببين دون غيرهما ·

وفى هذه الفترة بدأت الاسكندرية تفقد مكانتها العلمية والأدبية وتتخذ مظهرا جديدا من مظاهر الفكر الانسانى ، فقد اتجهت منذ الحلقات الأخيرة من القرن الثانى قبل الميلاد نحو دراسة الفلسفة ، واجتمعت فيها فى القرن الأول قبل ميلاد المسيح مذاهب متباينة منها مذهب الشك ، ومذهب الفيثاغورية الحديثة ، ومذهب خاص أخذته الاسكندرية عن فلسفة أفلاطون ·

* * *

ومنذ استلبت روما مكانة الاسكندرية العلمية بسبب سقوط مصر فى أيدى الرومان ، ضعف بها شأن اللغة الأغريقية بالتدريج ، وشاع استعمال اللغة المصرية « الديموتيقية » فى أعقاب ذلك · ولكن على الرغم من هذا التحول ، بقى اليهود فى مصر حفظة على العلم اليونانى واللغة اليونانية ، وعبروا بهما ميلاد المسيح ، وغدت خزائنهم كنوزا للعلم اليونانى الوثنى فى العصور التالية للميلاد ، وظهر منهم كثير من المتضلعين فى نواحى العلم فى أوقات مختلفة قبل الميلاد وبعده ، وكان لهم أدب دينى يتفق كل الاتفاق مع تعاليمهم الدينية والأخلاقية ، ويتمشى مع مأثورهم من « حكمة سليمان » ·

كرمهم لفضلهم العلمى ملوك البطالمة ، فيما عدا واحد منهم أو اثنين ، وعاشوا فى معزل عن جمهور الاسكندرية ، وسلموا من حركة الانتقاض على الثقافة الهلينية ، وكان ذلك من حظ « الاسكندرية » اذ

استطاع محبو العلم اليونانى أن يجدوا عند هؤلاء علما أعادوا به الى المدينة بعض مكانتها ، بعد انقضاء زمن على ذلك التحول السياسى الذى حرم الاسكندرية شهرتها العلمية الممتازة ، ورفع من شأن روما ٠

وكان أول استاذ اسكندرى علم الفلسفة ، بعد اذ انتقلت دراستها الى روما ، « فيلو » اليهودى الاسكندرى ، تتلمذ عليه طلاب كان على يديهم أحياء العلم الوثنى الذى ناضل المسيحية وناضلته ، فى القرون التى أعقبت الميلاد حتى عام ٣٩١ م ، وهو الوقت الذى اندك فيه صرح الوثنية نهائيا بتخريب « السرابيوم » ٠

الفصـل العاشر

الجامعة فى العصر الرومانى الأول

٤٨ ق٠م ـ ٢٧٣ م٠

حريق المتحـــف والمكتبة ـ مكتبة برجاموس ـ اصلاح التقويم الرومانى فى الاسكندرية ـ أخذ علـم المساحة عنها ـ نقل النظام المالى وتقاليد البلاط الى روما ـ تتبع مختصر للثروة العلمية اليونانية ـ الاسكندرية ما تزال مركز الدراسات اليونانية ـ انتعـاش روما من الوجهة العلمية على حساب الاسكندرية ـ علماء عصر كليوباترة ـ الأباطرة ومدى مؤازرتهـم للعـلم ـ الامبراطور كلوديوس والكلـوديوم ـ سوسـيجين واسترابو واجزنارفس ـ فسبازيان وهدريان وماركوس أورليوس واهتمامهم بالعلم ـ كراكلا ونكبة العـلم الاسكندرى ـ الاركاديوم والايفانجيلوم ٠

دب الخلاف بين أبناء بطليموس السابع (أورجيتس الثانى) وتآمر ابنـه الاسـكندر على أمـه فقتلها ، ومنـذ ذلك التـاريخ دب الانقسام الشـديد بين البطالمة ٠ وفى عهد بطليموس الحادى عشر تدخلت روما فى أمور البلاد حين لجأ هذا الى أشرافها ليعينوه على اسـترداد عرشه ٠

ومنذ ذلك الوقت ، وبسبب النزاع الذى قام بين كليوباترة (١) وأخيها بطليموس على العرش ، أتيح للرومان أن يتدخلوا فى أمور البلاد بشـكل عملى ٠

---

(١) كليوباترة السادسة ٠

ولما انتصر « قيصر » على خصمه « بومبى » فى موقعة « فارساليا » المعروفة ، هرب « بومبى » الى مصر ، وقدر له أن يقتل فيها . وحضر « قيصر » الى الاسكندرية عام ٤٨ ق.م. مخفيا أغراضه الحقيقية الاستعمارية ، ولكن المصريين رأوا فى مجيئه الى بلادهم بجيش وأسطول اعتداء على العزة القومية ، فثارت ثائرتهم لذلك ، وزاد الطين بلة أن كليوباترة التى كانت قد هربت الى سوريا ، عادت فتسللت الى الاسكندرية منتهزة فرصة وجود قيصر بها ، متخذة منه عونا لها على أخيها ومناصريه من الأوصياء عليه .

* * *

وانفجر بركان الثورة دفعة واحدة ، وجهز الأوصياء على الملك الصغير جيشا يفوق جيش قيصر عددا ، وتحرج مركز قيصر ، وانحصر بين الثوار فى المدينة والبحر ، حيث كانت قطع الأسطول الرومانى راسية فى الميناء الشرقى . وفى هذا المأزق الحرج اضطر قيصر أن يشعل النار فى السفن ، ليمتد منها لهيب يصيب «البروكيوم» والثوار المجتمعين فيه ، وامتدت ألسنة النيران فى هذا الحريق التاريخى الى مخازن الذخيرة البحرية ، ثم اتصلت توا بالأبنية الكبرى فى حى البروكيوم ـ فأصابت المتحف والمكتبة الملحقة به .

* * *

ومن عجيب الأمور ألا يشير الى هذا الحريق « ششرو » Cicero المؤرخ المعاصر لهذا الحادث الجلل ، وهو لا شك ممن كان يحزنهم أمر هذه الخسارة الأدبية . وسكت عنه أيضا مؤرخ آخر زار الاسكندرية بعد ذلك الحادث بخمس وعشرين عاما ، هو « سترابون » . والمقول أن سكوت « سترابو » ، كان بتحريض من الحاكم الرومانى الذى حرص ألا تقرن خسارة جسيمة كهذه باسم قيصر الرومان ، وأول ذكر صريح للحادث ورد على لسان الخطيب الرومانى « سنكا » . ولا بد أن يكون هذا الحريق قد أحدث أعظم الخسائر الأدبية ، بأعظم مكتبة عرفها العالم القديم على الاطلاق .

استولى قيصر بهذا الحريق على حى البروكيوم ـ وعمد الى الاستيلاء على الميناء الغربى ، ولكن جمهور الاسكندرية قام وعلى رأسه الأميرة « أرسنويه » شقيقة كليوباترة ، يعبر عن روح السخط بين الاسكندريين ، فأسرها « قيصر » على مشهد من أختها الملكة التى لم تحرك ساكنا ٠

ويذكر « بلوتارخ » أن « مارك أنطوان » أهدى كليوباترة مكتبة « برجاموس » العظيمة لتعوض بها الخسارة الفادحة التى حلت بالاسكندرية من جراء الحريق الكبير فى البروكيوم ٠

ولا شك أنه كان لهذه الحوادث المؤسفة أثرها السيىء على سير العلم فى الاسكندرية ٠ ومهما يكن من الأمر فقد أفادت روما كثيرا على حساب الاسكندرية ـ على نحو ما سوف نراه مفصلا فيما بعد ٠

* * *

ويذكرون أن قيصر استطاع بفضل علماء الاسكندرية وجامعتها أن يصلح التقويم الرومانى ، وأن يحقق طول السنة الشمسية التى حددت فى الاسكندرية بثلثمائة وخمس وستين يوما وربع اليوم ، وعرف التقويم منذ ذلك الحين بالتقويم « اليوليوسى » نسبة الى « يوليوس قيصر » ٠ كما يذكرون أيضا أن قيصر نقل عن الاسكندرية « علم المساحة » الذى استخدم منذ ذلك الحين فى أغراض خاصة بتنظيم الامبراطورية الرومانية ٠ وعن الاسكندرية استعار الرومان نظامهم المالى الذى عم استعماله أنحاء الامبراطورية ٠

وتقوم الشواهد على أن الرومان نقلوا بعض التقاليد الهلينية من بلاط الاسكندرية الى بلاط روما ، وغدا الاسكندر البطل الهلينى ، مؤسس الاسكندرية المثل الأعلى الذى احتذاه الرومان فى اقامة صرح امبراطوريتهم العظيمة ٠

وبهذا التحول السياسى الذى أخضع مصر لروما ، بدأت

الاسكندرية عصرا جديدا من عصورها ، زالت فيـــه الصبغة الهلينية عنها زوالا يكاد يكون تاما ٠

ولا يذكر المؤرخون كثيرا عن حالة الاسكندرية العلمية فى هذا العصر ســـوى ما كان من أثر ذلك الحريق الذى قضى على المكتبة الكبرى ، وتلك الهدية القيمة التى قدمها (مارك أنطـوان) من كتب مكتبة (برجاموس) لتعوض الخسارة الفادحة التى حلت بالمدينة ٠

* * *

ويذكر المؤرخ (شارب) Sharpe هجرة نفر من العلماء اضطر الى ترك الاسكندرية بســـبب اضطهاد « أورجيتس الثانى » وانتجاع جزر بحر « ايجية » التى اتخذها الفلاســـفة الاسكندريون والعلماء مهربا من اضطهاده لهم ٠

ولا ندرى مدى لانتشار العلم الأســكندرى على أثر ذلك ، لأن التاريخ لم يحدثنا عنه بأكثر مما يقرره « شـــارب » من ذيوع العلم على أثر هذا الحادث ـ على نحو شبيه بذيوعه فى أثر فتح العثمانيين للقسطنطينية ٠

وقد مر بنا ذكر ما كان لليهود من فضـــل الاحتفاظ ببعض من الثروة العلمية عندما ســلموا من الحركة العدائية التى قامت تعارض كل أثر هلينى فى مصر ٠ وبقى هؤلاء أمناء على العلم الى ما بعــد الميلاد ، حتى استطاع المشــغوفون به أن يستردوا منهم الأمانة التى حملوها ، وأن يفيدوا العالم بها ـ وهكذا ظلت مكتبات اليهود الخاصة تحتوى كثيرا من كنوز العلم الاسكندرى ردحا من الزمن ٠

يقـــال أودعت كتب « برجاموس » ، وهى ذخيـرة علميـــــة يونانية عظيمة القيمة فى مكتبة « السرابيوم » ، فأضافت كتبها الى هذه المكتبة الفرعية التى كان قد أقامها « فيلادلف » اضافة ذات بال ٠ وبقيت هذه المكتبـــة مرجع العلم الوثنى حتى أواخر القـــرن الرابع الميـــلادى ٠

على أن جامعة الاســـكندرية لم تعدم من الأباطرة من ناصر الحركة العلمية بها · والمعـــروف أن الامبراطور « أوغسنـــطس » (٣٠ ق·م/٤١ م) كان محبا لليونانية ، لغة وثقافة ـ اختـار لحكم مصر واليامشغوفا بالعلم محبا للأدب ، هو « كورنيليوس جالوس » ، وفى ولايته نالت الجامعة قسطا لا بأس به من العناية ، غير أنه تعوزنا الأدلة المادية على غناء الانتاج فى هذه الفترة ·

وكان الامبراطور « كلوديوس » (٤١/٥٤ م) محبـا للعلم والتاريخ بصفة خاصة · وكان له شغف بالغ بدراسة اللغة اليونانية، وضع مؤلفا فى تاريخ القرطاجنيين والأتروريين باليونانية ـ والمعروف أنه وسع الجامعة ، وأسس معهدا جديدا أطلق عليه اسم «الكلوديوم» لعله كان معهدا يونانيا رومانيا يعنى بالتشريع الرومانى والدراسات اليونانية فى آن معا ، كان موقعه بالقرب من عمود دقلديانوس ·

* * *

وممن عرفوا بأبحاثهم الفلكية فى هذا العصر «سوسيجين» . Sosigène

ومن المؤرخين الثقاة الذين أنجبهم هـذا العصر « سترابون » Strabon الاغريقى الذى جال فى كثير من أنحاء الامبراطورية الرومانية ، وحضر الى مصر وزار دلتاها وصعيدها ، وصحب واليها فى جولاته فى ربوعها مكرما ، كتب فى الجغـــرافيا كمـا كتب فى التاريخ · وعليـه اعتمد « بلوتارخ » « وجوزيفس » اليهـــودى ، « ويوزيب » من بعدهما · ومن أسـف أن كثيرا مما كتب فى التاريخ قد هلك ، ولـم يصـــلنا منه شىء · وكل اعتمـــاد المؤرخين على « سترابون » انما هو اعتماد فى الحقيقة على جغـــرافيته ، لا على تاريخـــه ·

* * *

وحاضر فى الاسكندرية « اجزناركس » Xenarchus

من اشياع أرسطو ، درس فلفسته للاسكندريين فى هذا العصر ـ وعليه تتلمذ « أرسطون » Ariston الجغرافى الفيلسوف الذى برع فى فلسفة « أرسطو » ٠

* * *

وفى عصر « فسيازيان » (٦٨/٧٨ م) ، وكان محبا للعلم والمعلمين ، تجلت عناية الامبراطور بجمع الكتب لمكتبة العاصمة الرومانية ، ويذكرون أنه أرسل الى الاسكندرية من ينسخ الكثير من كتبها لتزويد مكتبة « روما » بنفائس العلم اليونانى ، وفى هذا ما فيه من الاشادة بقيمة كتب مكتبة الاسكندرية فى هذا العصر الذى لايبعد كثيرا عن عهد احراق المكتبة الكبرى ٠ ومما لا شك فيه أنه قد أصبحت للاسكندرية المكانة الثانية بعد «روما» فى كل شىء من سياسة أو علم ، ولم تعد مصدر النشاط الفكرى فى العالم القديم ، وان ظلت وكرا من أوكاره على كل حال ٠

وعنى كل من الأباطرة الرومان الذين حكموا من القرن الأول حتى منتصف القرن الثانى بأمر العلم . على نحو ما عنى به «فسيازيان» ٠ والمعروف عن الامبراطور « هادريان » (١١٧/١٣٨ م) أنه كان من محبى العلم ، المؤلفين باللغة اليونانية واللغة اللاتينية ، وأنه أسس المكتبات فى روما وأثينا ، واستمع الى علماء الجامعة فى الاسكندرية عند زيارته لها ، وقد حرص على أن يكون العدد الأكبر من أعضاء هيئة التدريس فى الجامعة من أعوانه ، بغض النظر عن مقدرتهم العلمية ٠

ولم يقل التفات الامبراطور المستنير « ماركوس أوريليوس » Marcus Aurelius (١٦١/١٧١ م) الى الجامعة وعلومها ، عما كان من سلفه ـ فقد كان هو فيلسوفا وناقدا من نقاد الأدب ، وحاميا للعلم وأهله ٠

على أن الاسكندرية وجامعتها قد لقيتا هوانا شديدا على يد الامبراطور الموتور كراكلا (٢١١/٢١٧) ، فقد كانت فى نفسه

موجدة بالغة على الاسكندريين عامتهم وخاصتهم . وفى عهده فقدت الاسكندرية حريتها ، وأحصيت حركات الناس وسكناتهم ، وأغفلت معاهد العلم ، ولا سيما القاعة العامة « قاعة السستيا » (١) ، وشرد رجال العلم ونكل بهم ، ولا سيما أتباع أرسطو من المشائين . ويرى الدكتور « بوتى » Botti أن الجامعة التى كان قد أنشأها البطالمة فى حى البروكيوم (فى المتحف الاسكندرى) ، قضى عليها فى هذا العهد القضاء الأخير ، وحلت محلها فى الاضطلاع بمهمة التعليم مؤسسة « كلوديوس » (الكلوديوم) سالفة الذكر ، ثم مؤسسة « أركاديوس » (٣٩٥/٤٠٨ م) الذى أطلق عليها اسم « الأركاديوم » ثم مؤسسة « جستنيان » (٥٢٦/٥٦٥ م) التى عرفت باسم « الايفانجيلوم » .

---

(١) وكانت البقية الباقية من مبانى المتحف الاسكندرى بعد حريق ٤٨ ق.م .

الفصـل الحادى عشر

الجامعة فى العصر الرومانى

بولكس الخطيب ـ هيلودور الشاعر ـ صفة الشعر فى العصر الرومانى ـ دنيس الاسكندرى ـ كلود جالين الطبيب ـ الدراسات الطبيعية ـ «منيلاس» و «سيرنون» الهندسيان ـ بابس يقرب ارشميدس واقليدس من أفهام الناس ـ ديوفانتس العالم بالهندسة والجبر ـ كلوديوس بطليموس الجغرافى ـ أبين المؤرخ ـ أدبـاء لغـويون ومعلقون ـ « ثيون » أستاذ الآداب اليونانية بالجامعـة والعالم فى الجبر ـ ابنته الفيلسوفة هباشيا ـ أبولونيوس ديوسكوليس الأجرومى ـ مذهب الأفلاطونية الحديثة ـ سكاس وأفلوطين ـ بروفيرى (فورفيروس) ـ سـنت أثناس من آباء الكنيسة يعارض الوثنية الهلينية ٠

ربما كانت الحياة العقلية فى هذا العصر قوية فى الاسكندرية ، العاصمة الفكرية ذات المكانة الثانية فى العصر الرومانى بعد روما ٠ ومما يؤسف له أن الأدلة على قوة هذا العصر أو ضـعفه تعوزنا ، والذى لدينا منها ليس الا نتفا لا تقوم دليلا متماسكا على قوة العصر أو ضـعفه ٠

حقا لقد وجدت الجامعة عناية من بعض القياصرة مثلما وجدت من عواهل البطالمة ، سيما وقد أصبح القياصرة حمـاة للعلم بحكم ما آل اليهم من تراث ٠ ولما كانت الاسكندرية تحكم من روما ، وكان القياصرة يقيمون هناك ، فقد وكل أمر حماية العلم الى حكام الأقاليم، وهؤلاء عرفوا بشىء غير قليل من القساوة وغلظة الطبع ، أقصوا عنهم رجال العلم اقصاء ـ ورغم هذا فقد كان بالمدينة ذلك العنصر المتأدب ،

الذى تابع الحركة العلمية وقصد الى الانتاج الحر ــ واتسمت الحركة العلمية بمنافسة غير بريئة ألحقت بالعلم صغارا وضعفا شديدين ٠ وكان أعضاء المتحف فى هذا العصر يقيمون فيه ، ويتمتعون بمزايا مادية ، ويتملقون القياصرة بالمديح يتردد فى أشعارهم وخطبهم .

وتدل الوثائق المحفوظة من القرن الثانى للميلاد على أن جمهرة من عليه القوم ورجال الدين والضباط الرومانيين كانوا جميعا أعضاء شرف فى المدرسة الفلسفية بالجامعة ٠ وكان عميد الجامعة فى هذا العصر موظفا حكوميا ذا كفاية خاصة فى الادارة ، ولم يكن يشترط فيه أن يكون ذا كفاية علمية فائقة ٠

وكان الامبراطور « هدريان » يختلف الى المتحف ، ويشترك فى المناقشات العلمية والأدبية كأحد الطلاب ، وكان اعتماد هذا العصر على مكتبات السرابيوم والقيصريون والمكتبات الخاصة ، فلما إنتلفت كتب المعابد من انقضاض المسيحيين عليها ، لم يبق ما يعتمد عليه سوى المكتبات الخاصة التى كانت لنفر من محبى العلم ــ وقد وصلتنا أوراق بردية تحمل آثارا أدبية من هذا العصر والعصر السابق عليه ٠

وبقيت الاسكندرية كعبة طلاب العلم من كل فج كما كانت من قبل رغم انصراف الأنظار عنها الى روما ، وذلك بالنسبة للمكانة الرفيعة التى كسبتها لنفسها ولم تستطع الأيام أن تنتزعها ٠

هذا ــ وقد كان لمدينة « نقراطس » الاغريقية فى غرب الدلتا فضل ابراز بعض رجال الأدب أمثال « بولكس » Pollux الخطيب الذى أنشأ له الامبراطور « هدريان » كرسيا لتدريس فن الخطابة فى الجامعة ، وهو أيضا ممن اشتهروا بمعرفة تامة لقواعد اللغة اليونانية ٠

* * *

نعمت البلاد بكثير من الحرية في العصر الاغريقي ، وكانت

لتلك الحرية مزاياها التى عادت على الحـركة العلمية فاكسبتها طبيعتها الحرة ، وباستلاء الرومان على مصر ، أخذت روح الانتاج تضعف تدريجـا ، لانعدام الحرية السياسية ، وشعور الاسكندريين بمهانة ليس من شأنها أن تساعد على الانتاج · وشابهت الاسكندرية في هذا العصر « أثينا » ابان خضوعها لروما ــ اذ شغلت بمصيرها السياسى ، أكثر مما شغلت بأمر العلوم والآداب ·

وأشـهر انتاج متوارث عن النصـف الأول من القرن الأول الميلادى ، بعض كتابات أدبية عن علاقة حب نشـأت بين « نينوس » Ninus و « سميراميس » مدونة على قطعة من البردى ، وبعض أشـعار تعرف « بالأثيوبيات » (Ethiopiques) لهليـودور (١) كتبها فى صعيد مصر ·

ومهما قيل فى الانتاج الشعرى البطليموسى ، فقد كان على كل حال محتفظا بأهم مزايا الشـعر ، من طلاوة فى العبارة ، الى جدة فى الموضوع ، الى غير ذلك من مزايا الشعر الصحيح · أما فى هذا العصر فقد تأخر الشعر تأخرا ظاهرا ، وانعدم فيه التجديد ، وهـو وأن جرى فى موضوعه على سنن الماضين ، الا أنه حاكاهم محاكاة شكلية ، لم تنتج فى النهاية أدبا حقا ·

ومما يعرف عن هذا العصر أن كتابه كانوا من غير الاسكندريين · كتـب منهـم فى عصـر هدريان « دنيس » (Denys) الذى نظم بعض الحقائق الجغرافية فى قالب شـعرى ، والذى وصف نقلا عن خريطة بطليموس ، أرض ليبيا ، ومعظم أجزاء أوربا وآسـيا · وبقيت هذه المنظـومة حتى نقلهـا الى النثر اللاتينى « أفينوس » (Avienus) « وبرسين » Priscien ·

تقدمت فى زمن البطالمة دراسة الطب ، وعرف التشريح ، وجاء

---

(١) Heliodore D'Emèse

هذا العصر نتابع دراسة الطب والتشريح ، وفيه شرح « كلود جالين ، Claude Galien المولود فى « برجاموس » ، والمتوفى سنة ٢٠٠م فى روما ، بعضـــا من الحيوانات والخنازير والقردة والأســـماك والأفاعى . ووصـــل الى نتائج قيمة زادت من مكانة الأســـكندرية فى هذه الناحية .

* * *

وقد انتهت الى العصر الحديث رسالتان فـى الطب من هـــذا العصر ، واحدة مأثورة عن الطبيب « بالكى » ، والأخرى تحتـــوى على مبادىء واضحة لعلم « الجراحة » لمؤلف مجهول الاسم . وعرفت الاسكندرية فى هذا العصر بوجود بعض الاخصائيين فى معالجـــة الأورام وتجبير الكسور .

وازدهرت فى العصر الرومانى بوجه عام الدراسات الطبيعية والرياضـــية . ولولا احتقار الرومان (وهم شـــعب عملى) للعلوم البحتة ، اللهم الا ما له مساس باقامة صرح الامبراطورية ـ لحصلنا من مدرسة الاسكندرية الطبية على نتائج أكثر قيمة مما انتهى الينا .

وأنجبت الاسكندرية فى أواخر القرن الأول الميلادى « منيلاس » Menelas وهو هندسى صرف جهدا كبيرا فى دراسة « الدائرة »، و « سيرنوز » Sérénos المهندس الذى خطط مدينة « ارسنويه » (السويس) ، متخذا من الهندسة التى حذقها أساسا عمليا لأنشاء المدينة ـ « وبابس » Pappus أظهر شخصـــية علمية فى أواخر القرن الثالث الميلادى ، وينسب اليه عمل من أجل الأعمال العلمية ، هو تنظيم المسائل الهندسية الموروثة عن سالفية من المشتغلين بهـــذا العلم تنظيما دقيقا ، والتعليق عليها وشرحها . وهو يعتبر بحق أول من قرب « أقليدس » و « أبولونيوس »،و « أرشميدس » الى أفهـــام الناس . وكان بدوره مبتدعا ومكتشـــفا لعـــدة فروض علمية ، بقى بعضها قائما يمهد السبيل لفلسفة « ديكارت » .

ومن أعلام القرن الثالث . « ديوفانتس » Diophantes العالم بالهندسة والجبر ، ويدين له العلم ، ولا سيما علم الجبر بأعظم الفضل ، و « كلوديوس بطليموس » الذى استوعب علم سابقيه ومعاصريه فى الجغرافيا والفلك وأضاف اليهما جهودا شخصية فى موضوعها ، وهو استاذ من أساتذة العرب ، نقلوا عنه تحت اسم « المجسطى » رسالة فى « الفلك » وهى رسالة جمعت كل أبحاثه التى أجراها فى مرصد (كانوب) والتى أخذها عن « هباركس » — وله جداول فى حساب الخسوف فى رسالة «التترابيلوس» Tetrabilos — ولم تقف معارفه عند حد الجغرافيا والفلك ، بل تناولت فن الموسيقى ، فوضع فيها رسالة فى (الهارمونى) تعتبر احياء واضافة لنظرية « ارستوكسين » Aristoxine ، وله رسالة مترجمة الى اللاتينية عن اسقاط الكرة : (عمل مسقط لها)

Sur le déploiment de la surface de la sphère

وأعظم آثاره على الاطلاق كتاب « الجغرافيا » وفى هذا السفر دون بطليموس كثيرا من آثار السابقين ولا سيما آراء « مارينوس الصورى » Marin de Tyr الذى جمع معلوماته من الملاحين ومن تقارير البعثات التجارية والحملات الحربية .

وظل كتاب « اجاثوديمون » Agathodaemon الذى تنسب اليه معظم المخطوطات الجغرافية خرائطها ، الى جانب مصنفات بطليموس فى الجغرافيا عمدة المشتغلين بهذا العلم فى العصور الوسطى .

ويعتبر بطليموس من أوائل واضعى الموسوعات ، وقد كان شغوفا الى جانب الجغرافيا والفلك بدراسة التاريخ — وله فيه جداول زمنية عن تواريخ الملوك Canon des Rois وهى سجل لتواريخ ملوك اشور وبابل وميديا وفارس وأباطرة الرومان حتى عصر « انتونينس بيوس » Antoninus Pius ، غير أن ما كتبه فى التاريخ لا يتسامى الى ما وضع فى علمى الجغرافية والفلك .

ومن اشهر المؤرخين فى هذا العصر « أبين » Appien الذى كان أول أمره محاميا ، وانتقل الى روما حيث أصبح حاكما لاحدى مقاطعات الامبراطورية ، ومات فى حـــكم « ماركوس أورليوس » ، كتب تاريخا حافلا ، لم يصلنا الا فى نصــف حجمه ، ولم تتجاوز حوادثه عصر «هدريان» ــ وهو تاريخيتناولنشوءالقوميات،كما يتناول الشخصيات البارزة · « وابين » لا يتصل كثيرا بالعلم الاسكندرى ، وضع تاريخه هذا باللاتينية والاغريقية ــ ولعله كتب هذا التاريخ فى مرحلة التحول ، أى فى الوقت الذى تحول فيه العلم من الاسكندرية الى روما ، ومن صبغته اليونانية الى صبغة لاتينية رومانية ، وهــو مؤرخ من الطبقة الأولى ·

* * *

وانتج البحث الاسكندرى فى هذا العصر افذاذا من اللغويين والبيداجوجيين ونقاد الآداب والاطبــاء والمهندســين والرياضيين والفلاســفة ·

ونفخت الاســـكندرية من روحها المنتجة فى البلاد التى أخذت عنها وأهمها « روما » ــ فهـــذا « فيلوكسين » « وبامفيل » معاصره اللذان جمعا التعبيرات النادرة فى اللغــة والأدب الكلاســـيكى ، و « أرستونيكوس » Aristonicos الذى علق على « هومر » وشرح وأكمل ونقد الحواشى التى وضعها « ارستاركاس » من قبل ·

وفى نفس العصر قام « ثيون » Theon بوضــع مفردات الرواية الجادة والرواية الهازلة ، وقد أسماه المؤرخ «تيبير» Tibère « ناقوس العالم » يريد بهذه التسمية الاشارة الى نباهة ذكره ·

وكان لثيون كرسى فى الجامعة لتدريس الآداب اليونانية ، وهو من العلماء المكدودين فى الدراسة والبحث · ولم ينصفه المؤرخ «أبين» Appien حين وصفه بالطبل الأجوف الذى وضع فى التاريخ شيئا

مشكوكا فى قيمته ــ وله شرح لمفردات هومر Glossaire homérique وقد أنحى على يهود مصر فى كتاباته ، ولذلك انبرى له « جوزيفس » المؤرخ اليهودى بالرد فى فصل من فصول تاريخه ٠

و « لثيون » مجهودات تذكر فى علم الجبر ، سوف يأتى ذكرها فى موضع آخر ، ساعدته فيها ابنته « هيبيشيا » الفيلسوفة الوثنية التى اضطهدها مسيحيو الاسكندرية ، وقتلوها ٠

ومن أعـــلام هـــذا العصر « أبولونيـوس ديوسـكوليس » Apollonios Dyscoles الذى علم « الأجرومية » بطريقة النقد التى شاعت فى القرن الثالث الميلادى ، وله عدة مقالات فى أنواع الكلمة Parts of Speech وفى مصطلحات اللغة Syntax ما تزال باقيـة للآن ٠

* * *

وفى هذا العصر نضج مذهب الاسكندرية فى الفلسفة ، وهو فى مجموعه فلســـفة أخلاق وتصـــوف ترمى الى اعداد النفس الى حالة تجرد وتفكر فى ذات الله ، مسـتعيرا بذوره الأولى من تعاليم اليهود الدينية ومن فلسفة أفلاطون ٠

وزعيم هذه المدرسة الفكرية اللاهوتية « فيلو » ٠

ولد فيلو اليهودى ســـنة ٢٠ ق٠م ، وتغذى من لبانات الأدب الأغريقى ، ودرس الفلسفة الأفلاطونية ، وغاص غوصا شـديدا فى دراسة « العهد القديم » ، فاجتمعت له من كل ذلك فلسفة مستمدة من الكتاب المقدس ومن تعاليم « أفلاطون » ، وامتزج الجانبان فى عقله امتزاجا قويا ، وكونا نظاما فلسفيا يهوديا يونانيا ٠

وكان « فيلو » يمتاز بعلم غزير وأخلاق فاضلة وحياة كلهـــا طهر وتقديس هيأت له مكانة سامية بين علماء عصره ٠ شـــغل أول أمره بتدريس تعاليمه شفويا فى الأوساط الخاصة والعامة، ثم دونها

رغبة منه فى اثباتها واذاعتها • وبقى من عمله الضخم بعض النسخ الخطيـــة كاملة ، وبعض الآثار المتفــرقة ، وترجمت مخلفــاته الى اللاتينية • وعلق فيلو على أسفار يهودية يجمعها اسم « البنتاتيك » Pentateuque (أسفار موسى) ، منها سفر خاص بالخليقة منــذ وجودها الى تأسيس ملك بنى اسرائيل ، وسفر آخر خاص بخـــروج بنى اسرائيل من مصر ، وثالث عن الأعداد ، هو اســـتعراض لقوى العالم المادية المختلفة ــ وهى بالاجمال مجموعة أقوال دينية وفلسفية وتاريخية مأثورة • وكتب « فيلو » رسائل عن حياة البطارقة ، وحياة موسى عليه الســـلام ، ورسائل أخرى عرض فيها لبعض الفلسفات الرفيعة والأخلاق الفاضلة ، بلهجة وميل مسيحى ظاهرين • وقرأ آباء الكنيسة تعاليم « فيلو » فاعجبوا بها وشاعت بينهم ، ومن ثم تأثرت المسيحية « على الأرجح » بفلسفة افلاطون قبل أن تظهر فى الوجود فلسفة الأفلاطونية الجديدة ــ وبقول آخر ، قبل أن يتناول « أفلوطين » فلسفة « فيلو » ذلك التناول الذى جعل منها نظاما فلسفيا تصوفيا •

وأســلوب « فيلو » أول ضرب من ضروب الكتابة التعبدية ، نقلته المسيحية فيما نقلت • وتعرض فيلو لحقوق الأفراد ، فكتب فيهــا وفى المساواة الاقتصادية ، كما تناول فكرة الاحسان •

ولما انتشرت المسيحية فى مصر فى غضون القرن الثالث الميلادى انتشارها الواسع ، نشأت فى الاسكندرية حركة معارضة للمسيحية ، تزعمها « أمونيوس سكاس » المؤسس الحقيقى للمدرســة الفلسفية المعروفة بالأفلاطونية الحديثة ــ وتلميذه « أفلوطين » •

تتلمذ «افلوطين» أحد عشر عاما على «سكاس» (٢٣٢/٢٤٣م) وهو مصرى النشأة والتربية والنزعة ، وفلسفته مصرية صميمة •

* * *

ونافست الأفلاطونية الحديثة الديانة المسيحية منافسة حادة ،

وكان من اثر هذه المنافسة تلك الثورات المتوالية التى شهدتها الاسكندرية ، معقل الديانة ومعقل الفلسفة فى وقت واحد ٠

وتشيع لهذه الفلسفة تلاميذ اشهرهم « بروفيروس الصورى » الذى كتب مؤلفا خاصا لمناوأة المسيحية ، وكتابه اكبر عمل عدائى ضد المسيحية ٠

وحوالى نهاية القرن الرابع للميلاد ، ضعفت الوثنية ، ولم تقو العقائد المصرية القديمة على الوقوف فى وجه المسيحية ، وأخذ بعض آباء الكنيسة يتحدون الوثنية الهلينية ، ومن أشهر هؤلاء « سنت اثناس » الذى كتب عام ٣١٨ م كتابه ضد الوثنية الهلينية
Discour contre les Hellènes

ومن ذلك الحين أصبحت مصر معقلا مسيحيا منيعا ، وغدت لها فى ذلك الوقت مكانة ممتازة بين الأمم التى دانت بالمسيحية ٠

الفصل الثانى عشر

الجامعة فى السرابيوم

(من ٢٧٣ ـ ٣٩١ م)

معبد السرابيوم ـ المكتبة التى ألحقت به ـ العلم يؤول اليه مرة بعد حريق المتحف ٤٨ ق٠م ـ يؤول اليه مرة أخرى فى عهد أورليان ٢٧٣م ـ السرابيوم كجامعة ـ النزاع بين المسيحية والوثنية ـ أثره فى السرابيوم ـ العرب والسرابيوم ٠

فى المكان الذى لا يزال يشاهد فيه عمود « دقليديانوس » فى الاسكندرية ، كان يقوم معبد عظيم يعرف باسم معبد « السرابيوم » حيث كان يمجد المعبود « أبيس » فى العصر الاغريقى ٠ يذكر المؤرخون أنه كان يقوم على مرتفع من الصخر الطبيعى ـ وصفه الدكتور «بطلر» وصفا دقيقا مسهبا فى كتابه « فتح العرب لمصر » ٠

كان هذا المعبد يقع فى حى « راقوده » الحى الوطنى فى المدينة، وينسب الى بطليموس فيلادلف أنه أنشأ به مكتبة تذكر أحيانا باسم المكتبة الكبرى(١) وعرفت أيضا باسم المكتبة « الوليدة » تمييزا لها عن المكتبة الكبرى التى كانت ملحقة بالمتحف فى حى « البروكيوم » ، والتى قضى عليها حريق سنة ٤٨ ق٠م ٠

---

(١) وهى ليست المكتبة الكبرى التى أحرقت فى حصار قيصر للاسكندرية ـ فتلك كانت فى « البروكيوم » وهذه المكتبة التى يذكرها بطلر من الخير أن تسمى المكتبة الفرعية أو الصغرى ـ انظر فتح العرب لمصر ترجمة الأستاذ محمد فريد أبى حديد ص ٣٥٧ ٠

ويقال أنشأ فيلادلف هذه المكتبة رغبة منه فى تثقيف جمهـــور الاسكندرية فى حى راقوده الوطنى ، وهناك خلاف حول الغرض من انشائها ، أحقا كان لتثقيف العــــامة من الوطنيين أم كانت مكتبة « السرابيوم » هذه مكتبة خاصة ؟ ـ يميل « سوزميل » الى اعتبارها مكتبة عامة أنشئت لسكان ذلك الحى ، وينكر عليه « مافى » فى كتابه « امبراطورية البطالمة » ذلك الزعم ـ لاعتقاده أن البطالمة لم يقصدوا الى تثقيف الشعب الاسكندرى خارج حدود المتحف ٠

وسواء أريد بهذه المكتبة أن تكون عامة أو خاصة ، فمما لاشك فيه أنها أفادت العلم عند استقراره فى معبد « السرابيوم » ٠

وفى عهد « كليوباترة » أهدى « مارك أنطـــوان » مصر مكتبة ملوك « برجاموس » ويرجح أن تكون كتب هـــذه المكتبة قد أضـــيف بعضها الى مكتبة السرابيوم ، والبعض الآخر أودع فى خزائن معبد القيصريون ٠

ومما حققه الدكتور « بطلر » أنه فى أوائل العصر المســـيحى أنشـــئت مكتبة لتخلف مكتبة المتحف المحترقة ، أودعت كتبهـــا فى السرابيوم ، وهى التى عرفت باسم المكتبة الوليدة ، وعلى هذا يكون قد اجتمع للسرابيوم مكتبات ثلاثة ، الأولى مكتبــة « راقوده » التى أنشأها فيلادلف ، والثانية مكتبة « برجاموس » كلها أو بعضـــها ، والثالثة هذه المكتبة المتأخرة التى أريد بهـــا أن تعوض الخســـارة الفادحة التى حلت بالعلم من جراء حريق البروكيوم (١) ٠

وايداع هذه الكتب فى « السرابيوم » دون المتحف ، كبير الدلالة على أن أبنية المتحف لم تعد صالحـــة لأن تكون مكانا للدراسة أو

---

(١) هذه المسألة محل خلاف شديد بين المؤرخين ٠

الاطلاع ، وأن « السرابيوم » أخذ يحل محل المتحف فى الاضطلاع بهذه المهمة ، وأن العلم الاسكندرى أصبح يلتمس فى بعض جهاته ، فى المكان الذى أعد فيه لحفظ الكتب ، أو على مقربة منه ٠

* * *

ونحن لا نرى فى وصف « بطلر » للسرابيوم ما يفيد أن المعبد كان يحتوى على قاعات خاصة بالدراسة العامة ، أو أروقة لسكنى العلماء والطلاب ، اللهم الا بعض العبارات التاريخية التى يوردها بطلر عن « أفثونيوس » الذى زار السرابيسوم ، وعن « روفينوس » الذى شهد تخريب المعبد ، فأولهما يلحق المكتبة ، بالمعبد ، وثانيهما يرى أن حجرات الدروس كانت على الأرجح موجودة فى الأبنية الملحقة بالمعبد من الخارج ٠

ولم يرو كتاب النصف الأول من القرن الخامس الميلادى شيئا قاطعا صريحا فى أمر المكتبة ، وأكثرهم وضوحا هو « تيوفيلوس » الذى يذكر أن الأبنية المحيطة بالمعبد بقيت بعد التخريب قائمة بما كان فيها من قاعات الدروس وأروقة السكن ، أما المكتبة ، فلأنها كانت ملحقة بأبنية المعبد ذاته ، فقد دمرت معه ، وان كان قد نجا شىء من كتبها فان بعض المؤرخين يعتقد أن تلك البقية أرسلت الى روما أو القسطنطينية ـ بينما يرى « جبون » Gibbon أن المسيحيين دمروا المكتبة عن آخرها فى ثورتهم على الوثنيين بقيادة « تيوفيلوس » وهم بذلك ينفون احراق العرب لها ٠

ويرى ماتر Matter غير هذا الرأى (ويؤيده « بوتى » Botti) ، يريان أن التخريب الذى لحق « السرابيوم » كان يسيرا بحيث أمكن اصلاحه ٠ وبقى « السرابيوم » على هذا قائما يحل محل « المتحف » فى أداء مهمته العلمية كجامعة حتى الفتح العربى ٠

ويشير العرب الى « بيت الحكمة » أو « قبة أرسطو » التى

وجدوها ملحقة بأبنية السرابيوم (١) ، وفي هذه الاشارة دلالة على أن فلسفة أرسطو كانت تدرس فى « السرابيوم » كما كانت تدرس من قبـــل فى « المتحف » ـ ومن عجـــب أن يذكر « ماتر » Matter عن « بنيامين التوديلى » أنه كانت لا تزال تشاهد فى الاسكندرية فى بعض أطرافها (فى السرابيوم ؟) فى القرن الثانى عشر للميلاد (كذا) مدرسة لأرسطاليس هى بناء مكون من عشرين ساحة ، تتصـــل بأروقة ذات عمد ، يذهب اليها الناس من كل أنحاء العالم يتلقـــون حكمة « أرسطاليس » ٠

ولا نرى مناصا من الاعتقاد بأن العلم الاسكندرى وجد سبيله بعد حريق البروكيوم سنة ٤٨ ق٠م الى مكان آخر أنسب لاستقراره ٠ ولم ينتقل الى السرابيوم من هذا العلم على الأرجح الا المكنون منه بين دفات الكتب أول الأمر ـ أما العلم على أفواه العلماء ، فقد بقى متداولا فى « السيستيا » أو القاعة العامة التى بقيت قائمة بالمتحف بعد حريقه الكبير ـ ظلت هذه القاعة قائمة الى عهـــد الأمبراطور « كراكلا » الذى أنزل بالمدينة نوازل كبرى ، كان منها منعه للنـــاس من الاختلاف الى تلك القاعة العامة للدرس ، وقد تم تدمير بقـــايا المتحف عام ٢٧٣ م على يد الأمبراطور « أورليـــــان » ، وذهبت السيستيا ، وبذهابها لجأ أعضــــاء المتحف الاســـكندرى الى السرابيوم ، أو فروا الى البحر ٠

* * *

عانى العـــلم الاســـكندرى أزمة حادة بســـبب اصـطدامه بالمسيحية ، فكان من ذلك نزاع عنيف بين العلم الوثنى فى معـاقله الوثنية وبين الدين الجديد ٠

---

(١) أنظر وصف الاسكندرية عند الفتح ـ بطلر : فتح العـرب لمصر ٠

وشهدت الاسكندرية فى القرون التالية للميلاد أشد المحن والثورات التى كان من أثرها ضياع كثير من الثروة العلمية ، واتجهت ثورات المسيحيين على الوثنيين الى « السرابيوم » باعتباره معقلا هاما من معاقل الوثنية ، كما اتجهت دون شك الى غيره من المعابد – وأشبع هؤلاء المسيحيون غيظهم بتدمير الآثار الوثنية ٠ وأقاموا على أنقاضها كنائس مسيحية ، وعبثوا بمؤلفات الوثنيين ، أو حاولوا أن يتخذوا منها عونا وسندا للدين الجديد ٠

ومما يؤسف له أن هذا النزاع كان محتدما لا يعرف سبيلا الى الرحمة والشفقة ، مثل المسيحيون فيه بالوثنيين المشتغلين بمسائل العلم أبشع تمثيل ٠ وكان تمثيلهم بالفيلسوفة « هيباشيا » Hypatia ابنة « ثيون » العالم فى الرياضيات والجبر ، ومعاونته فى أبحاثه العلمية ، وزعيمة من زعماء الأفلاطونية الحديثة ، بالغا غاية القسوة – فقد اتهمها الغوغاء بالسحر وقتلوها شر قتلة ، ويعتبر تمثيلهم بها مضرب الأمثال فى الوحشية ، فقد مزقوا جسمها تمزيقا فى أحد محاريب معبد « القيصريون » ، لا لذنب سوى أنها وثنية العقيدة ، مشتغلة بمسائل العلم والفلسفة ٠

وأشد هذه الثورات هولا الثورة التى تزعمها « تيوفيلوس » فى أواخر القرن الرابع (٣٩١ م) ، وفيها حطم المسيحيون معبد السرابيوم تحطيما تاما لم يبق على المكتبة ، وأن أبقى على بعض الأروقة الخارجية ٠

* * *

بهذا نكاد نجزم بأن آثار العلم الاسكندرى فى السرابيوم ، وهى كل ما كان قد بقى من عتاد الاسكندرية العلمى ، قد تلاشت فى هذا الخلاف المستحكم انتقاما من الوثنيين ، وأن السرابيوم كجامعة لم يعد له وجود بعد الثورة التى قادها تيوفيلوس ، والتى لم تبق على شىء من الكتب ولم تذر ، وأن امتداد عهد الجامعة الى الفتح العربى أمر يصعب تصديقه ، الا اذا قامت عليه الأدلة المادية ٠

أما عن المكتبات ، فقد ظل بعض المؤرخين على زعمهم ـ رغم ما أثبتت الأدلة القاطعة من عدم وجود مكتبة عامة بالاسكندرية عند الفتح ـ بأن العرب وجدوا مكتبة وأحرقوها بعد استئذان عمرو بن العاص للخليفة عمر بن الخطاب فى شأنها ٠ ونحن نحيل القارىء على الفصل الخاص بتحقيق القول فى أمر المكتبة العامة فى أواخر الكتاب ، فهو واجد فيه بعض ما يشفى الغلة فى مسألة كثر حولها اللغط ـ هى مسألة اتهام العرب بحرق مكتبة الاسكندرية ٠

على أن الصراع الذى احتدم بين المسيحيين والوثنيين كان غرضه الأول القضاء على الوثنية باعتبارها دينا ـ ولكنه ما لبث أن أصبح يرمى الى خلق جمهرة من العلماء المسيحيين الذين يرغبون فى حذق فلسفة اليونان ، ابتغاء استخدامها فى الترويج للدين المسيحى ، اذ لم يكن لهم مفر ، وهم فى الاسكندرية ، موطن الحياة العقلية ، من أن يتسلحوا بمنطق اليونان وفلسفتهم وعلومهم ، ليكونوا بذلك أقدر على الاقناع ٠

والحركة الفكرية التى خلصت لهذا العصر لم تكن حركة ينتظمها سياق واحد ، ولم تخضع لاشراف واحد ، على نحو ما تخضع الحركات العلمية فى الجامعات ٠ ومهما يكن من الأمر ، فقد أخرجت هذه الحركة « سنت كلمنت » الاسكندرى Saint Clement و « أوريجين » Origene والبطريق « تيوفيلوس » Theophilos وكانوا جميعا حربا على الوثنية ، وينسب الى الأول منهم أنه درس الفلسفة ، وجال فى بلاد اليونان وايطاليا ، وبلغ الاسكندرية وأقام بها ، وتزعم المدرسة المسيحية المتفلسفة فيها ٠

الفصل الثالث عشر

الجامعة فى العصر الرومانى الثانى
فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين

هناك من يقول ببقاء المتحف والجامعة الى هذا العصر ـ رأى جوجيه Jouget ـ علماء فى اللغة والفلسفة ـ ثيون وهباشيا وثيقة بردية هامة ـ أساتذة وثنيون فى الجامعة يلقنون علومهم للوثنيين ـ اضطهاد (زينو) للوثنيين ـ حركة نهوض مسيحية ـ حنافلبونس العالم بالتوحيد ، معارضته للأفلاطونية الحديثة ـ معارضة البطريق بنيامين له ـ تأريخه لعدة حوادث ـ اسطفان الفيلسوف يحارب عقيدة « الطبيعة الواحدة » ـ أثر حرية الفكر فى انضاج الشعور القومى ـ حركة النهوض القبطية ـ ظهور أدب قبطى وفن قبطى ٠

مما لا شك فيه أن « المتحف » خرب بعض الشىء فى حريق ٤٨ ق٠م ، وأنه ظل باقيا الى عهد « كراكلا » يختلف اليه الناس طلبا للعلم ، ولكن المعروف أن هذا الامبراطور منع الجماهير من الذهاب اليه وأغلق قاعة « السيستيا » عام ٢١٧ للميلاد ـ وتم تخريب المتحف فى عهد الامبراطور « أورليان » سنة ٢٧٣ للميلاد ، وفر علماؤه الى « السرابيوم » حيث احتموا فيه ٠ والمفهوم من هذه الحوادث الثابتة أن المتحف لم يعد له وجود بعد عام ٢٧٣ م ٠

ويعجب الانسان عندما يرى بعض المؤرخين يصرون على بقاء « المتحف » والمكتبة الملحقة به حتى زمن متأخر كهذا ، مع قيام الأدلة على فناء المتحف والمكتبة الملحقة به ، وانتقال الحركة العلمية الى السرابيوم ٠

يقول « بيير جوجيه » ما خلاصته أن الأسكندرية بقيت بفضل المكتبة والمتحف حاضرة العلوم والآداب ، ووسطا شـــهيرا بالبحث والاستقصاء العلمى الدقيق ٠

وفى العصر « البيزنطى » (١) ، احتفظت جامعة الاســكندرية بنفس المكانة الممتازة التى كانت لها فى سابق الزمن ، وكانت متاحف الحاضرة المصرية وكلياتها ذائعة الذكر فى كل أنحاء الأمبراطورية ٠

"Capitale savante, lettrée et artiste, Alexandrie avait été durant des siècle, grace à sa **Biblìouhèque** et à son **musée,** le centre d'un puissant mouvement scientifique, d'une grande école d'érudition, d'une activité intellectuelle prodigieuse. A l'époque byzantine encore, son **université** conservait sa gloire d'autrefois. Les "Musées", [illegible] **université** de la Capital egyptienne étaient célèbres dans tous l'empire."

* * *

وأم جامعة الأسكندرية طلاب من أمم الشرق المختلفـــة ، من فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى ، تلقوا العلم فيها على أساتذتها ، وكان الأساتذة معروفين فى ذلك الوقت باســـم « السفسطائيين » ، يعلمون الطب والعلوم الرياضية والخطابة الى جانب علوم اللغـــة والفلسفة ٠

* * *

ومن علماء اللغة فى العصر البيزنطى « ثيودوت » Theodote الأسكندرى و « أوريون » Orion ، ومصنفون آخرون مكثرون من أمثال « هسيخيوس » Hesychios و « هلادوا » Helladois ٠ وممن شغلوا بدراسة الفلسفة « هباشيا » وكانت بارعة الجمال ، عالمـــة فيلسوفة ، تتلمذ عليها «سينسيوس القرينى» Synesius de Cyrene الذى جمع كثيرا من المعلومات عن حياتها الخاصة ومباحثها ٠

---

(١) العصر الرومانى الأخير

ولدينا وثيقة ذات خطر من أواخر القرن الخـــامس كتبهـــا « زكرى » عن حياة العالم « سفير » Sevère تطلعنا على نواح من الحياة العلمية فى الاسكندرية فى العصر البيزنطى ، تذكر الوثيقة اسمى « هيراسكوس » و « هورابولون » كأستاذين فى الجامعـــة ، استطاع أولهما أن يشيع بين تلاميذه من الشبان روحا متحمســـــة للدراسة والبحث ، لا فرق عنده بين مسيحيين ووثنيين ، قرب منـــه هؤلاء وهؤلاء يطلبون علمه ، واحتـــدمت المناقشـــات بين فريقى الشبان ، واشتد بينهم الجدل ــ ولا سيما فى المسائل الدينية ٠

وكان كثير من الأساتذة فى الجامعـــة فى العصر الرومانى المتأخر من الوثنيين الذين لم يمنعوا المســـيحيين من الاستماع الى علومهم ٠ وكان أثر هؤلاء عظيما فى الاسكندرية ، تمتعوا فيها ــ رغم وثنيتهم ، ورغم المسيحية الغالبة على المدينة ــ بمكانة رفيعة فى عالم الفلسفة والعلم البحت ٠ وكانت الفلسفة التى علمها هؤلاء وثنيـــة طبعا ، سمح بدراستها فى الجامعة أخيرا ، لأن الحماسة الدينية التى منعت من دراستها فى القرون الأولى للمسيحية ، يظهر أنها كانت قد فترت نوعا ــ أو لأن الحرية ربما عادت سيرتها الأولى فى الأوســاط العلمية بعد أن حرمت منها زمنا طويلا ــ هـــذا ، ولم يخل الأمر من الانتقاص من وقت الى آخر على الوثنيين وعلومهم ٠

بقى هؤلاء الوثنيون حملة للعلم الهلينى ، والى جانبهـــم كان يوجد علماء من المسيحيين ، اضـــطرد عددهم منذ أواخر القـــرن الخامس بسبب اضطهاد الأمبراطور « زينو » للأســـــاتذة الوثنيين وتقتيلهم ٠

وفى أوائل القرن السادس ظهر « حنا » الملقب « فلبونس » وهو لغوى وعالم من علماء التوحيد ، ومعلق على فلسفة أرسطو ، ومفكر حر رغم مسيحيته ، وكان يميل بطبعه الى الأقيسة المنطقية ، والأدلة العقلية ٠ وهو فى مؤلفيـــه « أبدية العـــالم » و « خلق العـــالم »

يميل الى اتباع La création du monde and L'éternité du monde
آراء أرسطو الحرة · كتب فيما كتب مؤلفات عارض بها الوثنيين
والأفلاطونية الحديثة والأرثوذكسية ، اذ كان من المتحمسين لعقيدة
« الطبيعة الواحدة » للمسيح ، والدليل على ذلك وضعه لكتابه الضخم
فى التوحيد المسمى L'arbitre وهو مفقود الآن ·

وكانت للفيلسوف « حنافلبونس » مكانة ممتازة فى جامعة
الأسكندرية ، وكثيرا ما كانت كتابته تثير ضجة لاحتوائها على آراء
نسبها بعض الأسكندريين وبعض البطارقة الى الهرطقة ، وانبرى
البطريق « بنيامين » يعارض آراء « فلبونس » فى كتابه « البعث »
. La Resurrection

وفلبونس فوق هذا مؤرخ لعدة حوادث مصرية ـ شهدها
بنفسه ، اعتمد عليه « بطلر » مؤلف « فتح العرب لمصر » فى كثير
من فصوله ·

وفى خواتيم القرن السادس الميلادى ظهر أستاذ مسيحى آخر
هو « اسطفان » الفيلسوف الذى درس وعلق بدوره على مؤلفات
أرسطو ، وعمل جاهدا على اضعاف عقيدة « الطبيعة الواحدة » فى
المسيح · ولم تستسغ الأسكندرية منه ذلك ، وعاقبه بطريقهما
« دميان » على خروجه هذا ، باعلانه طريدا من الكنيسة الرئيسية ،
سيما وقد أصر أسطفان على رأيه ـ وأدى هذا الموقف الى انقلابه
« أورثوذكيا » متطرفا واضطر على أثر ذلك الى مغادرة الاسكندرية ·

* * *

وكانت منذ القرن الثالث الميلادى قد بدأت تدب بين المصريين
حركة مناوئة للثقافة الهلينية ، ليست الأولى كما نعلم فى
الاسكندرية ، تبعتها حركة احياء للعقائد والتقاليد المصرية القديمة ·
وقامت فى نفس الوقت تقريبا حركات انتقاض مشابهة فى الشرق

الأدنى عامة ، ترمى الى الغض من شأن المدنية اليونانية فى سوريا وما بين النهرين وآسيا الصغرى · والمرجح أن يكون الفرس هم الذين أضرموا نارها · وكانت مدن مصر العليا معقل هذه الحركة المعارضة · والحق أنه عند ما قبل الوطنيون المصريون العقيدة المسيحية ، خلقت فيهم الديانة الجديدة شعورا بقوتهم وقيمتهم ، كان من شأنه أن حقر الوثنية الأغريقية أيما تحقير – وقام رجال الدين المصريون يعظون الجماهير باللغة المصرية بعد أن كانوا يعظونهم باليونانية · وأخذت الكتب الدينية تنقل الى اللغة المصرية القبطية تباعا ، ولم تقف حركة المعارضة عند هذا الحد ، بل اتخذ المصريون لأنفسهم فنا قبطيا عارضوا به الفن الأغريقى ، ولكنه لم يخل من التأثر به على كل حال ·

وكان انتصار المسيحية على الوثنية فى حقيقة الأمر انتصارا لمصر القبطية (الوطنية) على مصر البيزنطية ، وبدأ اقباط مصر يشعرون بقوميتهم ، وبالدور الهام الذى يحق لهم أن يلعبوه فى شئون البلاد كورثة للفراعنة ، وامتلأت نفوسهم كراهية للرومان الذين طالما نكلوا بهم وساموهم سوء العذاب ·

وبلغت روح التفاخر بعراقة الأصل المصرى بين اقباط مصر اعظم شأو لها فى القرن السادس ، حين أخذ المصريون يشيعون أنهم اقدم شعوب الأرض ، وأن بلادهم أخترعت الكتابة والهندسة فضلا عن غيرهما من العلوم – وبعبارة أخرى أنها مهد المدنية · واعتقد الأقباط اعتقادا جازما ، ان خطأ وان صوابا ، أنه ما من شىء عظيم الشأن فى هذا العالم ، الا كان من خلق متحمسيهم ، وبالغ هؤلاء فى تفاخرهم الى درجة أخطأت الحقائق المقررة فى التاريخ ، فانتحلوا لمصر شخصية الأمبراطور « دقلديانوس » والامبراطور « ثيودوسيوس » والأمبراطورة « تيودورا » ، وذهبوا فى حماسهم الى اختراع دعوى ظاهرة البطلان مؤداها أن السيد المسيح لم يولد فى « بيت لحم » ، وانما ولد فى « هيراقليوبوليس » فى الطيبائيد ، في صعيد مصر ·

وكانت مصر فى نظرهم بلاد الله المختارة ، وأقربها الى قلب المسيح ، وأخلصها لعقيدته . ولا شك فى أن تلك الحركة فى جملتها انما هى حركة انتعاش قومى ، بلغت منتهاها من الحدة خارج مدينة الاسكندرية ، وعمت المدن المصرية جميعا ، وتنكرت البلاد للأجانب ، وانقطعت صلاتها الروحية ، أو كادت ، بالامبراطورية الرومانية . ولم يبق لها بها من علاقة سوى علاقة التبعية السياسية . وغدونا نرى فى مصر منذ القرن السادس الميلادى شعبا مصريا يحس لنفسه بوجود شخصى مستقل .

وكثيرا ما يلاحظ فى الأدب المحلى فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين كلمة الوطنى أو « القومى » ، صفة لكل شىء مصرى ، من علوم أو آداب أو ديانة ـ حتى لقد يحق أن يقال أن « المسيحية المصرية » كلمة رادفت « القومية المصرية » ، وأصبحت علما عليها .

وفى القرن السادس الميلادى أخذ ظل كل شىء أغريقى أو رومانى فى التقلص ، ونلحظ فيما كتب « ديل » Ch. Diehl الأستاذ بالسربون ، فى الفصل الذى عقده للأدب القبطى فى مؤلفه « مصر البيزنطية » رغبة الأقباط فى تجنب اليونانية تجنبا تاما كان من شأنه أنه قطع الصلة بين مصر والثقافة اليونانية قطعا نهائيا .

وبدأ الأقباط يغفلون الآداب الأغريقية اغفالا ، ويكتبون أدبهم الخاص بلغتهم القبطية ـ فبها دونوا كتاباتهم الدينية عن حياة القديسين ، وكتبوا بعض الأشعار وتواريخ الشهداء وسير مشاهير المترهبين فى الأديرة ، غير أن التحمس أخذ عليهم طريقهم فيما كتبوا ، فجاوزوا الصواب وأخطأوا القصد .

ورغم هذا ، فقد ظلت الاسكندرية محتفظة بمكانتها فى عالم الفن ، فلم يهبط بها فن العمارة ، ولم تفارقها مهارة أهلها فى صناعة المرمر وفن التصوير ، وصناعة الفسيفساء الزجاجية . وظل

الأقباط ، على الأرجح ، الأيدى العاملة فى هذه الميادين حتى أدرك الاسلام البلاد ، وحينئذ ساهموا فى زخرفة المساجد التى ازدانت بها القاهرة منذ العصر الطولونى ـ وهكذا كان الفن الاسكندرى مقدمة لبعض فنون القرون الوسطى الاسلامية فى مصر ٠

وكانت صناعة الورق مزدهرة بالاسكندرية قبل الفتح العربى بزمن طويل ٠ والورق عماد الكتب كما هو معروف ، وقد برع الاسكندريون فى صناعته ، كما برعوا فى رسم المصورات الجغرافية ، منذ وضعها « أراتوسثنيز » و « بطليموس » الاسكندريان ٠

وحذق الاسكندريون فن تصوير الكتب ، وزخرفتها وايضاحها بالرسوم الدقيقة Miniature ، واستعانت المسيحية بهذا الفن على شرح عقائدها ، كما استفادت صناعة النسيج زخارفها الجميلة من مهارة المصورين ـ وكل هذه الزخارف أو جلها مستمد من الصور الدينية المسيحية ٠

وازدهرت بالاسكندرية صناعة الزجاج والسفن والمنسوجات الحريرية والكتانية ، وعرفت المدينة بطرازها (١) الخاص فى العصر البيزنطى ٠

---

(١) الطراز مكان صناعة النسيج .

الفصل الرابع عشر

اخريات العلم الاسكندرى

آخر ألوان العلم اليونانى ـ حركة النهوض القومى ومناوأة اللغة اليونانية ـ آداب قبطية ـ شيوع اللغة السريانية ـ هى لغة العلم والطب خاصة ـ حنا النقيوسى يؤلف بالقبطية ـ ترجمة « العهد الجديد » ـ موقف المصريين الأقباط من العلم الاسكندرى ـ نفر من علماء هذا العصر ـ ليس للجامعة وجود فى الغالب ـ المكتبات الخاصة هى عماد العلم ـ الحركة العلمية الحرة تتمثل فى حنا مسكوس وصفرونيوس ـ بقية من الطب والهندسة والفقه والفلسفة والأداب اليونانية ـ ترجمة التوراة الى السريانية فى مصر ـ انطونينس العالم بالهندسة والطبيعة ٠

كان آخر عهد الاسكندرية بالعلم اليونانى فى القرن السادس الميلادى ذلك اللون من الجدل الفلسفى الذى اشتد بين أنصار المسيحية والوثنيين ، وهو نوع من فقه الدين احتاج الى الاستعانة بالفلسفة والمنطق اللذين راجت دراستهما فى العصر الرومانى الثانى مقترنة بحركة الجدل الدينى أشد الاقتران وأقواه ٠

وكانت لغة البلاد الرسمية فى العصر الرومانى هى اليونانية ، غير أنه منذ القرن الرابع الميلادى ، أخذت روح القومية المصرية فى الظهور والقوة ٠ وكان من أثر ذلك أن بدأ رجال الدين المصريون

يعظون الناس باللغة المصرية ، بعد أن كانوا يعظونهم باليونانية لغة الحكومة والكنيسة الرسمية · وبدأ القبط منذ ذلك التاريخ يغفلون الآداب الاغريقية ، ويكتبون أدبهم الخاص بلغتهم القومية ، فدونوا بها تآليفهم فى حياة القديسين وتواريخ الشهداء ، وكتبوا بها شعرا ونثرا عارضوا بهما النثر والشعر اليونانيين ·

* * *

وسارت اللغة المصرية (القبطية) جنبا الى جنب مع اللغة اليونانية التى بقيت لغة البلاد الرسمية الى ما بعد الفتح العربى بزمن ليس بالقصير ، غير أنه على الرغم من نهوض اللغة القبطية فى العصر الرومانى ، لم ينتج بها القبط أدبا ينافس الآداب اليونانية التى ظلت صاحبة الغلبة والنفوذ ـ والحق أن اليونانية بقيت بالنسبة لجمهور الأدباء طوال عصر الانتفاض ضرورة ثقافية لا غنى عنها ، وظل الأدباء يكتبون بها نثرا وشعرا · ومن أشهر كتاب القرن الرابع الميلادى « لوسيانوس » صاحب كتاب محاورات الموتى « وأخيلاس تاتيوس » المؤلف الروائى ، ومن أذيعهم صيتا فى القرن الخامس الشاعر المصرى « قيرس الأخميمى » ، وفى القرن السادس الشاعر الطيبى « كريستودورس » ، ومن علماء هذا العصر المتأخر « ديسكوريدس » النباتى المصرى المعروف ، صاحب كتاب خواص العقاقير الذى حرص العرب على اقتنائه ، وصوروه فى العراق ·

والى جانب اللغة اليونانية والآداب اليونانية ، كانت هناك لغة ثالثة هى لغة السريان الذين هاجروا الى مصر تحت ضغط الغزو الفارسى على بلدان آسيا الغربية ، واحتموا فى وادى النظرون فى غرب الدلتا ، وعكفوا على العمل فى هدوئه ، ومن عجب أن تصبح لغة السريان هذه ـ لغة العلم ، ولا سيما العلم الطبى ، فبها دون سواها كانت تدرس العلوم الطبية فى القرنين السادس والسابع

الميلاديين ، وان دل ذلك على شيء ، فدلالتـــه قوية على أن هؤلاء السريان كانوا فى نقلهم لعلوم اليونان جبابرة ، لم يدعوا منهـــا بلغتها الأصلية شيئا تقريبا ، ثم جاءت حوادث السياسة الهوج ، وفى أعقابها حوادث الفتح العربى ، فاختفى من الوجود أو هلك كثير من كتب اليونان ، واعتبر ما بقى منها من الكنوز التى لا يجمل أن تتداول، فاختفت عن الأعين ـ وكان للسريان على الأرجـــح أكبر الأثر فى اختفائها ، وراجت ترجماتهم وارتفع شأنها وارتفع معها شأن لغتهم ، ولا يبعد أن يكون السريان قد اشتغلوا على طول هذه الفترة بتجارة المخطـــوطات ، وأن يكونوا قــد أثروا من وراء ذلـك ثراء طيبا ـ اذ لأشك أن عودة المخطوطات اليونانية الى الظهور فى عصر النقل الأعظم ، كان عظيم الوقع ، كبير القيمة ، وكان حرص الخلفاء على اقتناء هذه المخطوطات بالغا ، فلم يدخر المعنيون منهم بحركة نقــل العلوم القديمة وسعا فى اقتناء المخطوطات مهمــا غلا ثمنهــا ، اما للنقل منها رأسا ، أو لمراجعة المترجمات السريانية عليها ٠

وبلغ من شـــــيوع لغة السريان ومنافستها للغتين اليونانية والقبطية ، أن ترجم اليها الكتاب المقدس ـ وكتب بها القس « اهرون الاسكندرى » مقالاته فى الطب ، وغدت السريانية بالاجمال ضرورة من ضرورات العصر الأدبية ، لا تقل شأنا من حيث هى لغة علم عن اليونانية ذاتها ، وحذقها كثير من محبى العلم ، وخدموا بها العرب خدمة جلى فى عصر النقل الأعظم ٠

* * *

وعلى الرغم من قوة هاتين اللغتين ، اليونانيـــة والسريانية ، كانت لغة البلاد القومية تكافح وتناضل ، لتتخذ لنفسها مكانة تليــق بأمة تطمح الى الاستقلال ، وتعمل له جاهدة ٠ وما لبثت القبطية أن استخدمت فى الوعظ والصلاة والتأليف ٠ وكتب « حنا النقيوسى » ديوانه المشهور بهـــا ، وأن كان قد دون جزءا منه باليونانية ، وكتب

بها الرهبان تواريخ القديسين والشهداء وأخبار البطارقة ، وترجم اليها « العهد الجديد » ٠

ولكن الآداب القبطية لم تعد أن تكون آدابا دينية فى مجموعها ، وليس للقبط فى حقيقة الأمر آداب يمكن أن يفخروا بها ــ اللهم غير قليل من مأثور الحكم وبعض الأشعار ٠

وظلت غالبية القبط ابان حركة النهوض بمعزل عن الاسكندريين ورثة العلم اليونانى ، ولعلهم كانوا ما يزالون على اعتقادهم القديم بأن العلم الاسكندرى علم وثنى لا يجمل بهم أن يتناولوه ٠

وأدرك العرب الاسكندرية وبها بقية من العلم اليونانى أفسدها الزمن ، أهم ما فيها مقالات عن طب « جالينوس » ومأثور من حكم « بقراط » ، وشىء كثير من التنجيم والمعجزات وعلم الصنعة (الكيمياء) ، وفلسفة ممتزجة بالدين أشد الامتزاج ، ترمى الى خدمة المثل الأعلى المسيحى ، على أساس من فلسفة أفلاطون وأرسطو ٠

* * *

وكان العلم الدينى أهم ميدان جال فيه مسيحيو الاسكندرية وأغلب الظن أن الكثرة من هؤلاء المسيحيين الذين اشتغلوا بمسائل العلم الاسكندرى لم تكن من متعصبى القبط ، فقد كره هؤلاء على ما يظهر دراسة فلسفة « الاسكندرانيين » ، ولم تحاول غالبية الأقباط ما حاول غيرهم من استخدام الفلسفة لتقوية العقيدة المسيحية ، خوفا من ان تزل قدمهم فيرمون بالهرطقة ، كما رمى بها « حنا فلبونس » فى دفاعه عن فكرة « الطبيعة الواحدة » للمسيح ، اذ عارضه البطريق « بنيامين » وسفه من آرائه فى كتابه « البعث » ـ وكان لهم فى الدفاع عن مسيحيتهم أسلوبهم الخاص فى الاقناع ٠ لهذا كله ، وفد العرب على القبط ، فلم يجدوا بين أيديهم علما أو فلسفة ، وان وجدوا عندهم دراية بالفنون اليدوية لا تبارى ولا يجحد فضلها ٠

جاء القرن الخامس وليس فى الاسكندرية مكتبة كبرى عامة بل كان كل ما فيها مكتبات خاصة أشهرها مكتبة عالم يدعى «كزماس» جعل منها خير عوض عن مكتبة الاسكندرية العامة ، وكان يعير من كتبه لمحبى القراءة والاطلاع فى كثير من الرغبة الصادقة فى الافادة . وكان الرجل فى ذاته مكبا على القراءة والتصنيف ، يجادل اليهود جدالا عنيفا ، ويرد على كتاباتهم .

وقد انتفع بعلم « كزماس » وبكتب مكتبته الخاصة ، المؤرخان « حنا مسكوس » (٥٥٠/٦١٩م) وتلميذه « صفرونيوس » . وهما لا يذكران شيئا عن مكتبة عامة كانت بالاسكندرية فى ذلك الوقت . ولا شك أن مبالغتهما فى تقدير قيمة مكتبة « كزماس » . وسكوتهما عن ذكر مكتبة الاسكندرية ، بالاضافة الى صمت غيرهما من المؤرخين ، دليل قوى على خلو المدينة من مكتبة ذات صفة عامة ، كانت ـ ان وجدت ـ خير عون لهما على البحث والافاضة .

كتب حنا مسكوس كتابه « مسارح الروح » Portum Sprituale وكتب « صفرونيوس » مؤلفاته ، ولم يتطرقا الى ذكر مكتبة « السرابيوم » بكلمة يكون فيها فصل الخطاب فى هذا الموضوع الذى طال فيه الجدل ، وعزت الأدلة المادية .

وكانت بالاسكندرية غير مكتبة العالم « كزماس » مكتبة أخرى خاصة هى مكتبة مطران « آمد » التى ذاع ذكرها فى أوائل القرن السادس . ويذكر الدكتور « بطلر » أن هذا المطران استطاع أن يجمع كتبا ذات قيمة أثناء مقامه بالاسكندرية ، مما يدل على أن الاسكندرية كانت فى ذلك الوقت سوقا لتجارة الكتب . وبموته اختفت هذه المكتبة من الاسكندرية ، يقال نقلت كتبها الى كنيسة « آمد » فى شمال العراق (١) .

---

(١) بطلر : فتح العرب لمصر ـ التعريب

يضاف الى هاتين المكتبتين الخاصتين ، مكتبات الأديرة والكنائس • وكانت الأديرة والكنائس مستودعا للعلم فى ذلك الزمن الذى ندرت فيه الكتب وتفرقت أيدى سبا ، ولكن الكتب الوثنية كانت قد فنيت كلها أو جلها ، ومن غير المعقول ان تحوى الأديرة والكنائس كتبا للوثنيين • وأغلب الظن أن محتويات هذه المكتبات الكنسية كانت اما كتبا مسيحية بحتة ، أو كتبا دينية استخدمت فيها أساليب أرسطو وأفلاطون فى الاقناع ، لا تخرج فى موضوعها عن أن تكون كتب دين ، أو علم لا يتعارض مع الدين •

على أن أكثر المكتبات شهرة كانت مكتبة دير « الهانطون » ومكتبة « دير السريان » من أديرة الصحراء فى غرب الدلتا •

وكان العلم فى هذا العصر يعتمد الاعتماد كله على محتويات المكتبات الخاصة ومكتبات الأديرة والكنائس • وكان العلماء أشبه ما يكونون بالهواة ، يقتنى الواحد منهم مكتبة يحرص عليها ، ويعير من كتبها لأصدقائه وعارفيه ، أو يتصل بعالم فيلسوف أو رحالة يجول فى أرجاء الأمبراطورية يفيد من شتات الكتب فى انحائها المختلفة ، أو يرتاد أديرة الصحراء ينهل مما فيها من آراء تؤيد الدين وتناهض الوثنية واليهودية ، ينتفع الواحد منهم بعلم الآخر ، على نحو ما انتفع « مسكوس » و « صفرونيوس » بعلم « كزماس » ــ بطريقة التلقين التى تسود عادة فى عصور التأخر ، حين تندر الكتب ويصعب الحصول عليها بسبب قلتها ــ أو حين يحول دون الانتفاع بها عامل من عوامل الاضطهاد الدينى أو السياسى •

والغالب على الظن أن الحركة العلمية الحرة كانت تتمثل فى اولئك العلماء الذين كانوا يتنقلون من مكان الى آخر ، من أمثال

« حنامسكوس » و « صفرونيوس » الجاثلين اللذين ارتحــــلا من الاسكندرية الى الجــــزائر اليونانية ، وبلغا « روما » حيث هذب « مسكوس » كتابه « مسارح الروح » Partum Sprituale ، وهــو عبارة عن قصص لشفاء الأمراض بطريقة روحانية • وكان هــذان العالمان صديقين « لتيودور الحكيم » رئيس أحد الأديرة ، وكان عالما وفيلسوفا بقدر ما كانت المسيحية تبيح لرجالها الخوض فى أمــور الفلسفة • ومن معلمى هذا العصر « زويلوس » القارىء ، وكان من شراح الكتب •

* * *

على أن الشىء الذى يسترعى الانتباه هو شيوع « السريانية » كلغة للعلم فى هذا الزمن ـ فكان لابد لمن يطلب العلم من أن يحــذق لغة السريان • والعلاقة بين هذه اللغة وبين دراسة الطب وثيقــة • وكانت آداب اللغة السريانية شائعة تدرس فى الاسكندرية منذ زمن بعيد قبل الغزو الفارسى لسوريا وهجرة فريق من علماء السريان الى مصر تحت ضغط ذلك الغزو •

والمعروف أن أعظم ما كتب فى الطب كان بالسريانية ، فبهــا كتب القس « اهرون » الاسكندرى رسائل فى الطب أفاد منها العرب فائدة كبرى ، ويذكر « أبو الفرج بن العبرى » أن مقالاته بالسريانية تجاوزت الثلاثين مقالة •

ويلاحظ على هذا العصر أن رجال الدين فيه كانوا رجال علم ، ومن هؤلاء « أهرون » الذى تقدم ذكره ، و « سرجيوس الرسعنى » و « سعيد بن بطريق » المعروف باسم « يوتيخوس » ، وكانوا جميعا فقهاء فى الدين وعلماء فى الطب فى نفس الوقت •

هذا الى أن الرهبان فى الصحارى كانوا قد أخـــذوا يكتبون باللغة القبطية المحلية كتبا عن حياة البطارقة ، وعجالات فى الخلافات المذهبية ، ولكنهم لم يكتبوا بها كثيرا فى التاريخ ، وأشهر ما عرف

عن هذا العصر من المؤرخات « ديوان بسكال » ، وفيه وصف لا بأس به لحالة الاسكندرية فى أواخر القرن السابع الميلادى • ومن المراجع الهامة فى تاريخ مصر بعد فتح العرب كتاب « حنا النقيوسى » وهو من أعظم الكتب التاريخية ، التى لا تزال حافظة لقيمتها العلمية حتى الوقت الحاضر •

وكان معظم الانتاج الاسكندرى دينيا ، يعالج موضوعات فى الدين ، أو موضوعات فى العلم كتبها رجال الدين بروحهم الخاصة فى التأليف ، ناحين فيها منحى يبعد كثيرا عن أساليب التدقيق العلمى •

ورغم هذا فقد ازدهرت بالاسكندرية مدارس طبية وفقهية وفلسفية • وكان طلاب العلم من كل صوب ما يزالون يقصدونها ، يتلقون العلم فى مدارسها •

وعلى الرغم من أن حوادث الفتح العربى لابد أن تكون قد قضت على كثير من الآثار الأدبية ، فقد أثر عن « بولص السلنتيارى » أنه كتب شعرا هومريا من ذى المقاطع الستة فى فضائل القديسة « صوفيا » وكتب « صفرونيوس » شعرا غزليا حن فيه الى الأرض المقدسة على نسق ما كان يكتب الشاعر اليونانى « أناكريون » •

ونحن نعلم أنه تحت ضغط الفتح الفارسى لسوريا ، فر جماعة من العلماء السريان ، واتخذوا من أديرة الصحراء فى وادى النظرون منتجعاً لهم ، هناك عكفوا على ترجمة « التوراة السبعينية » الى السريانية ترجمة جديدة ، وعلى مراجعة الترجمة السريانية للأنجيل ، وزعيم هذه الحركة « توما الهرقلى » و « بولص التلوى » ، وكان دير « الهانطون » المكان الذى قامت فيه هذه الحركة وتمت •

ويلاحظ على الحركة الدينية فى هذا العصر بصفة عامة أنها اصطحبت بكثير من التلفيق الذى قصد به تفويق مذهب دينى على آخر •

وهذا العصر فى جملته شـــهير بأنه عصر تفلسف وتفقه فى الدين ، ومبوله فى مجموعها أدبية فقهية ، ولذلك يصعب أن يتصور الانسان أنه كان يجمع الى جانب ذلك شيئا من المهارة العمليـــة ـ ويذكر بين علماء هذا العصر اســـم « انطونينس » Antoninus الذى أدركه العرب فى الاســـكندرية عند الفتـــح ، ويعتبر متمما « لأرشميدس » و « اقليدس » ، وهو الواضع لمبادىء علم المســـاحة الحديثة ، يقال أنه قاس سرعة المقذوفات ، وابتدع مضخة الحريق ، و « الهيدرومتر » ، وحاول استخدام البخار ، ووضع تصميما عمليا لبناء « الباكيات » Voûtes أخـــذه عنه « ايزيدور المليـــطى » Isidore de Milet أحد مهندسى كنيسة « أيا صوفيا » . وهو أول من حاول استخدام الهواء المضغوط والتيارات الحارة والباردة فى تحريك بعض الأشياء . وبفضل محاولاته هذه أمكن اندفاع الماء من النافورات ، كمـــا أمكن اســـالة الدمـــوع والعطـــور من أعين التماثيل المقدسة !

الفصل الخامس عشر

نهاية العلم الاسكندرى
تحقيق هذه النهاية

غموض نهاية الجامعة ـ كتاب بطارقة الاسكندرية ينير الطريق ـ بردية عظيمة القيمة يحدثنا عنها مايرهوف ـ الفلاسفة الفلبونيون ـ الفلاسفة المعلقون ـ خلافات مذهبية بين المسيحيين ـ حنا الأجرومى ـ اسطفان الاسكندرى ـ شيوع طريقة أرسطو فى الاقناع وأثرها فى اليهود والمسلمين ـ الحركة الطبية ـ حركة فلسفية مسيحية يمثلها « حنا الأفامى » و « سرجيوس الرسعنى » ـ اختلاط الفلسفة بالدين ـ الفارابى يروى شيئا عن نهاية العلم الاسكندرى ـ اثر النساطرة فى حفظ العلم الاسكندرى ـ احتفاظ مدارس حران وانطاكية وجند يسابور بالتراث الاسكندرى ـ وثائق هامة عن انتقال العلم الاسكندرى الى انطاكية وحران ـ فضل الكتب العربية فى الاحتفاظ بالثروة العلمية اليونانية ٠

غشيت سحابة كثيفة جامعة الاسكندرية آخر عهدها بالحياة ، على ما كان لهذه المؤسسة من رفعة المكانة وعلو الكعب ورسوخها فى شتى نواحى العلم الانسانى ٠ وبقيت تلك السحابة الكثيفة تعرو وجه العلم طيلة القرنين الأخيرين من حياة الجامعة ، فتزيد من جهلنا بأمر نهاية هذه المؤسسة العلمية العتيدة ٠ ولقد حفزت هذه النهاية الغامضة العلامة المستشرق الدكتور « ماكس مايرهوف » M. Mayerhoff الى كتابة عجالة عظيمة القيمة ، حقق فيها أمر تلك

النهاية ، معتمدا على مصادر عربية بحت . ولقد أمدتنـــا عجـالة « مايرهوف » بحقيقتين كبيرتين الأولى ، أن رواة فنـــاء جامعـــة الاسكندرية كانوا شهود أعين من العرب ، صـــادف انتجـــاعهم للاسكندرية زمن احتضار العلم الاسكندرى فى أوائل القرن السابع الميلادى ـ والثانية ، أن هؤلاء العرب ، فوق شهودهم أخريات أيام العلم الاسكندرى ، ظلوا أمناء عليه ، حفظة له ، ونقلة لتراثه القيم الى أنحاء من الشرق الأدنى ، حيث قدر له البعث فى عصر احيـــاء علوم الأقدمين من فرس ويونان وهنود ، فى خلافتى المنصـــــور والمأمون .

لقد كفانا الدكتور « مايرهوف » Mayerhoff مؤونة بحث هذه المسألة ، وأمدتنا عجالته عن نهاية الجامعـــة (١) بمـــا فيـــه الكفـــاية .

يقول : يكاد يكون من الحقائق التى أجمع عليها المؤرخون أنه لم تكن بالاسكندرية مكتبة كبرى عامة بعد نهاية القـــــرن الرابع الميلادى ، حيث كانت قد ضاعت معـــــالم تلك المكتبة ابان الصراع الهائل بين المسيحية والوثنية على طول القـــرون الأربعة التى أعقبت الميلاد .

* * *

والمطلع على تاريخ بطارقة الاسكندرية لمسيو « جان ماسبيرو » لا يجد هناك مجالا لحركة علمية يمكن أن تسير على أقدام فى مدينة انتابتها عواصف هوج من الفتن الدينية ، كان عمادها أكثر العناصر ميلا الى التخريب والإتلاف ، الا وهو عنصر الغوغاء ، تحركه عوامل خلت من التعقل خلوا أكسبها عنفا وقسوة بالغين .

---

(١) M. Mayerhoff : La fin de l'école d'Alexandrie d'après quelques auteurs Arabes.

وقد أنار لنا « ماسبرو » السبيل بدراســـته لورقة بردية على جانب كبير من الأهمية يعدد فيـــها « هورابولون » Horapollon عالم النحو المدارس والمتاحف التى كانت بالاسكندرية على عهـ ـده (القرن السادس) ويزهو بأنه من سلالة أسرة كل افرادها من العلماء الذين تلقوا علومهم فى مدرسة الاسكندرية الشهيرة ٠

يقول مايروف : ويعاصر « هورابولون » هـذا ، عالم آخر هو الخطيب « زكرى » Zachari الذى كان يعـلم بالاسـكندرية مع زميله سفير Sévère الذى أصبح فيما بعد بطريق « أنطاكية » ، وكان عضوا متحمسا فى جماعة دينية مسيحية تعــرف باســم « الفليونيين » Philoponoi ٠ (نسبة الى فلبونس ؟) ، كان دأبها مناوأة الأساتذة والطلاب الوثنيين ، والانقضاض على المعابد الوثنية من وقت الى آخر ، وأعمال معاول الهدم فيها ــ كما يذكر أيضـا أن شباب الشرق الأدنى كان يفد على الاســكندرية لدراسة الحقـوق والطب والرياضيات والفلسفة والخطابة ٠

* * *

ومن المعروفين بتواليفهم فى خواتيم عصر الانحلال « أمنيوس ابن أرمياس » ، وهو فيلسوف فذ من فلاسفة نهاية القرن الخـامس الميلادى وأوائل القرن السادس . وهو الزمن الذى يحدد آخر العهد بأخبار جامعة الاسكندرية ٠ وكان على رأس جماعة فلسفية تناولت مؤلفات « أرسطو » بالشرح والتعليق ، وتسمى أشياعه باسم الفلاسفة المعلقين . ومنهم : « سمبلكيوس » Simplicius و « دماسكوس » Damascius و « المبيودور » Olympiodore الصـــغير و « أسكلبيوس » Asklepios و « حنافلبونس » Jean Philiponus . كان كل هؤلاء الفلاسفة أول أمرهم وثنيين ، ما لبثـوا أن تحـولوا الى المسيحية ، وأصبحوا أعـــوانا لهـــا ، أكثر حمـــاسة من أبنائها الأقدمين ٠ ...

وشهدت الاسكندرية فى منتصف القـرن السادس الميـلادى خلافات مذهبية بين المسيحيين أنفسهم ، وظهر بها ثلاثة بطارقة ، قوى النزاع بين اتباعهم حتى اتخذ شكلا عنيفا ، وتجلت فى هذا العصر كراهية الأقباط الوطنيين للحكم البيزنطى والكاثوليكية الرسمية ٠

* * *

ومن أشهر شخصيات القرن السادس الميـلادى بالاسكندرية « حنا فلبونس » وهو المعروف عند السوريين والعرب باسم « حنـا الأجرومى » (Le Grammairien) ويعتور حياته غموض كبير ، ولكن من المعروف أنه نزح من الاسكندرية فى أول القرن السادس ، واستمع « لأمونيوس بن أرمياس » ، ووضع أول تعليقـاته على فلسـفة « أرسطو » حوالى ٥١٢ للميلاد ، ويحمل تعليقه المسمى « الطبيعة » تاريخ : « ١٠ ياخون من عصر الشهداء ـ ٥ مايو ٥١٧ ميلادية » ٠

ويلى هذا تعليقه المسمى « ما وراء الطبيعة » ، وهو لا يعرض فى كتاباته بتاتا الى الآراء المسيحية ٠ وهذا ما حدا « بجودمان » Gudeman الى اعتبار « فلبونس » وثنيا بقى على وثنيته فى ذلك العصر المسيحى حتى أرغم على اعتناق المسيحية سنة ٥٢٠ ميلادية ، وبلغ مجموع تعليقاته على « أرسطو » أحد عشر تعليقا ، عدا ما له من التصانيف فى قواعد اللغة الأغريقية والعلوم الرياضية ٠ ومن المحتمل أنه كان استاذا من أساتذة جامعـة الاسكندرية ، ما لبث تحوله الى المسيحية ووضعه كتابا هاما ضد التعـاليم الوثنية أن أكسباه مكانة سامية وشهرة فائقـة ٠ ومؤلفه « خلود العـالم » Sur L'Eternité du Monde حرب على الافلاطونية الحديثة ٠ وهذا السفر مؤرخ فى عام ٥٢٩ م ، وهو نفس العام الذى أغلق فيـه الامبراطور « جستنيان » مدارس أثينا الفلسـفية ، وشرد أتبـاع « بروكلوس » Proclus و « أفلوطين » Platon الذين كانـوا ما يزالون يلقنون تعاليم الأفلاطونية الحديثة فى الأكاديمية الأثينية شر مشرد ٠ ولم يلبث «فلبونس» أن وضع كتابه De Opificio Mundi

الذى دافع فيه دفاعا مجيدا عن كيان المسيحية وتحدى الآراء الدينية الوثنية • وكان فى كل كتاباته يتبع أسلوب « أرسطو » فى الاقناع بصحة الآراء الدينية المسيحية ، فكان بذلك أول من أخضع الدين المسيحى للقوانين المنطقية •

ومن بعده لعب المنطق دورا هاما بين اليهود والعرب المسلمين والمسيحيين اللاتينيين فى العصور الوسطى ، وتاريخ حياته غير معروف على وجه الدقة ، ولكن « فورلانى » Furlani اثبت حديثا أن كتاب « فلبونس » الى الامبراطور « جستنيان » دفاعا عن فكرة الطبيعة الواحدة للمسيح Monophysisme كان حوالى سنة ٥٥١ م

ويعتبر المؤرخون السوريون والمؤرخون العرب «حنا الأجرومى» أصدق ممثل للحركة العلمية الاسكندرية ، وآخر رجالها •

ويليه فى نباهة الذكر « اصطفان » الاسكندرى الفيلسوف السفسطائى ، والعالم الفلكى الذى عاش فى أواخر القرن السادس، والذى انتقل فيما بعد الى القسطنطينية يعلم هناك ، وتاريخ حياته لا يقل غموضا عن تاريخ « فلبونس » ، عرف العرب اسمه عند فتحهم لمصر مقرونا ببعض الأسرار الكيماوية والتنجيم •

ويختلط اسم « اسطفان الاسكندرى » هذا باسم « اسطفان » الطبيب الآثينى مؤلف « المحاضرات الأبقراطية » ، وصاحب التعليقات على بعض تصانيف « جالينوس » الطبيب الاسكندرى •

أما « فلبونس » فقد ثبت أنه ليس الجامع للمقالات الطبية التى ترجمت الى العربية • وقد نفى الدكتور « تمكين » التركى نسبة كتابين يونانيين من كتب الطب الى (فلبونس) اعتاد الناس نسبتهما اليه (١) •

---

(١) مايرهوف : نهاية مدرسة الأسكندرية

والحق اننا لا نكاد نعرف شيئا عن جامعـــة الاسكندرية فى القرنين السادس والسابع الميلاديين ســـوى ما يذكره « حنين بن اسحق » من أعاظم الناقلين لعلوم الاسكندرية فى صدد نقله لمقالات جالينوس الى السريانية والعربية ، من أنه قبل الفتح العربى بقليل ، تضافرت جهود الأطباء الاسكندريين على جمع سبعة من مقـــالات « الطبيب جالينوس » اصبحت أساسا ثابتا للدراسات الطبية ٠

ولم يكن للحياة العلمية من مظهر فى المدينة فى القرن السادس الميلادى ، سوى جماعات كانت تتذاكر بعضا مما كان « جالينوس » قد كتب فى الطب ٠ وكان هؤلاء يقومون فى الوقت نفسه بنقل هـذه المقالات الى اللغات الأخرى ، من غير كبير تقيد بتعاليم « جالينوس » نفسها ٠

وممن اشتركوا فى هذا العمل الطبى آنف الذكر « حنا فلبونس » و « اسطفان الاسكندرى » و « جسيوس » Gessius و « بلاديوس » Palladius و « مارينوس » Marinus ، وقد علقوا جميـــعا على مؤلفات أبقراط وجالينوس كل بمقدار ٠

هذا فى ميدان الطب ، أما فى ناحية الفلســـفة ، فقد نشأت بالاسكندرية بعد « أمونيوس سكاس » وأتباعه ممن وضعوا النـواة لفلسفة الاسكندرية ، مدرسة فلسفية مسيحية ، كان من أشـــــهر فلاسفتها فى القرن السادس الميلادى الفيلسوف المسيحى السريانى « يوحنا الأفامى (١) » والطبيب « سرجيوس الرسعنى » (٢) المعروف باسم « ثيودوسيوبولس » Theodosiopolis ، الذى نقـل عددا كبيرا من مؤلفات « جالين » الى السريانية ٠

---

(١) Yuhannan d'Apamé

(٢) نسبة الى رأس عين Sergius de Ràs Ain

وأنتجت المدرسة نفسها فى القرن السابع الميـــلادى الطبيبين المصنفين « بولس الأجانيطى » Paul d'Aeginac و « أهرون » Ahron ، ومن أشهر ما كتب هذا الأخير كتابه « سبعة كتب فى الطب » Sept livres de Médecine باللغة اليونانية ، وكتابه المســمى Les pandectes médicales باللغة السريانية . وقد ترجم الى العربية وعرف فيها باسم « المجموعة الطبية » وكان له أثره المحسوس فى الطب الاســلامى فى أوائل عهد العـــرب بالاشــتغال بالعلوم الطبية ٠

ويجدر بنا أن نعرف أنه بعد أفول نجم الفلسفة الوثنية بظهور المسيحية وتغلبها على كل ما هو وثنى من علم أو فلســـفة ، خضعت روح البحث العلمى فى الاسكندرية لتعصب دينى ، اتخــــذ بعض الأحيان أشكالا غاية فى القسوة والعنف ٠

ومما قد تلذ للانسان معرفته ، أن الحجة الذى يحـــدثنا عن جامعة الاسكندرية ومدارسها المنحلة ، فى عصر من عصور الاضطراب والفوضى والركود العلمى ، هو المؤرخ العربى المسلم ، والفيلسوف البغـدادى « الفارابى » (منتصف القـــرن العـــاشر الميـــلادى) ومن سوء الحظ أن يكون كتابه عن الفلسفة اليونانية الذى كان يعرف باسم : Sur les débus de la philosophie grècque مفقـــودا الآن وصلتنا منه بعض عبارات تضمنها كتاب « تاريخ الطب » المعـــروف باسم « عيون الأنباء » لابن أبى أصيبعة ــ يقول الفـــارابى : « أن امبراطور المسيحيين فى حربه على فلسفة الوثنيين وفلسفة أرسطو خاصة ، فى القرن السادس ، أباح دراسة كتب المنطق لأرســطو حتى مسألة « الأشكال الوجودية » Des Figures de l'Existence ، وحرم ما عدا ذلك لتعارضه مع التعاليم الدينية المسيحية ، ومن هذا نفهــم أن الفلسفة أخذت منذ ذلك الحين ترزح فى قيد شديد ، وظل الحال كذلك حتى ظهور الاسلام ٠ ويضيف الفارابى : أن أستاذه المسيحى «يوحنا بن حيلان» Youhannan b. Hailân رفض أن يعلمه فصولا بذاتها

من علم المنطق لأرسطو ، كان محظورا على الفلاسفة الاسكندريين فى ختام القرن التاسع الميلادى تعليمها لغير المسيحيين ـ وكان مباحا تعليم هذه الفصول فى وقت ما لطلاب العلم من غير المسيحيين ·

والظاهر أن الحركة العلمية كانت منذ القرن السادس وقفا على رجال الدين المسيحيين ـ ولا غرابة فقد كان «سرجيوس» و «أهرون» قسيسين يعقوبيين ، ولا يغرب عن البال أن انتشار النسطورية فى آسيا الغربية ، وامتدادها الىجوفالأمبراطورية الفارسية الساسانية أيقظ فى تلك الأرجاء رغبة صادقة فى العلم اليونانى فى شكله الهلينى السريانى · وكان قد حدث عام ٤٨٩ م أن أمر الأمبراطور « زينو » Zenon بتحطيم المدرسة العلمية النسطورية التى كانت مزدهرة فى « أذاسا » (الرها) ، فلم تلبث أن قامت على اثرها مدرسة مماثلة فى نصبين Nisibis ببلاد الفرس ·

وعاصرت هذه المدارس مدرسة طبية ذات بال قامت فى « جنديسابور » وظلت عامرة حتى القرن التاسع · وفيها تخرج كثير من الأطباء الذين خدموا بلاط الخليفة العباسى فى بغداد وكلهم من المسيحيين ·

ولا يشفى التاريخ غلتنا عن حالة الأسكندرية قبل الفتح العربى مباشرة ، وما كان فيها من المدارس ، ولا هو يطلعنا على مدى غناء الدراسات الفلسفية والطبية فيها ، ولا نكاد ندرى مقدار ما كان جمهور المدينة العريقة يفيد من كتب المكتبات الخاصة فيها ·

ولقد استطاع « حنين بن اسحق » بعد ذلك بزمن أن يشترى كثيرا من المخطوطات الأغريقية لمكتبته الخاصة ببغداد ، وهى المكتبة التى كان لها شأن كبير فى حركة الترجمة والنقل الى العربية ·

هذا ـ والكتب العربية والفارسية التى تعرضت لوصف حال الاسكندرية قبل الفتح العربى تحوى كثيرا من الأغلاط في التواريخ ،

وتخلط خلطا ظاهرا عند الكلام على بعض الشخصيات ، فقد جعلت من « حنا فلبونس » أو « حنا الأجرومى » شخصا عاش حتى شاهد حوادث الفتح العربى (٦٤٢ ميلادية) واتصل بالقـــائد عمرو بن العاص · وقام الدليل على خطأ هذا الزعم ، نفـاه فيمن نفـــــوه « فورلانى » الايطالى ـ ومن عجب أن يجعل منه المؤرخ الفـــارسى « ظهير الدين البيهقى » (١١٧٥م) شخصـــا من الديلم عاش حتى أدرك عصر معاوية بن أبى سفيان (٦٦١/٦٨٠م) ، وهو حين يزعم ذلك ، يعتمد على وثيقة مكذوبة وجدت فى حيازة طبيب مسيحى من طوس فى بلاد الفرس ، قيل انها من « على بن أبى طالب » الى « حنا فلبونس » خطاب تقدير ورعاية لجهوده العلميـــة ، اطلع عليهـــا « البيهقى » ؛ ثم ساق روايته · وتضـيف الرواية الى ذلك أن الأمير « خالد بن معاوية » تتلمذ على « حنا فلبونس » هـذا ، وتلك رواية شائقة حقا ، ولكنها لا تعتمد على أى سند صحيح · ولا يخـلو من الطرافة أيضا ما يذهب اليه « عبيد الله بن جبرائيل » الطبيب ، فى مؤلف له عن الطب مفقود الآن ، من أن « حنا فلبونس » كان ملاحـا يقوم بالخدمة فى قارب صغير ـ كان يروح ويغدو بين الاسـكندرية وجزيرة فاروس الواقعة أمامها ، وكان فى غدوه ورواحه ينقل العلماء الأفاضل (علماء الأكاديمية الأسكندرية) ، ويفيد من علمهم أيمـــا فائدة ، بالاستماع الى أحاديثهم ومحاوراتهم ، حتى أن ذلك أيقـظ فى نفسه شغفا فائقا بالاطلاع والمذاكرة · ولكن شكا كبيرا داخـل « حنا » أول الأمر فى مقدرته على الاضطلاع بأعباء العـلم ، غير أن طول تفرسه فى نملة كانت تحاول أن ترقى الى قمة مرتفع ، أخـــذت تصعد ثم تسقط ، ولم تزل بين صعود وسقوط ، لا تعــــرف للملل سبيلا ، حتى استطاعت بفضل المثابرة أن تدرك غايتها ـ رأى ذلـك فثارت همته ، وسرعان ما باع قاربه وتفرغ للاشتغال بالعلم ، وبدأ جهوده بدراسة قواعد اللغة ، ومن هنا جاءت تسميته باسم حنـــا الأجرومى « النحوى » (كذا) !

درس الأستاذ « ماكس مايرهوف » مسألة فناء جامعة الاسكندرية ، وخص الكتب العربية بمزيد العناية مبتدئا بتاريخ ابن عبد الحكم « فتوح مصر » ومنتهيا بالخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك ٠ وقد استطاع العثور علي مذكرات شخصية هى بمثابة الوثائق ، أمكنه أن يستخلص منها حقائق أربع ذات بال :

الأولى : عبارة منقولة من كتاب لأبى نصر محمد « الفارابى » مفقود الآن كان يبحث فى أصل كلمة فلسفة تفيد أنه : بعد خضوع البلاد للاسلام ، انتقل مركز العلم من الاسكندرية الى أنطاكية ، وهناك استقر طويلا حتى هلك معظم رجاله غير واحد كان من تلاميذه رجلان هجرا أنطاكية يحملان كتبهما ، أحدهما من مواطنى «حران» ، وهى بلدة فى أعالى أرض الجزيرة العراقية ــ والثانى من «مرو» فى بلاد العجم ، وكان من تلاميذ هذا الأخير « ابراهيم المروزى » و « يوحنا بن حيلان » ٠ أما تلاميذ « الحرانى » فكان منهم القس « اسرائيل » و « الكويرى » (والكلمة على الأرجح تحريف للاسم السريانى « كيوريه » Qiyôrê أو « قيرس » Cyrus) وهذان الأخيران رحلا الى بغداد حيث انكب اسرائيل على ديانته انكبابا ، أما الكويرى فقد ابتدأ يعلم الناس ، فى حين انصرف ابن حيلان بدوره الى أمور الدين ــ واستقر « المروزى » ببغداد وكان من تلاميذه « متى بن يونان » ٠

والثانية : تروى أن « الفارابى » كان نفسه تلميذا ليوحنا بن حيلان ، ويؤكد هذا القول نفسه « ابن سعيد » المؤرخ العربى الأسبانى فى كتابه طبقات الأمم Categories des Nations ٠ ويشير «المسعودى» صاحب « مروج الذهب » الى ذلك عند كلامه عن الفلسفة فى كتاب له مفقود بما معناه : « نحن تكلمنا عن الفلسفة وتحديدها وانقساماتها وذكرنا كيف انتقل مركز العلم (١) من أثينا الى الاسكندرية ، ولأى

(١) « مجلس التعليم » كما كان يسمى ٠

الأسباب كان ذلك الانتقال ، كما انتقل بعد ذلك بزمن ليس بالقصير فى خلافة « عمر بن عبد العزيز » من الاسكندرية الى انطاكية ، ثم الى « حران » فى زمن « المتوكل » العباسى ، وكيف انتهى العلم فى زمن « المعتضد » الى عالمين هما « الكويرى » و « يوحنا بن حيلان » الذى قضى نحبه فى بغداد فى حكم « المقتدر » . ومنهما الى « ابراهيم المروزى » ثم الى « أبى محـــــمد بن كرنيب » و « أبى بشر متى بن يونس » وهما تلميذان للمروزى · وينسب الى « متى » أنه علق على كتب « أرسطو » فى المنطق ، ذلك التعليق الذى لا يزال مرجعـــا من مراجع العصر الحاضر · وتوفى « متى » ببغداد فى خلافة «الراضى» فانتقل العلم الى « أبى نصر محمد بن محمد الفارابى » تلميذ يوحنا الذى كانت وفاته بدمشق فى رجب (٣٣٩هـ/ ٩٥٠م) وهو أشهر من يرجع اليهم فى الفلسفة من علماء العرب ، لم يبزه فيها غير مسيحى من بغداد هو « أبو زكريا يحيى بن عدى » ·

ويميل الدكتور مايرهوف الى الاعتماد على نص المســـعودى أكثر من ميله الى الاعتماد على النص المنسوب الى « الفارابى » ، ذلك لأن نص المسعودى فى هذا الصدد أدق ، من حيث تحديده للزمن الذى تم فيه انتقال العلم من الاسكندرية الى ربوع الشرق الأدنى ·

أما الحقيقة الثالثة التى تهمنا فى التدليل على انتقـــال مركز العلم من الاسكندرية ، فهى نص موجود فى كتاب محفوظ بدار الكتب المصرية رقم (٤٨٣ طب (١)) لعلى بن رضوان ، طبيب الخليفـــة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، ففى الصفحة ٧ سطر ٤ وما بعده ما يفيد أن الأباطرة عارضوا بشدة حركة الاشتغال بالعلوم والفنون الطبية ، وأن الدراسة الطبية فى الاسكندرية كانت قبل الفتح العربى تشـــمل أربع مقالات لابقراط وستة عشرة مقالة لجالين ، وأن تلك الدراســـة استمرت حتى زمن الخليفة الأموى « عمر بن عبد العزيز » ، وفى هذا

(١) النافع فى كيفية تعليم صناعة الطب

يتفق « ابن رضوان » مع غيره من الكتاب فى تحـــــديد الوقت الذى انتهت فيه الدراسات العلمية بالاسكندرية ٠

والحقيقة الرابعة يعيها لنا كتاب « عيون الأنبـــاء » لابن أبى أصبيعة ، وخلاصتها أنه كان بالاســـكندرية فى ولاية « عمــــر بن عبد العزيز » على مصر معـــلم للطب هو « عبد الملك بن أبجـــر الكنانى » وكان يعلم فى الاسكندرية قبل فتح العرب لها ، ثم تحول الى الاسلام على يد عمر بن عبد العزيز والى مصر ، وأصبح له صديقا حميما ٠ ولما أن صارت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز ، وســـكن الشام بحكم ما آل اليه من خلافة المسلمين ، تحول مركز العلم الى انطاكية ، فحران ، وبقيت الصلة وثيقة بين الخليفة و « ابن أبجـــر الكنانى » ، الذى أصبح طبيبا خاصا له ٠

وهذه الرواية وان كانت تتفق مع ما يذكره بعض المؤرخين ، الا أن بها اضطرابا ظاهرا ، هو ان « ابن أبجـــر » أدرك العصرين البيزنطى والاســـلامى ، وعاش حتى خلافة عمر بن عبد العـــزيز فى نهاية القرن الأول الهجرى ، ولو صح هذا لنيف عمر « ابن أبجر » على المائة ٠ وفضلا عن ذلك فالرجل يحمل اسما عربيا بحتا ، وينتسب الى قبيلة « كنانة » ـ التى لم تهاجر قط الى مصر ٠

وتكاد تتفق المصادر الأربعة المتقدمة على أن مركز الثقـــافة اليونانية ظل بالاسكندرية مدة من الزمن بعد الفتح العربى ، وأنـــه انتقل منها مهاجرا الى انطاكية وحران حوالى سنة ٧١٨ ميلادية فى خلافة « عمر بن العزيز » ، وأن ذلك لم يكن بدافع القضاء على مكانة الاسكندرية ، وانما كان بحكم انتقال الخليفة الى مقر حكمه فى الشام ، ولم تكن دمشق بأصلح الأماكن لتتوطن فيها الحركة الثقـــافية ، لأن العلم اليونانى كان قد وجد سبيله قبل هذا الوقت بزمن الى معقلين هامين ، هما انطاكية وحران ٠

الفصل السادس عشر

النقل عن جامعة الاسكندرية
نقل اليعاقبة والنساطرة والسريان

الاختلاف بين المسيحيين على طبيعة المسيح ـ اليعاقبة والنساطرة وأثرهما فى الاذاعة والنقل ـ امتزاج الفلسفة بالدين ـ المذهب الاسكندرى فى الفلسفة وانتشاره فى العراق وفارس ـ دراسة العرب له ـ أثره فى التصوف الاسلامى ـ المسيحيون يخرجون كتبا دينية دعامتها الأفلاطونية الحديثة ـ بعض النقلة من السريان ـ السريان هم الوسطاء بين اليونان والعرب ـ النساطرة ونقل الطب الاسكندرى ـ جامعة حران تحتفظ بالعلم اليونانى حتى عصر النقل الأعظم ٠

انقسم النصارى فيما بينهم شيعا اختلفت على طبيعة المسيح عليه السلام ، فكان منهم « اليعاقبة » الذين انتشروا فى مصر والنوبة والحبشة ، و « النساطرة » الذين انتشروا فى العراق وفارس وانطاكية ، لكل جماعة رأيها فى المسيح : فاليعاقبة يعتقدون أن المسيح هو الله : امتزج الانسان والله وكونا « طبيعة واحدة » ـ أما النساطرة فيعتقدون أن للمسيح طبيعة متميزة تمام التميز عن طبيعة الاله : فطبيعة المسيح « ناسوتية » (بشرية) صرف ، وطبيعة الاله ، « لاهوتية » صرف ، ولا امتزاج بينهما البتة ٠

وأدى هذا الانقسام الى جدال شديد فى هذه المسألة وغيرها من المسائل المتفرعة عنها ، ولجأ كل فريق الى المحاجة والمساجلة ، يريد التفوق على الفريق الآخر ٠

وكان اليعاقبة بحكم وجودهم فى مصر ألصق بالفلسفة اليونانية المصرية ، وبعبارة أخرى ألصق بفلسفة « أفلوطين » الاسكندرى ، سارع رجال منهم الى الاستفادة منها فى تقوية حججهم أمام مخالفيهم من النساطرة والوثنيين على السواء ٠ واعتنق بعض رجال الدين المسيحى مذهب الاسكندرية الفلسفى ، كالأب ٠ « أوغسطينوس » فبدأ بذلك عصر جديد امتزجت فيه الفلسفة بالدين ، تؤيده وتناصره ، وأصبحت الاسكندرية الوسط الطبيعى لهذا الامتزاج . ففيها اجتمعت آراء الغربيين والشرقيين على ما بينهما من تباين ، وحتمت الضرورة هذا الجمع بين آراء الشرقيين ، ومعظمها الهام وتصوف ٠ وآراء الغربيين ، وقوامها التفكر والتأمل ـ ووجد المسيحيون فى فلسفة الاسكندرية اجتماع هذين العنصرين معا ٠ وانبعث عن الاسكندرية مذهب « الأفلاطونية الحديثة » قويا من جديد ، اعتنقه اليعاقبة وكأنما أخذوا على عاتقهم نشره فى الشرق الأدنى ، فانتشر بادىء الأمر فى « أنطاكية » ، حيث كثر جدل اليعاقبة مع النساطرة ، ومن ثم تسرب المذهب الى نساطرة الموصل والعراق ، ووجد سبيله الى فارس ٠ وجاور العرب فى العصر الأموى فكان لهم به علم ـ فلما أن مالت نفوسهم الى تعرفه ، لما فيه من تصوف ظاهر ، أخذه فلاسفة المسلمين من المعتزلة والمتصوفة ودرسوه، وقووا به حركاتهم ـ وهكذا كان لبعث هذا المذهب أثر واضح فى الاسلام ، كما كان له أثره البين فى المسيحية ، فى مصر ، وفى خارجها ٠

« ولما انتصرت المسيحية ، وجاء « جستبيان » أغلق المدارس الأثينية ، واضطهد الفلاسفة ، فمنهم من فر ، ومنهم من تنصر . وأخرج المسيحيون كتبا فى الأفلاطونية الحديثة ، مصبوغة بالصبغة النصرانية ، ككتاب « ديونيسيوس » Dionysius الذى ألفه « أفلوطينى مجهول » ، فى منتصف القرن السادس للمسيح أدعى أنه من تلاميذ بولس الحوارى ، وقد

شرح فيه أسرار الألوهية ودرجات عالم الملكوت والكنيسة السماوية على المذهب الأفلوطينى الاسكندرى ، وصار من ذلك الوقت عمدة للمسيحيين - ثم تطرق هذا المذهب الى الاسلام ، عن طريق فريق من المعتزلة والحكماء والمتصوفة ، ومنهم أخذت جل أفكارها جماعة « اخوان الصفا » .

قام السريانيون بنصيب كبير فى نقل آراء الاسكندريين فى الفلسفة لألمامهم باليونانية والعربية معا ، واليهم يرجع الفضل فى ذيوعها بعد اليعاقبة الذين أثاروها لأول مرة فى جدلهم الدينى مع النسطوريين ، أذاعوها فى العراق وما جاورها - وأشهر الناقلين من اليونانية الى السريانية « أبو الفرج بن العبرى » مؤلف كتاب « مختصر الدول » الذى وفد فى وقت ما على الاسكندرية ، ودرس فيها بعض العلوم اليونانية ، و « ابن الناعمى » الذى نقل من السريانية الى العربية كتاب « فورفيروس الصورى » (بروفيرى) ، أحد تلاميذ أفلوطين الاسكندرى ، وقد طبع هذا الكتاب فى برلين ١٧٨٢ م .

وظل السريان حملة للعلم اليونانى الى ما بعد تمام انتشار الاسلام فى الشرق الأدنى . وبقيت « حران » معقل الدراسات اليونانية من رياضة وفلك وفلسفة حتى العصر العباسى ، حيث اشتغل كثير من علمائهم نقلة للمأمون من اليونانية والسريانية الى العربية . وكان للسريانية فضل حفظ مادة الكتب اليونانية التى انعدم أصلها . وعلى ترجماتهم لكتب الفلسفة اعتمد العرب عند أول اشتغالهم بهذا العلم ، ولقد كان السريان نقلة مدققين فى كل ما نقلوه من علوم المنطق والطب والطبيعيات والرياضيات ، أما الروحانيات فقد نقلوها نقلا معدلا بحيث أصبحت تلائم تعاليمهم المسيحية ، وهم فى هذا النقل جعلوا من أفلوطين أحد مترهبيهم ، وأسكنوه فى البرارى منعزلا يتعبد فى معبد أقامه لنفسه (كذا) - أما المسلمون عندما راحوا ينقلون عن أفلوطين فقد اسقطوا من الروحانيات

اليونانية كل ما يخالف تعاليم الاسلام ، غير أنهم حرصوا على نسبة المذهب الى صاحبه « أفلوطين » الاسكندرى الذى أطلقوا عليه اسم « الشيخ اليونانى » ٠

* * *

ويعتبر « سرجيوس الرسعنى » المتوفى سنة ٥٣٦ للميلاد من أشهر الناقلين ٠ ترجم عن اليونانية كثيرا من الكتب ، أخصها رسائل لأرسطو وفورفيروس وجالينوس ، ووضع فى علم المنطق رسالة ناقصة وصلتنا منها مقالات فى الجنس والفصل ، والايجاب والسلب ، والمقولات العشر ٠ وله غير ذلك رسالة فلكية تبحث فى حركة الشمس وفى تأثيرات القمر ٠

وهو عند اليعاقبة والنسطوريين عميد الباحثين فى الطب اليونانى والمنطق والفلسفة ـ ذاعت كتبه بينهم ذيوعا عظيما ٠

ومنهم غير « الرسعنى » ، « حنين بن اسحق » ، « وابن أخته » ، « وابن الناعمى » ٠ ويتبين فضل النساطرة فى نقل علم الطب بوجه خاص ، وهم حلقة الاتصال بين الطب اليونانى والعرب ٠

الفصل السابع عشر

فيما نقل العرب عن الاسكندرية

الطب ـ الكيمياء ـ الفلسفة ـ الهندسة ـ الجبر ـ الجغرافية ـ الفلك

فى الطب والكيمياء

كان للطب شأن عظيم فى عصر البطالمة ، وكانت مباحثه متنوعة عندهم ۰ وأنجبت الاسكندرية أشهر جراحين فى العالم القديم قاطبة ، هما « هيروفيلوس » و « ايروستراتس » ، وعلى أيديهما تقدم فن التشريح تقدما عظيما فى المتحف الاسكندرى ۰

ولما أدرك الضعف جامعة الاسكندرية ، وشغلت عن متابعة التقدم العلمى بالفلسفة فى عصورها المتأخرة ، انحط شأن الطب واعتراه قصور بين ، تناول مادته وطريقة تدريسه ۰

وصادف العرب عند فتحهم للاسكندرية ، آخر ممثل للمدرسة الطبية ، وهو « بولس الأجانيطى » (١) يلقى محاضراته التى لم تتعد ست عشرة مقالة مأثورة عن « جالينوس » ، ومقالات جالينوس هذه كانت تعتبر الحجة لدارسى الطب جميعا ۰ ولم يتعد منهج دراسة الطب بجامعة الاسكندرية فى أخريات أيامها تلك المقالات ۰

وهكذا صادف العرب الطب الاسكندرى فى آخر مراحله ، ولم يدركوا شيئا من الآثار الطبية القديمة لتقادم العهد عليها ۰

---

(١) Paul of Aeginae

وأول ما نقل العرب من طب الاسكندرية مقالات جالينوس هذه ، ومأثور من حكمة « بقراط » ، وخلاصة لآراء « بولس الأجانيطى » ، ولا سيما فى فن التوليد ٠

ويختلط العلم عادة فى عصور الضعف بكثير من الخرافة ـ والمرجح أن يكون العرب قد نقلوا الطب الاسكندرى مشوبا بالتنجيم والشعوذة والسحر ، فى عصر انفسح فيه المجال لكل هذه الأباطيل ـ وسرت هذه الروح ، روح الضعف ، من جامعة الاسكندرية الى جامعة « «بادوا » الايطالية التى أخذت نظامها عن جامعة الاسكندرية ٠

* * *

وللاسكندريين مباحث قيمة فى علم الكيمياء ، ارتبطت بادىء أمرها ارتباطا وثيقا بالطب ، لما لها من وثيق الصلة به ، ثم عادت فتأثرت بالروح التى سادت فى عصر ضعف الجامعة ، فامتزجت بالشعوذة ، ونقلها العرب بصفتها هذه ، وزادوا عليها من مباحثهم الخاصة ، وسخروها لخدمة الطب ، فى استنباط العقاقير ، كما سخروها لكشف حجر الفلاسفة الذى زعموه يحول جميع المعادن الى ذهب !

ومن أوائل الناقلين للطب الاسكندرى ، الطبيب « ابن أبجر الكنانى » الذى استخدمه الخليفة « عمر بن عبد العزيز » فى نقل الطب الى العربية ، ومنهم كذلك « سرجيوس الرسعنى » ومن أشهرهم فى عصر النقل الأعظم أبو زيد « حنين ابن اسحق العبادى » المتوفى ٨٧٦م ، وهو نسطورى جال يجمع كتب الطب اليونانى ، وانتهى اليه كثير من طب الاسكندريين ، ثم استقر فى « بيت الحكمة » فى بغداد ، وترجم « جالينوس » « وأبقراط » الى العربية ٠

ولم تقف جهود « حنين » فى الترجمة عند حد الطب ، فقد ترجم أيضا بعض مؤلفات « اقليدس » و « أبولونيوس » و « أرشميدس » فى الهندسة والطبيعة ٠

فى الفلسـفة

لعل أحب الأشياء الى العرب هو هذا الجـانب الفلسفى من علوم الاسكندرية ، المعروف « بالأفلاطونية الحديثة » لأنها فلسـفة تصوف ، والعرب بطبيعتهم يميلون الى التصوف ويحبون مباحثه .

نقل اليعاقبة هذا الضرب من الفلسفة الى سوريا وغيرها من بلاد الأمبراطورية ، مستعينين به على نشر مذهبهم الدينى ، فوضعوه بهذا على مرأى من العرب فى عصر ازداد فيه تشـوق هؤلاء الى الاطلاع على آثار الأعاجم .

ونقل هذه الفلسفة الى السريانية « ابن الناعمى » فى ترجمة غير دقيقة خلطت خلطا ظاهرا بين أفلوطين شـيخ هـذا المذهب وأفلاطون الفيلسوف اليونانى ـ وبهذا الخلط سبب « ابن الناعمى » للفارابى متاعب جمة عندما حاول الفارابى أن يوفق بين تعاليم أفلوطين باعتباره « أفلاطون » وتعاليم « أرسطو » .

ونتج عن دراسة العرب ونقلهم لأرسطو أن اكتسبوا أسلوبه المنطقى فى الجدل ـ كما نتج عن دراسـتهم ونقلهـم للأفلاطونية الحديثة ، أن اكتسبوا روحها التصوفية ، فكان من أثر « أرسطو » عندهم نشوء مذهب « الاعتزال » ، كمـا كان ومن أثر دراسـة الأفلاطونية الحديثة ، تقوية روح « التصوف » الاسلامى .

وللعرب أسلوبهم الخاص فى نقل الفلسفة ـ من ذلك ما نقله الشهرستانى عن الشيخ اليونانى (١) أفلوطين فى فصـل بسط فيه

---

(١) ليس افلوطين يونانيا ـ انما هو مصرى ولد فى أسيوط ، ولعل الخلط الذى وقع فيه « الشهرستانى » راجع الى الخطأ الذى شاع فى وقت ما ، من أن أفلوطين هو أفلاطون .

فكرته فى الاله والعقل والمادة ، وأورد فيه كثيرا من الرموز الفلسفية التى آثرها لشرح الفكرة (١) ·

فى الهندسة

بلغت الهندسة شأوا عظيما على يد « اقليدس » الرياضى الاسكندرى (٣٠٦/٢٨٣ ق·م) مؤسس المدرسة الرياضية بالاسكندرية · والمعروف أن « اقليدس » وضع فى هذا الباب ثلاثة عشر كتابا ، عصفت يد الزمن ببعضها ، وأبقت على البعض الآخر (٢) · وقد ترجم هذا البعض الى العربية ، وعرف باسم « الأصول » Elements ، وله غير الأصول مصنفات أخرى ·

عنى العرب بنقل « اقليدس » وظهرت أول ترجمة عربية لمؤلفاته فى عهد أبى جعفر المنصور ، ترجمها « أبو زيد حنين بن اسحق العبادى » وترجم معها رسالة « أبولونيوس » فى المخروطات وبعض آثار ارشميدس فى القوانين الطبيعية ·

ثم نقلها لهرون الرشيد « الحجاج بن يوسف بن سطر » الذى نقلها مرة ثانية للمأمون ·

---

(١) ومن رموزه وأمثاله التى توضح أسلوبه الفلسفى :

« أن أمك رءوم ، لكنها فقيرة رعناء ، وأن أباك لحدث ، لكنه جواد مقدر · يقصد بالأم الهيولى وبالأب الصورة ، وبالرءوم انقيادها ، وبالفقر احتياجها الى الصورة ، وبالرعونة قلة ثباتها على ما تحصل عليه ـ أما حداثة الصورة فهى اشراقها بملابسة الهيولى ، أما جودها فالمقصود به أن النقص لا يعتريها من قبل ذاتها ، فهى جواد ولكن من قبل الهيولى » ـ عن « الملل والنحل » ·

(٢) خمسة منها فى مكتبة « ليدن » أخذت لها صور فوتوغرافية محفوظة بدار الكتب المصرية ·

وترجمها أيضا « ناصر الدين الطوسى » و « ابن الهيثم » وعن هذه الترجمات العربية نقلت آثار « اقليدس » الى اللاتينية . واشهر ترجمة لاتينية لأقليدس هى ترجمة « كماندينوس » Commandinos. وأول ترجمة انجليزية لأقليدس قام بها سير « هنــــرى بلنجستى.» Billingstey . عمدة لندن ١٧٥٠ م ٠

وتسابق الأفرنج فى نقل « اقليدس » من « العربيــــة » ، بلغ عندهم الشغف بنقله الى حد أن تنكر « اثلارد » Athelhard of Bate فى زى طالب عربى ، ونقل الى اللاتينية نسخة عربية كانت فى بعض مكتبات الأندلس ٠

وطبعت جامعة اكسفورد (١٧٠٣م) مؤلفات « اقليــــدس » الاغريقية واللاتينية ، طبعها « دافيد جرجورى » David Gregory ثم أعيد طبعها بالأغريقية مرة ثانية (١٨١٤/١٨١٨م) ، طبعهـــا « بيرارد » (Peyrard's Greek Text) فى ثلاثة مجلدات ٠

وبقيت مؤلفاته الهندسية أكثر من ألفى عام خالدة على الدهر ، لم تظهر فى خلالها أية حركة مناهضة ، الا فى منتصف القرن التاسع عشر ، حين ظهرت فى انجلترا حركة قصدت الى الغض من شـأن الهندسة الاقليدسية ٠ ولا تزال هندسة « اقليدس » قيمة حتى وقتنـا هذا ــ يدل على ذلك أن ملخصـا لبعض هندسة اقليــــدس ما يزال يستعمل الآن ككتـــاب مدرسى فى المدارس الانجليزية وغيرها من مدارس العالم ٠

فى الجـبر

من أساطين الرياضة فى مدرسة الاسكندرية «ثيون» Theon وابنته الرياضية النابغة « هيباشيا » Hypatia ٠ علق ثيون على ما وضع « اقليدس » فى الهندسة ، وما كتب « كلوديوس بطليموس » فى الفلك ، واشتركت معه في هذا العمل الجليل ابنته ٠٠

وعنى « ثيون » وابنته « هيباشيا » بعلم الجبر الذى وضعه « ديوفابنتس » من قبل · وديوفانتس هذا رياضى يونانى فى نظر البعض ، وعلى هذا تكون نشأة الجبر يونانية تبعا ، وهو فى نظر البعض الآخر اسكندرى ، عاش فى القرن الخامس الميلادى ، وعلى هذا الزعم تكون نشأة علم الجبر اسكندرية متأخرة ، لا يونانية قديمة ·

ومهما يكن من شىء ، فقد نشأ الجبر متأخرا عن الهندسة مراحل واسعة ، فقد عرف التحليل فى الهندسة قبل أن يعرف فى الجبر ، وظل علم الجبر متثاقلا حتى أدركه العرب فنقلوا ما أثبته فيه ديوفانتس من ناحية ، ووضع « محمد بن موسى الخوارزمى » فى عصر المأمون مقالة مبتدعة فيه ، نقلت الى اللاتينية فى عصر النهضة الأوربية · وما تزال النسخة العربية لمقالة محمد بن موسى ترى فى احدى مكتبات اكسفورد حتى الآن ·

وعلى هذا يكون العرب قد أضافوا الى الجبر شيئا ونقلوا شيئا آخر · وربما كانت هذه المقالة الجبرية التى وضعها « الخوارزمى » نقلا عن الهنود ، والمعروف أنه أخذ كثيرا عن هؤلاء وكانوا على دراية تامة بالجبر والحساب ·

وفى نهاية القرن العاشر للميلاد ، استطاع « محمد أبو الوفا » أن يتناول كتاب « ديوفانتس » فى الجبر بالنقل والتعليق · وبعد « الخوارزمى » و « أبى الوفا » ركدت ريح هذا العلم ·

وينسب الى محمد بن موسى الخوارزمى أنه أول من نشر بالعربية مصطلح هذا العلم واسمه الذى نقل واستعمل فى اللغات الأوربية ، فى مؤلف له كان محفوظا فى خزانة كتب المأمون · وعن « الخوارزمى » ترجم الجبر الى لغات أوروبية مختلفة ــ تناول مؤلفه هذا الجمع والطرح والضرب الجبرى ، والمعادلات الآنية من الدرجة الثانية ، والجذور ، ورفع الكميات ذات الحد الواحد ·

وأول من ربط الجبر بالهندسة ، وبرهن على امكان استخدامه فى الحلول الهندسية « ثابت بن قرة » من رياضيى العصر العباسى ·

وكتب العرب بعد ذلك فى علم الجبر ، ولكنهم لم يضيفوا شيئا الى مجهودات « الخوارزمى » و « أبى الوفا » و « ابن قرة » ·

فى الجغرافيا والفلك

أشهر ما كتب فى الجغرافيا والفلك فى الاسكندرية ، ما وضعه فيهما « اراتوستنيز » و « كلوديوس بطليموس » ·

وأول ما نقل العرب منهما كان فى زمن « أبى جعفر المنصور »، حين ترجم « المجسطى » Almageste ، أعظم مؤلفات بطليموس ، الى اللغة العربية · ومما يؤسف له أن الترجمة العربية لكتاب « المجسطى » ليست موجودة فى أية مكتبة من مكتبات الغرب أو الشرق (١) ·

وضع « محمد بن موسى الخوارزمى (٢) » الفلكى الشهير ، وأمين دار كتب المأمون الذى تقدم ذكره فى علم الجبر كتابا فى الفلك استقاه من « بطليموس » ، وفيه يتفق مع أستاذه فى مسألة درجات الطول ودرجات العرض · ويعرف كتاب « الخوارزمى » هذا باسم « السندهند » ، وهو خلاصة لآراء « كلوديوس بطليموس » ــ وكان هذا الكتاب موضوع الدراسات الجغرافية والفلكية على طول

---

(١) وأهم ما كان يحتوى « المجسطى » زيج زمنى ، وحساب لحركات الشمس والقمر ، وجداول بأسماء النجوم الشمالية ، وحركات الكواكب ·

(٢) والخوارزمى هو الواضع لعلم اللوغاريتم Algorithme والكلمة تحريف لاسمه هو ــ وفائدة اللوغاريتم فى الجبر معروفة ، وبه أضاف الخوارزمى الى مادة الجبر اضافة ذات قيمة ·

العصور الوسطى ، وهو المرجع الوحيد الباقى للآن من آثار بطليموس ٠

وأضاف « الخوارزمى » الى الجغرافية اضافة عظيمة ، فله فيها نظرية تقسيم الكرة الأرضية الى سبعة أقاليم مناخية متباينة ٠

ومنذ أخذ « الخوارزمى » عن بطليموس ، بدأ فلكيو العرب يشتغلون بوضع علم الهيئة ، ويبحثون فى الأفلاك والنجوم ، فوضع « الفرغانى (١) » مؤلفا يحتوى على ثلاثين مبحثا فى الهيئة ، والأفلاك ، وحركات النجوم ، أساسها كلها معارف بطليموس الفلكية ٠

وتناول « البتانى (٢) » بعض مقالات بطليموس فشرحها ، ووضع « زيجا » يعرف باسم « الزيج الصابى » وهو أدق من زيج بطليموس المثبت فى « المجسطى » ٠

وترجم « زيج البتانى » الى اللاتينية ، وهو محفوظ فى مكتبة « الفاتيكان » ومنه نسخة أخرى فى مكتبة الأسكوريال فى أسبانيا ٠

وتعتبر الحقائق التى قررها البتانى فى الفلك أدق حقائق وصل اليها الفلكيون حتى العصر المتأخر ٠ وقد حسب مقدار ميل دائرة فلك البروج ، وقرر أنه ٣٥ ٢٣ ، وهو لا يختلف كثيرا عما قرره أخيرا العالم الفلكى « لالاند » وهو ٤١ ٣٥ ٢٣ ــ كما حقق أيضا طول السنة الشمسية ، وخالف فى تقديره بطليموس ببعض المخالفة ، ولم يسلم تحقيقه من الخطأ بسبب اعتماده على أرصاد الغير ٠

---

(١) أحمد بن محمد الفرغانى ، أحد العلماء المشتغلين بالنجوم فى عصر المأمون ، ومؤلف كتاب « المدخل » ٠

(٢) محمد بن جابر بن سنان ، أحد المشهورين برصد الكواكب وحساب النجوم فى العصر العباسى ٠

وجاء بعد « البتانى » كثيرون اشتغلوا بمسائل الفلك والجغرافية ، منهم « ابن يونس المصرى » ، صاحب الزيج الحاكمى الذى اشتغل بالفلك فى عصر الحاكم بأمر الله ، و « البيرونى » المؤرخ المعروف ، صاحب كتاب « التفهيم » ، وكتاب « القانون المسعودى » الذى وضعه بأمر من السلطان « مسعود بن محمد ابن سبكتكين » الغزنوى .

واشتغل فريق من فلكى العرب بقياس الدرجة الأرضية ، متخذين من معلومات « اراتوسثنيز » أساسا لأبحاثهم ، وقدرها بعضهم بستة وخمسين ميلا ، والبعض الآخر بستة وخمسين ميلا وثلثين ، وفريق ثالث قدرها بسبعة وخمسين ميلا ـ اختلفوا فى تقديرها بسبب افتقارهم الى آلات الرصد الدقيقة ، وكانت المحاولة الأولى لقياسها فى عصر أبى جعفر « المنصور » .

وممن اشتغلوا بقياس الدرجة الأرضية « سناد بن على » و « خالد بن عبد الملك » ، و « على بن عيسى الأسطرلابى » و « على ابن البحترى » فى عصر المأمون ـ وكانت برية (١) « سنجار » مسرح أعمالهم الفلكية .

وهكذا كانت جهود بطليموس و « اراتو » الاسكندريين أساسا لكل مباحث العرب فى علمى الفلك والهيئة .

وقدر لعلم بطليموس وارتوسثنيز أن ينتقل مندمجا فى أبحاث العرب الى أوربا ، حيث ترجم الى اللاتينية والأغريقية ، وحفظ فى مكتبات الجامعات ، حتى تناولته يد البحث الحديث ، فاستفادت منه استفادة كبرى فى وضع « الفلك الحديث » .

انصرف العرب فى العصر العباسى ، بفضل مؤازرة الخلفاء الى النقل من اللغات الأعجمية : من الهندية والفارسية والسريانية ، واليونانية ، فاجتمعت لديهم بهذا ذخيرة علمية ، لم يسمع بمثلها الا

---

(١) بكسر الباء وتشديد الراء مع كسرها .

فى عصر النهضة الأوربية ، واكتسب العرب من هذا النقـل ملكات خاصة ، استطاعوا بها أن يضيفوا الى كل ما نقلوا شـــيئا جديرا بالتقدير ، خليقا بالاعجاب ٠

واهتم الأوربيون فى عصر أحياء العلوم بهذا التراث العــلمى القيم ، فنقلوا منه الشىء الكثير الى اللاتينية والاغريقيــة ، وعنيت الجامعات الأوروبية فى أنحاء القارة بالتسابق الى اقتناء المخطوطات العربية أو ترجمتها ـ وعنى المستشرقون أخيرا بنقل هذه الآثار كل الى لغة بلاده ٠

وحفلت دور الكتب فى الحواضر الاسلامية بهذه الذخـــائر زمنا ، فى بغداد ، والقـــــاهرة ، ودمشق ، ونيسابور ، وقرطبة ، وغيرها ، ثم شاعت منها فى أنحاء أوربا بطريق النقل ، ونزحت الى الأندلس خاصة طوائف من محبى العلم ، من ايطاليا ، وجرمانيــا ، وفرنسا ، وبلاد الانجليز ، نهلت من علومها العربية أو المعربة ، ثم عادت الى مواطنها ، وعرضت ما تلقفت من كنوز العلم على جماهير الراغبين فيه ٠

فانظر كيف كان فضل الاسكندرية على العـــرب ، وكيف كان فضل العرب على أوربا الحديثة ٠

الفصل الثامن عشر

فى الاقتباس والنقل غير المباشر

نقل العرب ـ الاقتباس من الاسكندرية ـ جمع المخطوطات القديمة للمدارس الاسلامية ـ تسرب كتب مكتبة الاسكندرية الى أوروبا ـ تسرب العلم الاسكندرى اليها ـ وسائل ذلك التسرب ـ تفصيل ذلك ـ نقل النظام الجامعى ونشأة الجامعات الأوروبية ٠

منذ أسس البطالمة فى الاسكندرية جامعة ، ومنذ تركزت الثقافة الهلينية فيها ، أمها طلاب العلم من كل صوب وحدب ، لدراسة الطب والرياضيات والفلسفة والفلك وغيرها من شعاب المعارف الانسانية ٠

وفى عصر قوة الجامعة ، كانت « أثينا » ما تزال عامرة بالفلسفة ولم يكن بد لمحبى العلوم من الاستماع الى أساتذة الاسكندرية ٠ وفى عصر ضعفها كانت ريح الزمن قد عصفت بكل ما فى « أثينا » من علم وفلسفة ، ورغم هذا الضعف الذى منيت به جامعة الاسكندرية على أثر دخول المسيحية ، ظلت وحدها فى العالم القديم قاطبة منهل العلم حتى القرن السادس الميلادى ٠

وأم الاسكندرية فى هذا العصر الأخير راغبون فى العلم من كل جنس ، وأفادوا من علمها الشىء الكثير ٠ وكان من هؤلاء الوافدين على جامعة الاسكندرية فى عصرها المتأخر ، نساطرة من انطاكية ، وعرب من بغداد ، ويونانيون وايطاليون ، تزودوا جميعا بثروة طيبة من اللغة الأغريقية ـ لغة العلم والثقافة حينذاك ٠ نقل هؤلاء عن الاسكندرية نقلا مباشرا ، وأذاعوا كل ما نقلوه فى بلادهم ، فخفقت الوية العلم

على ربوع البحر الأبيض الشرقى ، وعمرت خزائن « بغداد » بنفائس اليونان عامة ، والاسكندرية خاصة ، وأخذ العرب يضـــيفون الى ما نقلوا من المعارف القديمة ، ويوفقون بين شواردها ، فرادى وجماعات ـ وأنشأوا المعاهد العلمية لتدريس العلوم فى العصر الاسلامى ، وأول من أنشأ المدارس فى الاسلام « نظام الملك » الطوسى ، وزير ملكشاه السلجوقى ، فى أواسط القرن الخامس الهجرى ، (الحـادى عشر الميلادى) ، وأقدم هذه المدارس جميعـا « المدرسة النظاميـــة » فى بغداد ، بناها « نظام الملك » وجعلها مركزا لدراسة العلوم الدينية والكلامية ، وكان لهذه المدرسة وغيرها من المدارس فى مصر وسوريا والأندلس شأن فى العالم الاسلامى فى العصور الوسطى يشـبه شأن جامعات « سالرنو » و « بولونيا » و « بادوا » الايطالية ، وتضافرت جهود هذه المعاهد ، كل فى زمنه وموطنه ، على الاحتفاظ بالثـروة العلمية القديمة المنقولة عن اليونان والهنود والفرس والاسكندريين . الى أن أدركها العصر الحديث ، فالقى عليها من نوره ضوءا وهاجا ، واستغلها فى تكوين المعارف الحديثة ٠

وعلى نحو ما فعل « نظام الملك » الطوسى ، أسس أنصـــار العلم المدارس فى كل ناحيـــة من نواحى الدولة الاســـلامية ، فى الأندلس ، وفى اشبيلية وقرطبة وغرناطة وطليطلة ، وفى مصر ، فى القاهرة ، والاسكندرية ـ وفى الشام ، فى دمشق وحلب وحمـــاة وحمص وبعلبك ٠

أسس العرب « دور الكتب » بعد أن توفر لهم من الكتب عـــدد يجل عن الحصر ، ومنها « بيت الحكمة » فى بغـــــداد ، دار كتب الرشيد والمأمون ، ودار الكتب فى قرطبة ، وهى التى أنشأها « الحكم ابن الناصر » ، وكانت لا تقل عن دار كتب بغداد شأنا ، ويقـال أن « الحـكم بن الناصر » كان يرســل التجـــار فى طلب الكتب من كل أسواق العالم المعروف ٠ وفى مصر كانت قصور الموسرين حافـلة

بنفائس الكتب ، وكانت كذلك دار كتب الحاكم الفاطمى التى تسمت أيضا باسم « بيت الحكمة » ٠

* * *

تقدم بنا ذكر موجز لأشهر ما نقل العرب من علوم الاسكندريين، وليس ثمة شك فى أن ما نقلوه ظل محفوظا فى خزائنهم الى أن نقله عنهم الافرنج ، من مكتبات الأندلس بادىء الأمر ، ومن بلدان الشرق الأدنى ابان الحروب الصليبية ، وعن غير هذين السبيلين ، بطريق تجار الكتب ، والباحثين عنها من المستشرقة وهواة القديم ٠

وعلينا الآن أن نناقش الوسائل الأخرى التى يمكن أن يكون قد انتقل بهـــا تراث الاسكندرية الى أوربا ٠ ونرجـــح أن تكون هـــذه الوسائل منحصرة فى ثلاثة أمور :

الأول ـ ما يمكن أن يكون قد تسرب الى « بيزنطة » و « روما » من تراث الاسكندرية مدة الهدنة التى منحت للروم ، عند تســـليم الاسكندرية للعرب ٠

الثانى ـ ما انتهى الى بعض الجامعات الأوربية من هذا التراث بطريق النقل والاقتباس ، وأعلى الجامعات كعبا فى هذا المضمار ، الجامعات الايطالية ٠

الثالث ـ ما يمكن أن تكون قد احتوته الأديرة الأوربية من آثار العلم الاسكندرى عامة والفلسفة خاصة

أما عن الأمر الأول ـ فالمطلع على شروط تسليم الاسكندرية للعرب ، يرى أن العرب قد تهادنوا مع الروم أحد عشر شهرا ، سمح فيها للروم بنقل متاعهم بحرا الى القسطنطينية ، ولا يكاد المرء يتردد فى الاعتقاد بأن كثرة هائلة من كتب الاسكندرية ، ممـــا كان مملوكا الأفراد ، أو مخبوءا فى الأديرة والكنائس ، لابد أن تكون قد تسربت الى أوربا ، مع ما خرج من المدينة من متاع مدة الهدنة ٠

يؤيد هذا الرأى ما هو شائع الآن بين مؤرخى الفلسفة عموما ، من أن أساس الحركة الفلسفية « المدرسية » ، يلتمس عادة فى جهتين : احداهما بيزنطة والثانية الأندلس ـ ولو عرفنا أن هذه الحـــركة الفلسفية تعتمد فى جوهرها على أساس اسكندرى من فلسفة أفلوطين وأمونياس سكاس ، لاتجه الفكر بنا الى أن الفتح العــربى لابد أن يكون قد دفع بنصيب وافر مُن تراث الاسكندرية ، بما فيه من فلســفة الأفلاطونية الحديثة ، الى بيزنطية وغيرها من جهات أوربا ٠

أما عن الأمر الثانى ـ فقد كانت الاسكندرية ، مستقر العلم منذ نشأت الجامعة فيها ، واستمرت كذلك زمنا طويلا حتى الفتح العربى، وكان العالم الغربى وثيق الصلة بالاسكندرية طول هذه المدة ، ينقل عنها نشاطها الفكرى ، وكانت أكثر دول الغرب أخذا عنها ، ايطاليا بحكم ما كان بين ايطاليا ومصر من العلاقات القديمة ، وبعــد زمن أصبحت جامعة « سالرنو » الايطالية أوثق الجامعات الايطالية صلة بالعلم الاسكندرى ، ورثت الكثير من ثروتها العلمية ، بطريق الأخذ غير المباشر ٠ والمعروف أن جامعة « بادوا » وغيــرها من جامعات ايطاليا قد تأثرت على نحو ما بروح الاسكندرية العلمية فى عصورها الأخيرة ، وهى روح مشوبة بشىء غير قليل من التنجيم فى ثنــايا الفلك ٠ والخرافات فى ثنايا الطب ـ وكان شأنها فى هذا النقــل المشوب ، شأن العرب فى نقلهم عنها ، ومهـــما يكن من أمر تلك الشوائب التى لحقت بالعلم الاســكندرى ، فقد أمدت الاســكندرية أوربا بغذاء فكرى طيب ، فى وقت كانت فيــــه الجامعات الأوربية الناشئة أحوج ما تكون الى مادة علمية ٠

وكانت فلسفة أرسطو وأفلاطون ، وآراء أفلوطين فى الفلسفة والتصوف ، وغير هذه وتلك مما انتهى الى الجامعــات الايطاليــة سببا فى انتعاش الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ، الأمــر الذى كان من أجل نتائجه أن غــدا العــلم فى متناول الجماهير ، بعد أن كان وقفا على الآباء المسيحيين فى الأديرة والكنائس ٠

وما تزال بعض مؤلفات الاسكندريين منذ ذلك العهد موجودة فى مكتبة « الفاتيكان » وغيرها من المكتبات الأوربية ، فى « ليدن » و « الاسكوريال » وغيرهما ، بالشكل الذى صاغه فيها المترجمون العرب ٠

أما عن الأمر الثالث ـ فالمعروف أن مذهب الأفلاطونية الحديثة خرج من الاسكندرية ، وتشكل فى أثينا بشكل وثنى متطرف ، وفى سوريا وغرب ايران امتزج بالزرادشتية والمسيحية الشرقية ٠ وفى روما كان أقل اعتمادا على التصوف وأقل غموضا ، ـ وفى القرن السادس الميلادى ، امحت كل الآثار الوثنية الفلسفية ، وحلت محلها آراء ومذاهب دينية تمت الى المسيحية بأقوى الأسباب ، اتخذت لها من أرسطو وأفلاطون ومن فلسفة « أفلوطين » سندا تحيا به ٠ واستقرت الثروة الفلسفية اجمالا فى الأديرة ، فعمرت خزائنها بآثار أفلاطون وأرسطو وأفلوطين ٠ وشغف آباء الكنيسة بالمجادلات الدينية ، من أثر اتباعهم أسلوب أرسطو المنطقى (١) ٠٠ وحاولوا جهدهم أن يقيموا المسيحية على أساس من العقل ، فظهرت فى الأديرة حركة تشبه حركة الاعتزال التى ظهرت فى الاسلام فى العصر العباسى ، مرجعها الرغبة فى استخدام فلسفة أفلاطون وأرسطو لتدعيم التعاليم المسيحية ، وظهر جنبا الى جنب مع هذه الحركة التعقلية فى الدين المسيحى ، حركة تصوفية ، دفع اليها شغف رجال الدين بالأفلاطونية الحديثة التى كان من أثرها نشوء التصوف المسيحى ، كما كان من أثرها فى الشرق مؤازرة التصوف الاسلامى ٠

---

(١) ومن أشهر فلاسفة الآباء الكنسيين وأكثرهم اشتغالا بمسائل الفلسفة ، بغية اقامة المسيحية على أساس من التعقل « سنت كلمنت » الاسكندرى (١٦٠/ ٢٢٠م) وفلسفته خليط من مذهب الشك والأفلاطونية الحديثة ، ومنهم كذلك « سنت أوغسطين » (القرن الخامس م) ٠

بهذه الوسائل الثلاثة ، تسرب العلم الاســـكندرى الى أوربا ، وعن الطريق الأخير ، شاعت آراء أفلوطين ، ولم يقتصر أثرها على الأديرة ، بل كونت النواة لفلسفة العصور الوسطى ، وهى الفلسفة « المدرسية » Rector Scholarium ، التى نشأت بادىء الأمر فى الأديرة ، ثم خرجت من الأديرة فلسفة عامة ، لها ممثلوها من غير رجال الدين ·

اتسمت الحركة المدرسية بوجه عام بميسم دينى ، وكان هـم الفلاسفة المدرسيين دراسة الفلسفة اليونانية دراســة عميقــة لادخال عنصر التعقل على المسيحية · التمس هؤلاء أصولا لفلسفتهم فى كل من القسطنطينية والأندلس والاسكندرية على السواء ·

وتقع حركتهم هذه فى فترتين ، الأولى : من القرن السادس الى القرن الثالث عشر تقريبا ، وفيها شــغف « المدرسيون » بدراســة « أفلاطون » بوجه خاص ، واكتفوا من « أرسطو » بأسلوبه المنطقى ، وربما كان ذلك لأنهــم وجـــدوا فى أفلاطون مادة عقلية تناصر المسيحية ، وفى أفلوطين الاسكندرى عقلا ممزوجا بالتصوف ، وفى منطق « أرسطو » الحجة التى يتذرعون بها فى الاقناع ·

وتمتد الفترة الثانية ، من القرن الثالث عشر الى عصر النهضة الأوربية ، وهو العصر الذى تحللت فيه الفلسفة من جميع القيود التى رسفت فيها زمنا ، وأخصها قيود الدين · وأشهر فلاســفة الفترة الأولى ، « انسلم » و « أبلارد » · ومن فلاسفة الفتــرة الثــانية « البرتس ماجناس » و « توماس أكويناس » ·

والناظر فى فلسفة « المدرسيين » ، يرى جهودا قيمة لوضع مثل عليا أخلاقية للمسيحية ، ويرى تصوفا مسيحيا ظاهرا ــ وما أوضح ما يشاهد أثر أرسطو وأفلاطون ، وأثر فلسفة الاسكندريين فيمــا كتب الفلاسفة المدرسيون جميعا بلا استثناء ·

وتآزر فى هذه الحركة كل من الفلسفة والتصوف والمنطق وآراء أفلاطون فيما وراء الطبيعة على خدمة المسيحية ، والحق أن هذا العصر خدم المسيحية من نواح كثيرة ، وأضر بها كذلك فى نواح أخرى ، اذ أدت المناقشات الجدلية الى خلق طوائف مسيحية ذات آراء متشعبة فى طبيعة الاله ، وغيرها من أمهات المسائل الدينية ٠ وفسدت العقيدة الدينية أو كادت من أثر ذلك ، فتداركها الاصلاح الدينى ، وقضى على البدع السائدة ، وخلص الدين من شرور الخلافات ، ووضعت للدين المسيحى منذ ذلك الوقت تعاليم جديدة ، فصلته فصلا تاما عن الآراء الفلسفية ـ وبدأ فى تاريخ كل منها بهذه المفارقة فصل جديد ٠

* * *

وعلى نحو ما ذاعت عن الاسكندرية معارفها بطريق الاقتباس والنقل المباشر وغير المباشر ، كذلك يرجح أن يكون نظامها العلمى قد انتقل الى أجزاء من حوض البحر الأبيض المتوسط بطرق مشابهة ، والصلة بين أقدم الجامعات الأوربية فى ايطاليا ، والمدارس التى كانت مزدهرة فى أثينا وفى الاسكندرية في القرن السادس الميلادى (وهو الزمن الذى يحدد آخر العهد بحياة النظام التعليمى اليونانى) ليست واضحة ، ولا يستطيع الانسان أن يجزم فيها برأى ـ لأن فترة طويلة لابد أن تكون قد انقضت بين انهيار النظام القديم ، وقيام أولى الجامعات الايطالية وأقدمها فى « سالرنو » ، فى القرن التاسع الميلادى ٠

على أنه لا يبعد أن تكون الجامعات الايطالية الأولى ، وهى « سالرنو » و « بولونيا » و « بادوا » قد اضطلعت بأمر احياء العلوم القديمة واشاعتها فى أوربا بحكم تلك الصلات القديمة التى كانت بين ايطاليا والاسكندرية ، والمتصفح لتاريخ الجامعات لا يرى مناصا من الاعتقاد بأن الجامعات الايطالية الأولى ليست الا صورا متداعية للجامعات التى كانت مزدهرة فى أوقات مختلفة فى أنحاء

العالم الهلينى ، وقدر بهذا أن تحتفظ ايطاليا بما بقى على الزمن من نظم تلك الجامعات وعتادها وروحها ، فى زمن فسدت فيه أمور العلم ، وكادت تمحى من الوجود كل بارقة من بوارقه • والحق أنه لم يكن عجيبا فى زمن انحطم فيه عود العلم ، وسقطت ألويته أو كادت فى الاسكندرية التى غدت كالأتون يغلى بالاضطرابات على طول القرون الستة التى أعقبت دخول المسيحية مصر، من أثر النزاع المميت الذى احتدم بين الوثنيين والمسيحيين فى المدينة ــ لم يكن عجيبا والحال كذلك ، أن يفر رجال العلم الى حيث يجدون الحياة أكثر أمنا وأوفى طمأنينة ، وأن يهاجر من المدينة كلما سنحت الفرصة كل عنصر من عناصر الخير ، ليظهر أو ليختفى فى مكان يكون أقدر على اظهاره أو اخفائه ــ ولابد فى مثل هذه العصور ، من أبطال يضطلعون بهذه المهام ، وذلك ما حدا بالايطاليين ، وصلتهم بمصر فى العصور الأوربية المظلمة وثيقة كما هو معروف ، الى الاحتفاظ بشىء غير قليل من علوم الاسكندريين ونظامهم فى التعليم •

ومن جامعات ايطاليا ، شاع فى أوربا الوسطى نظام تعليمى مشابه لنظامها ، وأقدم « جامعة » نشأت فى قلب القارة الأوربية متأثرة بنظام الجامعات الايطالية جامعة « هيدلبرج » الألمانية التى تعتبر أما لجامعات وسط أوربا فى العصور الوسطى •

هذا ويجمل بنا ونحن نذكر الجامعات ، أن نتحلى بشىء غير قليل من التسامح فى اطلاق كلمة « الجامعة » على المؤسسات العلمية التى نشأت فى الأزمنة القديمة ، والأزمنة المتوسطة ــ فلم تكن هذه وتلك جامعات بالمعنى الذى نفهمه الآن ، لأن الفكرة الجامعية لم تنضج فى أوربا الا فى القرن التاسع عشر ، قرن الجامعات • وقبل ذلك كانت الجامعات الأوربية أشبه شىء بالحلقات التى تنتظم حول معلم يلقى تعاليمه ، أو حول متجادلين يلذ للناس شهود الخلاف المحتدم بينهما • وقد كان ذلك بعينه هو الشأن فى الأكاديميات اليونانية الأولى ، على أن هذا النظام البدائى لم يلبث أن تحول الى

نوع من المدارس المنتظمة ، يشرف عليه مشرف كان فى الغالب من رجـــال الدين ، أطلـــق عليـــه اســـــم « راعى المدرســـية » ، وهى تسمية متأثرة بالنظم القديمة ، فقد كان مدير جامعة الاسكندرية قديما يعرف براعى الجامعة وكان من رجــــال الدين أول الأمر . وتأثرت الدراسة فى تلك المؤسسات المبكرة تأثرا ظاهــرا بالروح اليونانية فى الحوار ، اذ كادت تقتصر الدراسات فيها على « الجدل » Dialectics الذى سلطوه على كل ما انتهى اليهـم من المعـــارف الانسانية ، وبقى الحال على ذلك حتى أوائل القرن الثـــالث عشر الميلادى . ومن أشهر ممثلى الحالة العلمية فى العصور الوسطى : « لانفرانك » Lanfranc و « برنجار » Berengar الفرنسيان ، وقد أدى بهما أسلوب العصر العلمى المفرط فى الاعتماد على التعلَيـل ، الى الجدل والاختصام الشديدين اللذين يذكران بجـــدل علمـــاء الاسكندرية واختصامهم فى قديم الزمن . ومنهم كذلك « روسلينوس » Roscellinus و « انسلم » Anselm ، وهما من كبار المحاجّين الذين أغرموا بأسلوب التعقل والتعليل فى فرنسا فى القرن الثـانى عشر ، احتدم بينهما الجدل على نحو ما احتدم بين « لانفـــرانك » و « برنجار » من قبلهما .

هذا ومن أقدم الجامعات الأوربية فى أوربا الغربية فى العصور الوسطى جامعة باريس ، وتعتبر « الجامعــــة الأم » بالنســـبة لكل جامعات القارة التى تطورت فيما بين القرنين الثانى عشر والثامن عشر حتى انتهت الى الأوضاع الجامعية الحديثة التى تدين بوجودها وتمام تكوينها للقرن التاسع عشر (قرن الجامعات) . وليس أدل على ذلك من انتشار نظامها شمالى « اللوار » ممتدا الى الأراضى الواطئة ، وشرقى « الرين » متوغــلا فى أوربا الوســـطى ، وكانت جامعة « براغ » فى القرن الثالث عشر تعرف باسم « الأستوديوم » Studium وهى تسمية تشعر بتأثر هذا الوسط العلمى بنظـام جامعات الجنوب التى كانت معاهد للدراسة العامة Studia generalia

والظاهر أن جامعات أوربا الوسطى كانت قبل القرن الحادى عشر الميلادى تدين بنظامها وروحها للجامعات الايطالية ، ومنذ نهضت جامعة « باريس » بعبء النظام الجامعى ، سرت روحها وبرامجها الى أوربا الوسطى عامة ، وتأثرت بها تأثرا مباشرا جامعتا اكسفورد وكمبردج الانجليزيتان . ونظام الأولى منهما اقتباس صريح من نظام جامعة باريس . وكانت تتميز جامعة « اكسفورد » عن غيرها من الجامعات الانجليزية كجامعات لندن ومانشستر ولفربول باقامة الطلاب فيها . ومن عجب أن يكون ذلك هو نفس النظام الذى التزمته جامعة الاسكندرية القديمة . وهو شىء يعاب على النظام الجامعى، اذ هو يدخل الجامعات فى عداد المدارس الداخلية ، ويظهرها بمظهر لا يليق بها ـ ذلك كان شأن « كلية الملكة » فى أكسفورد ، أول عهدها بالحياة ، ولم تلبث جامعة أكسفورد أن فطنت الى عيوب هذا النظام ، فعدلت عنه ، وجاءت كلية « أول صولز » فيها مصححة لهذا الوضع المعيب .

* * *

ويكاد الانسان يلمس فى كل ما تقدم تأثر المعاهد العلمية سالفة الذكر ، كل بدوره بطريق مباشر أو غير مباشر ، بنظام جامعة الاسكندرية ، وهو نظام يونانى فى جملته وتفاصيله ، بقى على نحو ما قائما على الزمن حتى تسلل الى أوربا بتأثير عوامل شتى : منها هرب العلماء من أثر اضطهاد أوقسر ، ومنها الاقتباس ، وهو أظهر العوامل وأقواها وأبعدها أثرا ، واقتباس ايطاليا من الاسكندرية من الأمور الطبيعية المحتملة ، ومنها كذلك هجرة التيارات الثقافية تلك الهجرة التى لا تحس ولا يكاد يدرك مداها .

* * *

وعلى نحو ما مشابه ، تأثر الشرق الأدنى قبل ظهور الاسلام وبعده بعلم الاسكندرية ـ وان كنا لا ندرى مدى تأثر معاهده بالنظام الاسكندرى ، والأغلب المعقول ألا تتأثر الأوساط العلمية فى الشرق

الأدنى : فى انطاكية وحران وجنديسابور بالنظام الاسكندرى بتفاصيله ، لاختلاف العقليتين الشرقية واليونانية . ومهما يكن من الأمر ، فقد كانت عقلية الناقلين من النساطرة واليعاقبة والسريان عقلية مستشفة مستوعبة لعلوم الأقدمين ، أمينة لم تغير ولم تبدل فيما أقدمت عليه ، أما العرب فقد كان لهم نهجهم الخاص فى استيعابهم ونقلهم — ذلك النهج الذى يتبين فى أسلوبهم المنفرد فى النقل ، وفى نظامهم المتميز الذى أنشأوا عليه مدارسهم ، لعب أسلوب الجدل اليونانى عندهم دوره المعهود ، على نحو ما فعل تماما عند الغربيين .

الفصل التاسع عشر

تأثر العقل العربى بعلوم الاسكندرية

طبيعة الثقافة اليونانية ـ الثقافة العربية مدينة لهذه الطبيعة ـ قدم اختلاط العرب بالأمم المجاورة ـ تسرب الأفكار اليونانية الى جوف شبه الجزيرة العربية ـ أثر الأفلاطونية الحديثة وأسلوب أرسطو ـ حركة النقل النسطورية وحركة النقل العربية وأثرهما فى تكون العقلية العربية ـ شبه العقل العربى بالعقل اليونانى ـ تأثر العقل العربى بنهج البحث اليونانى ـ الاعتزال أثر من آثار اشتغال العرب بالفلسفة والمنطق ـ تشجيع المأمون لحركة الاعتزال ـ اضطهاد بعض الخلفاء للمتفلسفين ـ اخفاء الفلسفة ونشوء جماعة اخوان الصفا ـ التصوف الاسلامى وتأثره بالأفلاطونية الحديثة ٠

لا جدال فى أن الثقافة التى أبدعها العقل اليونانى وأفرغها فى قالبه الخاص هى أقوى الثقافات التى عرفها التاريخ ٠ قدر لها الانتشار والذيوع مصاحبة لغزوات الاسكندر المقدونى ، وظلت هذه تسود العالم فى وقت سيطرة « هلا » و « أثينا » ، ومن عجب أن تبقى لها السيادة على العقل البشرى حتى فى الأوقات التى ضعفت فيها بلاد اليونان ضعفها السياسى المعروف ، منذ انتقلت مقاليد الأمور من أثينا الى غيرها من كبريات مدن البحر المتوسط ، ومنذ مال ميزان القدر ، ففقدت أثينا عاصمة الفكر مكانتها فى عالمى السياسية والثقافة معا ، وارتفع شأن الاسكندرية و « روما » على الأثر ٠

والثقافة اليونانية بطبيعتها غازية ، نشرتها قوة السلطان

الحربى دون أن يقضى عليها زوال ذلك السلطان ، ولقد جعلت منها هذه الصفة النفاذة ثقافة تقوى على الحياة فى أشد الظروف وأعنفها • وليس أدل على ذلك من سيطرتها على عقـــول البطالمة والرومان من بعدهم ، وبقائها رغم قيام المسيحية ونضالها القوى معها ، وتسربها الى الأديرة والكنائس وخزائن العلم الأوربية فى العصور الوسطى • وما ذلك الا لأنها ثقافة غالبة ، فيها من صفات الحيوية والقـــوة ما يجعلها صالحة لكل وقت ، صامدة لا تؤثر فيها عاديات الزمن ــ ولا غرابة ، فهى ثقافة انسانية قويت على الذيوع والانتشار بدافـع من طبيعتها وتكوينها الخاص •

والثقافة العربية ، وهى فى مجموعها ثقـــافة وليدة ، كبيرة الشبه بثقافة اليونان : لها من الصفات ما للثقافة الأم ، من ضخامة الانتاج وتشعبه وتداخله وقوته ، ولا غرابة فهى آخذة منها ، مسرفة فى أخذها ، ومن ثم كانت قوتها ومقدرتهـــا بدورها على الذيوع ، وخلودها وصمودها على الأيام •

وأدى منطق الأحداث أن يكون العرب ورثة الثقافة اليونانيـــة على الشكل الذى انتهت اليه تلك الثقافة على يد الرومان ، فلما أن دالت على يد العرب دولة الروم ، قدر لهؤلاء العرب أن يتناولوا ما فى « الخزائن الملوكية » من تراث ، وكان ذلك الميـراث ، على الرغم من أحداث الزمن الجسام كبيرا عظيم القيمة ، بالغ النفع •

وأخذ العرب عن اليونان قديم يرجع الى وقت تأثرهم فى عقر دارهم بالتيارات الدينية والثقافية التى وجدت سبيلها الى شـــبه الجزيرة العربية قبل الاسلام ، بطريق اليهود والمسيحيين المنبثين فى شبه الجزيرة ، والمساكنين للعــــرب فى بلادهم ، ومن قبيـــل ذلك الاتصال المبكر اتصـــال الأعراب النازحين شمالا بعـــرب سيناء ، وورودهم ارض فلسطين والجزيرة ومصر يلتمسون فيها القوت على عادة البدو المتنقلين سعيا وراء الرزق •

ولا بد أن يكون العرب قد شهدوا فى تجوالهم هذا أحوال الأمم المجاورة ، وأفادوا من الارتحال دراية ، لا نقول أنها أكسبتهم ثقافة أو علما ، فلبس من شأن الجماعات المتبدية التى تجول بحثا عن القوت أن تفيد فى تجوالها علما أو ثقافة ــ وانما أكسبتهم دراية بأحوال الأمم التى نزلوها بدوا ، أو تجارا ، أو فاتحين بعد ذلك ٠ وليس منا من يجهل ارتحال العرب ، قرشيين أو غير قرشيين بقصد التجارة ، وما أفاده القرشيون خاصة من المعارف التى لا تتوفر عادة الا للتجار من احتكاكهم بأضرابهم فى الأمم الأخرى ٠ وأول ما استفاد العرب الحجازيون من أسفارهم هذه كان دراية بالكتابة وحساب التجارة ، استعاروهما من بنى عمومتهم من الأنباط الذين كانوا يسكنون سيناء وأطراف الحجاز الشمالية والبتراء ونجوع حوران وقنسرين على الفرات ٠

ومن شأن هذه الأسفار التجارية أن توسع الأفق الفكرى وأن تهىء العقل لقبول الجديد ، ومرجع ذلك فيما يظن ، ما يكتسبه التجار عادة من المرونة الفكرية بسبب كثرة اختلاطهم بالغير ، وتخطيهم للفوارق الأقليمية ٠

تكونت هذه الطبيعة للعرب مبكرة قبل الاسلام ، فكان من شأنها أن مكنت لهم فى الوقت المناسب ، عندما تهيأت لهم حياة الاستقرار التى لابد منها لقيام أية حركة علمية ٠

والمعروف المتداول أن آراء النساطرة فى الدين ، وهى مزيج من المسيحية وفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، كانت قد تساقطت الى جوف شبه الجزيرة العربية منذ زمن مبكر قبل الاسلام ، وأن العرب المسيحيين لابد أن يكونوا قد اشتغلوا بدورهم هناك بالمسائل الجدلية الدينية ، ولا غرو ، فقد كان منهم فى شبه الجزيرة العربية نساطرة تأثروا بالفلسفة اليونانية بشكلها النسطوزى ، ومسيحيون مختلفون فيما بينهم على بعض المسائل اللاهوتية ، ومما يستسيغة العقل أن يكون النساطرة ، وهم يجدون فى نشر الفلسفة اليونانية في الشرق

الأدنى ، قد اتجهوا بأفكارهم فيما اتجهوا نحو قلب شبه الجزيرة العربية ، وكانوا جد حريصين فيما نعلم على ابلاغ آرائهم الى جوف الامبراطورية الساسانية وجوف شبه الجزيرة العربية على السواء ٠

وجد النساطرة مجالا خصبا لنشر الفلسفة اليونانية فى الشرق الأدنى ، حيث أنشأوا مدرسة فلسفية فى « نصيبين » ٠ واستطاعوا أن يصبغوا مذهب (التأله) هناك بصبغة من الفلسفة اليونانية ٠ وما لبثت مدرسة نصيبين الفلسفية هذه أن أغلقت أبوابها وخلفتها مدرسة قامت « فى الرها » لأسباب دينية خاصة تتعلق بنزاع النساطرة مع المذهب الرسمى للكنيسة ٠

وقام النساطرة بحركة ترجمة قصدوا بها أول الأمر خدمة مذهبهم الدينى ، فترجموا كتب زعمائهم الدينيين الى السريانية ، واذ هم كذلك ، ترجموا الى هذه اللغة نفسها كتب « أرسطو » والكتب التى علقت عليه ، استعانة بها على فهم العقائد اللاهوتية التى كانوا يبشرون بها ٠

ومهما قيل فى قيمة ما نقل النساطرة من منطق وفلسفة فى دعوتهم لمذهبهم الدينى ، فقد كان بلا شك ابتداء حركة النقل الكبرى ، ومقدمة لتأثر العقل العربى بآراء اليونان ٠

ومما يؤخذ على هذا النقل المبكر أنه كان أول الأمر لا يخدم العلم لذاته ، لأنه كان مسخرا لخدمة العقيدة النسطورية المسيحية دون غيرها ٠

وبدأت عند المسلمين حين اصطدموا بالثقافة اليونانية فى مواطنها التى استقرت فيها وقبعت آخر أمرها ، رغبة قوية فى الوقوف على مخلفات العقل اليونانى ، وكان نزولهم الاسكندرية ، مستودع

البقية الباقية من العلوم اليونانية ، متيحا لهم تحقيق هذه الرغبة الملحة ، بأكثر مما أتيح لهم فى سوريا ٠

* * *

وفى الاسكندرية صادف العرب نخبة من أواخر العلماء يدرسون ، أشهرهم : « بولس الأجانيطى » آخر ممثل للحركة العلمية فى الاسكندرية ٠ وفيها صادفوا فلسفة « أفلوطين » ، وخلاصة من تعاليم «جالينوس» فى الطب ، وأدركوا شيئا كثيرا من الكيمياء والفلك والتنجيم ٠ وكان معظم أخذهم (الى جانب الفلسفة) من الطب والفلك والكيمياء ، وكانت هذه الثلاثة الأخيرة تكون فى الذهن العربى مثلثا متماسك الأضلاع ، بسبب ما تخيله العرب من العلاقة الوثيقة بين الفلك والطب ، وبين الطب والكيمياء ٠

* * *

ومما هو جدير بالذكر أن « اليعاقبة » قاموا بدور فى النقل يشبه الدور الذى قام به النساطرة ، ويرجع الفضل فى نقل هؤلاء وهؤلاء جميعا ، الى حركة الانشقاق التى اعترضت الكنيسة المسيحية ، فمزقت أتباعها شيعا وأحزابا ، التمس كل منها وسيلة لاظهار مسائله الدينية بمظهر قوى مقنع ، ولم يكن لهم جميعا بد من الاستعانة بمنطق « أرسطو » فى الاقناع ، وبفلسفة « أفلوطين » فى اكتساب المذاهب الدينية صبغة من العقل المتصوف ٠

ذلك كان المنهج المشترك بين النساطرة واليعاقبة ـ ومما يلفت النظر أنه هو بعينه منهج المسلمين فى الاقناع ، فقد استعارت بعض الفرق الاسلامية بدورها فلسفة « أفلوطين » لما فيها من تصوف ظاهر ـ كما استعارت أسلوب « أرسطو » بقصد مراجعة الدين على العقل ، ونشأت من أثر ذلك فلسفة « الاعتزال » فى الاسلام ٠

واتبع العرب طريقة النساطرة فى التعليق على « أرسطو » ، فقد كان من عادة هؤلاء عند نقلهم أرسطو من اليونانية الى السريانية

أن ينقلوا عبارة صغيرة منه ، ثم يعلقون عليها باسهاب ، وشاعت طريقتهم هذه فى التعليق ، واتبعها العرب فى تفسير القرآن وشرح الحديث ٠

ونقل العرب عن اليعاقبة والنساطرة والسريان ما كان هؤلاء قد نقلوه من علوم اليونان ، ونهل هؤلاء بدورهم من حياض الاسكندرية العذبة غداة الفتح ٠ وأتاح العرب لهؤلاء المسيحيين جوا حرا واصلوا فيه جهودهم بنفس الحماسة التى كانوا مأخوذين به قبل ظهور الاسلام ، وعاش هؤلاء فى كنف العرب آمنين يتمتعون بحرية سياسية ودينية بالغة ٠ وأنتجوا فى هذه البحبوحة الفكرية ما وسعهم الجهد الجبار ٠

ومن أديرة اليعاقبة فى قنسرين وغيرها ، ومدارس النساطرة فى الشرق الأدنى ، ومن الاسكندرية معقل البقية الباقية من الثقافة اليونانية ، تعلم العرب ما تعلموا من طب « جالين » ومباحث المنطق والفلسفة ، وعن هذه المصادر نقلوا مختصر « فورفيروس الصورى » المعروف باسم «ايساغوجى» ، وتعليقات «بروبس» على الايساغوجى ، وكتب أرسطو الأخرى ٠ وعن اليعاقبة نقلوا جهود « سرجيوس الرسعنى » العراقى اليعقوبى ، ولا سيما مترجماته من طب « جالينوس » التى لا يزال معظمها محفوظا حتى اليوم بالمتحف البريطانى ، ومقالاته فى المنطق (فى « المقولات ») ، وفى « تعليل نشأة الكون » على ضوء آراء أرسطو ٠

* * *

وفى منتصف القرن الثامن الميلادى بدأت الحركة الفكرية العربية تتجه بكلياتها وجزئياتها نحو العلوم والفلسفة ، وبدأ ظهور الآثار اليونانية بلغة العرب ، الى جانب لغة السريان ٠ وتوجت الحركة بأعظم حظ أتيح للنقل ، حين أنشأ المأمون العباسى معهدا للترجمة ، استخدم فيه نخبة من أعظم الناقلين من النساطرة : أشهرهم

« حنين بن اسحق » ، عاونه فى مهمته هذه ابنه « اسحق بن حنين » وعدد من المترجمين منهم « ابن أخته » حبيش الأعسم الدمشقى .

* * *

وفى هذه الحركة الواسعة ظهمت النسخ العربية « لايساغوجى » و « أرمانوطيقا » أرسطاليس ، وجزء من كتابه « أنالوطيقا » ومقالته فى « الروح » وجـزء من « المتافيزيقـا » ، وكذلك تلخيصـات « نيقولاوس » الدمشقى و « ديوسكوريدس » ، و « بولس الأجانيطى » و « أبقراط » . وتعتبر المقالة التى ترجمها « حنين بن اسحق » عن « الروح » أو التى ترجمها ابنه اسحق وراجعها أبوه ، من أهـم المراجع فى دراسة الفلسفة وعلم النفس عند العرب .

* * *

ومنذ ذلك التاريخ ، أى منذ بدأت حركة النقـل الكبرى أيام المأمون ، أخذ العرب الى جانب النقل يضعون بالعربية كتبا فى نواحى العلوم التى عرفوها عن اليونان . ومن هؤلاء « محمد بن موسى » الذى نسب اليه العرب وضع « الجبر » ، له فيه أبحاث خاصة قيمـة ترجمت الى اللاتينية ، اشتهرت فى عصر النهضة فى أوربا ، و « محمد أبو الوفا » الذى ترجم كتاب « ديوفانتس » فى الجبر ، وعلق عـلى المؤلفات الرياضية التى وضعت قبله ، وكان ذلك حوالى أواخر القرن العاشر الميلادى ، و « أبو معشر البغدادى » المتوفى ٨٨٥ م صاحب كتاب « الزيج » ، وهو المعروف بين الأفرنج باسـم Abumazar ومن بعد هذا جاء « محمد بن جابر » (٩٢٩ م) المعروف بالبتانى ، وهو عند اللاتينيين مشهور باسم Albategnius صـاحب « الزيج الصابى » المحـفوظ بمكتبة « الفاتكان » . وقد علق البتانى على « المجسطى » لبطليموس ، وشرح مقالاته ، وليست له تعديلات عـلى زيج بطليموس ، وأضاف الى هذا كله عدة تحقيقات رياضية وفلكيـة

ذكرناها فى موضعها من الكتاب ، وحاضر البتانى فى أوروبا فى العصور الوسطى ، واشتهر باسم « بطليموس العرب » ٠

وكتب فى الطب « جبرائيـــل بن بختيشوع » ، فأخـــد عن « ديسكوريدس » صاحب كتاب خواص العقاقير ، كما أخـــذ عن « جالينوس » و « بولس الأجانيطى » ٠

وأشهر من كتبوا فى الطب اطلاقا من العرب أبو بكر محمد بن زكريا « الرازى » المعروف عند الافرنج باسم Rhazes ، آخذا عن اليونانيين والهنود وعن ابن سينا ــ ومؤلفاته عظيمة القيمة ، محكمة الوضع ، أفاد منها طلاب الطب فائدة كبرى ٠

* * *

يقولون : « كان الطبمعدوما فأحياه جالينوس ، وكانمتفرقا فجمعه الرازى ، وكان ناقصا فاكمله ابن سينا » ــ ذلك واضح الـدلاله على ان العرب يدينون بأصول طبهم لجالينوس ، وبأكمال نقصه لابن سينا ويجمع شتاته للرازى ، وهو أعظم من تناولوا الطب القديم بالاضافة، وله كتاب « الشفاء » (طبعة طهران ١٣٠٣ هـ) ، وكتاب « القانون فى الطب » (طهران ١٢٧٤ هـ ــ وبولاق ١٣٩٤ هـ) ، ولم تقتصر جهوده على الطب ، بل تعدته الى الفلسفة والطبيعيات والالهيات ٠ واتجـه ابن سينا اتجاها فلسفيا تأثر فيه بما كتب أســـتاذه « الفارابى » ، فظهرت فى آرائه أصول من فلسفة الأفلاطونية الحديثة (فلســـفة الاسكندريين) وتعليقهم على كتب أرسطو ٠ ويظهـــر أثر الأفلاطونية الحديثة فى فلسفة « ابن سينا » فى نظريته القائلة بأن الأحـــداث الأرضية تتأثر بالأجرام السماوية ، لا عن طريق الحـــرارة المنبعثة عنها ، وانما عن طريق ما تشعه من الضوء ٠ وآراؤه فى « العقل » شديدة الشبه بما تقرره الأفلاطونية الحديثة فى شأنه ــ وهى آراء لم يوفق فيها « ابن سينا » ، مع ما له فى علم النفس من الآراء القيمـة التى شهد ببراعته ٠

ولعل من أجل الأمور التى ساعدت على تكوين العقلية العربية الجبارة انشاء « دار الحكمة » فى بغداد ـ أنشأها المأمون ، ووكل أمرها الى « يحيى بن ماسويه » المتوفى ٨٥٧ م ، وكان عالما بالطب ، كتب مقالا « فى الحميات » نقل الى اللغتين اللاتينية والعبرية ، وأنتج تلاميذه انتاجا ضخما ، لا سيما حنين بن اسحق العبادى المتوفى ٨٧٦ م أكبر المترجمين وأشيعهم ذكرا ، وهو طبيب سريانى ، نقل غير ما نقل فى الطب كتاب المنطق المعروف باسم « الأورجانون » لأرسطاليس ، وهو ممن جمعوا بين ثقافة اليونان فى الشرق الأدنى وثقافتهم فى الاسكندرية التى زارها وأفاد منها كل ما كان معروفا فيها فى وقته من علم ، وهو الذى ترجم « أقليدس » الى العربية ، كما ترجم اليها بعض مؤلفات أرشميدس وجالين وأبقراط ٠

وترجم ابنه « اسحق » كتاب « الجمهورية » وكتاب « الأخلاق » ، وغيرهما من كتب أفلاطون ، كما نقل تعليقات على المقالة الثلاثين من كتاب « المتافيزيقا » ، وترجم الانجيل كاملا الى العربية ٠

* * *

وللعرب اضافات ذات بال فى الهندسة ، فلهم علم باسقاط الكرة ، مع الاحتفاظ بالدوائر والخطوط المرسومة عليها ، وأن يكن هذا عند البعض من مباحث « علم الهيئة » ، وتقدم على أيديهم علم حساب المثلثات ٠ ومن اضافاتهم الى الهندسة « الجيب والمماس » ، وصفوة القول أن العقل العربى الذى كان النقل عن الأقدمين ديدنه وهمه الأول ، ما لبث أن غدا عقلا مبتدعا جبارا فى ابتداعه ، فلم يخل علم تناوله العرب أول الأمر بالنقل من اضافة أضافوها اليه ، ففى الكيمياء ، كما فى الهندسة كانت لهم اضافات هامة كونت فيهما فصولا قائمة بذاتها ، وفى الجبر ، كما فى الحساب ، كانت لهم أبحاث جديدة ، وتناولوا الفلسفة ، وكان لهم فى تناولها أسلوب خاص يوضحه كتاب « الملل والنحل » للشهرستانى ، وفى

الموسيقى ظهرت للعرب ابتكارات خاصة ، فقد أضاف عرب الأندلس وترا خامسا الى الأوتار الأربعة المعروفة ، وفى علم الضـوء كانت « للحسن بن الهيثم » جولات مشكورة أضافت الى ما عرف من هـذا العـلم على يد اليونان • كان هـذا شأن العرب فى كل ناحيـة من نواحى المعرفة ، ولا حاجة بنا الى استقراء ما كان للعرب من فضل ، ولو أردنا ذلك ، لخرجنا عن الغاية المرسومة ، وحسبنا أن نقول أن العقلية العربية التى تأثرت غداة الاتصـال بتراث الأقدمين ، كانت عقلية مستوعبة هاضمة جبارة فى استيعابها وهضمها ، كثيرة الشبه بالعقلية اليونانية ، فكلاهما انسانى النزعة ، عالمى الاتجاه ، أنتـج العقل اليونانى ثقافة صلحت لكل زمان وكل مكان ، وأنتج العقـل العربى ثقافة مماثلة ثبتت صلاحيتها على الزمن رغم ما علق بها من الشـوائب ، ولا أدل على ذلك من تلمس المستشرقين للمخطوطات العربية ، واحيائهم لها بالطبع والتعليق والتبويب والفهرسة والترجمة الى اللغات الأوربية ، سواء فى ذلك ما كان منها منقولا عن اليونانية وما كان من اضافة العرب أو من وضعهم أصلا •

ومهما يكن من شىء ، فقد كان العرب رسل ثقافة ، كما كانـوا رسل دين ، ولا غرابة ــ فان أمة كل همها أن تجعل الاسلام يسـود العالم (وهو دين عالمى ، صالح لكل زمان وكل مكان) كانت بلا شك جديرة بثقافة تتمشى مع هذا الطبع العالمى الذى اتصف به الاسلام •

* * *

والفضل كل الفضل فى ذلك راجع الى الثقافة اليونانيـة التى هى من الثقافة العربية بمثابة الروح • والحق أنه لا يسع الانسـان الا الاعجاب بذلك التراث الفكرى الذى انبعث من بلاد اليونان ، وخلد على الدهر ، دون أن تقوى على اخماد جذوته أحداث الزمان ! ــ كما لا يسعه الا الزهو بما كان للعرب من فضل فى حفـظ ذلك التراث الفكرى اليونانى من عبث القرون ، ثم احيائه والاضافة اليه واسلامه الى الخلف جيلا بعد جيل •

وعلى نحو ما كانت العقلية اليونانية تجعل من المعارف الانسانية « كلا » لا ينحل الى معارف فرعية ، كانت كذلك عقلية العرب المتأثرة بها واعية لتراث الأقدمين على نحو مشابه ، وكما كان العالم اليونانى فيلسوفا ومشرعا وعارفا بالطب ومربيا فى وقت واحد ، كذلك كان العالم العربى ملما بكل شعاب المعرفة لا يفرق بين شعبة وأخرى ، ومصنفات العرب العديدة خير شاهد على ذلك ٠٠ أنظر الى « الغزالى » و « الفارابى » و « ابن سينا » و « ابن رشد » وأضرابهم ـ هل تجد حدا لما تناولوه من حقائق المعارف ؟ وهل تجد لديهم من الحواجز ما يفصل نواحى المعرفة بعضها عن بعض ؟ حقا كان شأنهم فى ذلك شأن أرسطو وأفلاطون والاسكندريين سواء بسواء ٠ ولا غرابة فقد تأثرت العقلية العربية وهى تنقل عن اليونان نقلها القوى الجبار تأثرا موضوعيا ، وهضمت من آراء اليونان فى الفلسفة والروحانيات شيئا كثيرا ، فوق تأثرها بأساليب البحث اليونانية وطرائقه ٠

* * *

على أن الأمثلة التى يمكن أن تساق على تأثر العقلية العربية بعقلية اليونان كثيرة لا سبيل الى حصرها : فقد كان من أثر هضم العرب لفلسفة أفلوطين الاسكندرى الروحانية تقوية التصوف الاسلامى ، وكان من أخذهم عن « أرسطو » نشوء مذهب « الاعتزال » على ما هو معروف ٠ وتأثر العرب بالعقلية اليونانية فيما عدا ذلك واضح فى رد علماء التوحيد على الملاحدة ولا سيما فى مسائل « السمعيات » ، وفيها يتضح مدى تأثر العقلية العربية المستمسكة بالقرآن والسنة بالفلسفة اليونانية ٠

هذا ، ومنهاج البحث فى العلوم فى العصر الاسلامى بصفة عامة جدلى كثير الشبه بمنهاج اليونان فيها ، والحق أن الجدل والتناظر كانا على طول عهد الاسكندرية بالعلم معروفين سائدين ، وفى سبيلهما اختصم الفلاسفة ، ولذ للملوك أن يشهدوا جدلهم وعراكهم ،

بل وأن يشتركوا فيه فى بعض الأحايين ، ومرجع هذا الأســـلوب الجدلى عند العرب هو الفكر المتفلسف والعقل المسرف فى الاحتكام الى المنطق ، ومهما يكن من شىء ، فقد كان التزام المنطـــق والتأثر بالفلسفة من خير الفكر العربى وحسن طالعه ـ الا أن الاسراف فى الجدل والتزام الأحكام المنطقية التزاما شديدا ، كان من شأنهما عند العرب أن حبسا بعض حقائق العلم فى قوالب المنطق الجافة ، وعنى أصحاب هذه الأساليب من العرب بالشكليات أكثر من عنايتهم بالحقائق ذاتها ، فلم يخدموا بها غير الجدل البحت، وأقدم جدل عربى معروف هو ذلك الجدل الذى ثار بين الكوفيين والبصريين حول المسائل النحوية، وما الخلافات الصارخة بين « السكاكى » و « عبد القاهر » بشـــأن المشكلات البلاغية الا مثال من أمثلة ذلك ، وأعظم جدل يعيه تاريخ الفكر العربى فى زمن حذق فيه العرب منطق اليونان ، هو ذلك الجدل الذى حمى وطيسه فى بلاط « المأمون » العباسى حول مسألة « خلق القرآن » ـ ذلك الجدل الذى لذ للخليفة ورجال بلاطه أن يشهدوه ، على نحو مالذ لبطليموس فيلادلف أن يشهد اختصام رجلين من أعظم المتحـــاجين فى عصره ، همـــا « كليمـــاخوس » و « أبولونيـوس الرودسى »

وليس من شك فى أن العرب لم يصبح لهم بهذه الأســـــاليب الجدلية علم ، الا منذ وقعت أنظارهم على آثار اليونان الفلســـفية ، وبعد أن أصبحت لهم بعلم المنطق دراية دقيقة ، ولم يتح لهم ذلك على نحو منظم مكتمل ، الا منذ بدأت حركة النقـــــل العظمى فى خلافتى المنصور والمأمون ـ ولقد كانت العقلية العربية قبل عصر النقــــل الأعظم ، وبعبارة أخرى قبل أن يعتنق العرب أساليب اليـــونان فى المحاجة والتناظر ، عقلية تدين بالقول المأثور ، وتأخذ بالحـــكمة الموجزة ، يروقها رواء القول فيهما ، وتبهرها بلاغة الكلم وايجازه وحسن وقعه فى الأسماع والنفوس ، وتصرفها محسنات القـــول وظاهر الحكمة عن البحث فى الأدلة العقلية التى تستند اليهـــا تلك

الأقوال ، وأغلب هذه الأقوال كلام جرى على السنة المجربين والحكماء ، وهى فى جملتها أقوال تغلب عليها الصحة لأنها وليدة التجارب ، والمنطق المستخلص من التجارب ، يبدو كأنه المنطق ، وهو من المنطق بعيد ، ومن ثم كان قصور بعض الحكم والأقوال المأثورة ، بل وكان تضاربها واضطرابها فى كثير من الأحيان ـ ولقد تساق الحكمة ، ويضرب المثل ، ويبدو أن فيهما فصل القول ، فلا يلبث السامع الحصيف اذا ساعفته القريحة ، أن يروى من فوره قولا معارضا يدحض به الحكمة المساقة أو المثل المضروب ، ومرجع ذلك فيما نعتقد أن العقلية العربية قبل تأثرها بمنطق اليونان وفلسفتهم ، كانت عقلية تعتمد على ما يسميه « علم المنطق » بالخطابيات اى البراهين الخطابية ، والخطابيات من شأنها ألا تقوى على التبات أمام العقل ، لا تلبث أن تخضع لقوانينه الصارمة ، حتى يتكشف ضعفها وتنهار ، ومنذ أخذت العقلية العربية نفسها بأساليب المنطق ، قلت ثقتها بقيمة هذه الحكم والأقوال المأثورة ـ وان بقى لهذه حتى الآن سلطانها القوى على كثير من النفوس والعقول ٠

وقد كان لتناول العرب لعلوم اليونان ، واشتغالهم بالمباحث التى طرقها هؤلاء أصلا ، واضافاتهم اليها على ذلك النحو الواسع الذى تعرفنا بعض نواحيه فى القسم السابق من هذا البحث ، أثره البين فى الفكر العربى موضوعا وأسلوبا ـ الأمر الذى لم يجعل من هذا الفكر ـ لحسن الحظ ـ شيئا منعزلا عن الفكر الانسانى العام ٠

* * *

كان من أثر اشتغال العرب بالنقل أن تاقت نفوسهم الى الارتواء من مناهل العلوم الدخيلة ، من منطق وفلسفة وطبيعيات ورياضيات والهيات وغير ذلك من العلوم كالجدل والتصوف والجبر والهندسة والحساب والفلك والجغرافية والأخلاق والسياسة ٠

كان للعرب الى جانب النقل فضل الاضافة والنقد على ما بينا وكان المأمون أكثر الخلفاء العباسيين تأثرا بعلوم الأقدمين وبخاصة اليونان ، يتبين ذلك من ميله المسرف الى الأخذ بالأقيسة العقلية في بعض مسائل الدين ، وشدة انصياعه لحرية الفكر وتحكيم العقل ٠

* * *

وفى العصر العباسى الأول ظهر « مذهب الاعتزال » الذى نشأ من شدة اخضاع النصوص الدينية الى الأحكام العقلية ، شجعه المأمون تشجيعا تجلى فى تقريبه لأتباع هذا المذهب ، ولما كانت دراسة المنطق والفلسفة أكبر ما أعان « المعتزلة » على اقامة الحجة وترتيب البراهين ، أمر المأمون بنقل كتب اليونان الى العربية ، فترجم منطق « أرسطو » ونقلت فلسفة « أفلاطون » اليها ٠

* * *

ويبدو تأثر العرب بالفلسفة اليونانية عامة وبفلسفة الاسكندرانيين خاصة فى أخذ السنيين بنصيب من الفلسفة اليونانية ، أرادوا بذلك أن يتمكنوا من مجادلة خصومهم ومن قرع الحجة بالحجة ٠

ولم تكن الفلسفة على كل حال بالعلم الذى ترتاح اليه نفوس العرب ، فقد ظلت رغم اشتغالهم بها وخوضهم فى مسائلها ، أمرا غير مرغوب فيه ، لا تنظر اليه غالبية المسلمين بالارتياح ، وكثيرا ما رمى معتنقوها بالكفر والزندقة والالحاد ـ وبقيت الحركة التعقلية المتأثرة بفلسفة اليونان رائجة ظاهرة الآثار حتى زمن المتوكل العباسى الذى كان سنيا متطرفا ، يكره الفلسفة ورجالها ، والذى اضطهد المشتغلين بها حتى اضطروا الى الاختفاء والعمل فى السر على مراجعة العقل فى مسائل الدين الاسلامى ، بقصد اصلاحه وتخليصه من الخرافات وتصفيته من الجهالات التى التصقت به ، وتكونت من أثر ذلك جماعة « اخوان الصفا » التى نشأت فى البصرة وبغداد فى

القرن الرابع الهجرى ، ولم يقتصر نشاطها على الفلسفة والمنطق ، بل تناول العلوم الطبيعية والرياضية والالهيات بشعابها المختلفة ، وتعتبر رسائل اخوان الصفا وقد أربت على الخمسين ، أعظم جهد علمى قام به مشتغلون بالعلم فى العصور الوسطى · ويعتبر عمل « اخوان الصفا » (فوق أنه تفصيل واف للمسائل الاسلامية أريد به التوفيق بين الفلسفة والدين) منهاجا لكافة الدراسات الاسلامية العالية فى العصور الوسطى · وقد نقل الفرنجة من أبحاثهم الشىء الكثير ·

أما تأثر العرب بفلسفة الاسكندريين ، فيبدو واضحا فى الحركة التصوفية الاسلامية ، التى وجدت فى فلسفة « أفلوطين » تصوفا ظاهرا واعتمادا على الالهام والكشف فى فهم حقائق الأشياء ، وفلسفته هذه تدعى لنفسها سندا من فلسفة « أفلاطون » اليونانية وهى رغم ما يعتورها من العيوب كفلسفة مدرسة فكرية متأثرة بالروحانيات اليهودية التى ألصقها بها « فيلو » أول داعية لهذا المذهب فى الاسكندرية وأستاذ أمونياس سكاس وأفلوطين · وتأثر العقل العربى بهذه الفلسفة التصوفية يرجع فى الغالب الى اعتمادها على الروحانيات فى تفسير علاقة الاله بالانسان ، وتمجيد الزهد والتجرد بقصد تخليص النفس من الأدران حتى تستطيع بصفائها وسموها الاتصال بالخالق ، وتلك كلها معان يستسيغها العقل الشرقى المتصوف بطبعه ·

* * *

ومن المحقق أن زعيم هذه الفلسفة ومفرغها فى قالبها الذى انتشرت به مصرى ولد فى أسيوط ، هو « أفلوطين » ، وهو عقل شرقى متفلسف خلط الروحانيات الشرقية بعنصر ملتبس من فلسفة أفلاطون ، فجاءت آراؤه فصلا واضحا من فصول التصوف ، ان أدخل فى عداد الفلسفة ، كان فصلا غامضا من فصولها ، ولونا شاحبا من ألوانها ·

ومهما يكن من أمر هذا المذهب ، فهو معدود آخر فصول الفلسفة اليونانية ، وما أن نضج في مصر حتى هاجر الى أثينا ودرس في مدارسها المتأخرة ، ووجد سبيله نافذا الى آسيا الغربية ، وفيها اختلط بالزرادشتية ، ودرج غربا الى روما ، وهناك كان أقل غموضا وأقل اعتمادا على الالهام • وقد تأثر العقل العربي به تأثرا عجيبا بسبب ما وجده المسلمون فيه من نزعات التصوف ، اعتنقه الفلاسفة العرب وتناولوه بالنقل والشرح والتعليق ، وكان لهم في فهمه وشرحه أسلوبهم الخاص (١) •

ولقد أوحت نظرية « أفلوطين » في قدم الله وصدور العالم عنه ، وما فيها من وجود وسائط أربع بين الله والكون الى فلاسفة المسلمين بنظريتهم المشهورة في « العقول العشرة » أو « الوسائط العشرة » ــ رأى « أفلوطين » أن الوسائط بين الله والمادة أربعة ، ولكن فلاسفة العرب زادوها الى عشرة ــ ومن ثم جاء

---

(١) التصوف هو الانقطاع الى الله والتفرغ للعبادة حتى يفنى الجسم في الروح فناء تتصل فيه الروح الآدمية بالروح الأعلى أو العقل الأول ــ على حد تعبير الفلاسفة • وأهم مصادر التصوف الاسلامي القرآن والسنة • ومن التصوف الرهبنة المسيحية واليهودية و « النرفانا » الهندية ، وهي حالة الصمت المطلق التي يلتزمها فقراء الهنود ، والتي هي عندهم تعني الفناء التام في ذات الخالق •

وللمتصوفين آراء ونزعات تدور حول الزهد في الدنيا والانصراف عما فيها من عروض ومباهج ومغريات ــ وللصوفية منهاج خاص للوصول الى السعادة قوامه العلم بالشريعة من قرآن وحديث وما يتصل بهما ــ أما العلم الذي أجهد الفلاسفة أنفسهم في الوصول اليه ، فلا يراه المتصوفون ضروريا لهم ــ وبعض المدخولين على الصوفية يرى التصوف في مجرد الجوع وترك الدنيا، والحقيقة أنه لا بد للمتصوف من علم يعمل به ، ومن لم يحفظ القرآن والحديث يستحيل عليه أن يكون متصوفا ، لأن التصوف مقيد بالقرآن والسنة قبل كل شيء •

ما يقال من أن هيام أفلوطين وطموحه الى السعادة الأبدية عن طريق الامتزاج بالله على ذلك النحو الصوفى الرفيع الذى يقرره فى فلسفته مصدر من مصادر التصوف الاسلامى العديدة ، استقى منه الفلاسفة المسلمون نظريتهم فى الاتصال بالخالق - وان يكونوا قد نهجوا فى الوصول الى ذلك نهجهم الخاص ، على ما هو معروف فى كتبهم الفلسفية .

* * *

ومما لا شك فيه على كل حال أنه كان من أثر دراسة المسلمين للفلسفة اليونانية نشوء فرق الزنادقة والملاحدة الذين أدخلوا كثيرا من الشبه على العقيدة الاسلامية ، وكان معظم هؤلاء من الأعاجم الذين كانوا يتحينون الفرص للظهور بالأباطيل قصد افساد العقيدة الاسلامية وزعزتها ، وقد أدت حركاتهم هذه الى قيام علماء التوحيد يردون على الزنادقة والملحدين ويدفعون شبههم عن الدين الحنيف - جهد هؤلاء فى ابطال تلك الشبه بأدلة فلسفية من نوع الأدلة التى ساقها المتزندقون والملاحدة لابطال بعض العقائد الاسلامية التى ثبتت بالقرآن والسنة ، وكان لدفاع علماء التوحيد أثره البالغ فى توكيد العقيدة الاسلامية وحفظها من عبث العابثين واطلاع الناس على نواحى الزيغ والضلالة فى أقوالهم .

وأثر اليونان واضح تمام الوضوح فى فلسفة الأخلاق عند المسلمين ، وما آراء « الغزالى » فى النفس وقواها الا استيحاء لآراء « أرسطو » وأفلاطون ، ورأيه فى « العقل النظرى » متأثر برأى « أرسطو » فيه ، وتأثر الغزالى بفلسفة الاغريق ظاهر تمام الظهور فى كتابه « معارج القدس فى مدارج معرفة النفس » .

ولم تخل اراء « ابن مسكويه » و « ابن عربى » الأندلسى من التاثر بفلسفة اليونان ٠

أما تأثر العرب بالعلوم اليونانية الأخرى ، فيظهر جليـــا فى الاقبال على ترجمتها ابان عصر النقل الأعظم ، وفى التعليق عليهـا والاضافة اليها ونقدها ٠

الفصل العشرون

جامعة الاسكندرية بين قوة الانتاج وضعفه
اجمال لتفصيل

الجامعة فى عصرها الأول ـ الجامعة فى العصر البطليموسى المتأخر ـ قلة انتاجها ـ الجامعة والمسيحية ـ أثر الصراع الدينى بين المسيحية والوثنية ـ الجامعة فى سبيل الفناء ـ ضعف الانتاج العلمى ـ الحركة الفلسفية ٠

مرت الجامعة بمراحل ثلاث ، كانت فى أولاها فتية ناشئة ، ناقلة لكل ما عرف الأغريق من حقائق العلم الانسانى ٠ وكانت حيويتها رهنا بقوة منشئيها من ملوك البطالمة ، فظلت فى حمايتهم ورعايتهم دهرا طويلا تمتعت فيه بكل ما تحتاج اليه جامعة من حرية وتشجيع وانفاق على مرافقها المختلفة بسخاء ، زودها منشئوها بأنواع من عجيب الحيوان والنبات جلبت اليها من جهات نائية ، وآلات رصد هى خير ما عرفه العالم القديم من وسائل دراسة الأجرام السماوية ومكتبة كبرى حوت أعظم المصنفات وأندرها ، الى غير هذا وذاك مما لم يدخر البطالمة الأوائل وسعا فى توفيره لجامعتهم الناشئة ٠

* * *

كانت الفكرة فى هذه العناية التى صرفها هؤلاء فى خدمة العلم جلية واضحة ـ ذلك أنهم قصدوا الى أن تصبح الاسكندرية

« أثينا » ثانية ، تحمل لواء العلم الذى هوى أو كاد يهوى فى « أثينا » اليونانية . وقد كان لهم من سلطانهم ونفوذهم السياسى ما استطاعوا به أن يحققوا لها هذا المركز الممتاز ، فلما أن ضعف هذا السلطان ، وتضعضع ذلك النفوذ السياسى ، وشغل أفراد البيت المالك بالخلافات الشخصية ، تأثرت جامعة الاسكندرية تبعا ، وأدركها من الضعف ما أدركها فى الحلقات الأخيرة من القرن السابق للميلاد ، وكادت تندثر كل الجهود الطيبة التى بذلها البطالمة من أجل انشاء جامعة كبرى تناهض جامعة أثينا وتخلفها .

وبلغ الضعف من جامعة الاسكندرية منتهاه فى عهد كليوباترة ، ففيه فقدت الاسكندرية المكانة السامية التى عرفها لها العالم القديم ، وفقد العلم اذ ذاك عنصرين هامين من عناصر نموه هما الهدوء والاستقرار ، اللذين لابد منهما للانتاج العلمى المثمر .

كانت الجامعة فى المرحلة الأولى قوية الانتاج بفضل الروح القوية التى كانت تنفخها فيها جامعة « أثينا » ، وبفضل ما احتفظت به من تراث أرسطو وأفلاطون وغيرهما من الفلاسفة والعلماء . وظهر فى هذا العصر الأول ، عصر تفوق جامعة الاسكندرية ، من العلماء « أقليدس » أبو الهندسة و « أراتوسثنيز » الفلكى الرياضى و « أرستاركاس » الفلكى و « كليماخوس » الأديب والعالم فى فن المكتبات ، ومن الأدباء الكبار « ثيوكريتس » الشاعر الصقلى الأصل . — أما الرياضيون فقد تأثروا من غير شك « بأرشميدس » الذى عاش فى « سيراكيوز » ، من أعمال صقلية ، والذى يقترن اسمه بما يعرف فى علم الطبيعة « بالثقل النوعى » Specific quality وليس هناك ريب فى أن جامعة الاسكندرية احتفظت بنظرياته ولا سيما هذه النظرية ، ومنها نقلت الى أوربا ، وأدركها البحث الحديث فأيدها ، واعتمد عليها .

وأما دارسو الفلسفة عن أرسطو وأفلاطون ، فقد كانوا على

الأرجح متمعنين فيها ، متفهمين لأصولها ، هاضمين لهـا ، دون أن يكونوا مضيفين اليها أو مبتكرين لجديد فيها ، ولم ينشأ للاسكندرية فى هذه المرحلة مذهب فلسفى ما ، وتأخر ظهور مذهبها الفلسفى الى المرحلة الثانية من مراحل حياتها ، وهى المرحلة التى كادت تتلاشى فيها الجامعة ويغيض انتاجها - أما الأدباء ، فقد كان زعيمهم « ثيوكريتس » صقلى الأصل ، كتب كل ما كتب تقريبا عن الحياة الريفية فى صقلية ، وتميز الأدب الذى نشأ بالاسكندرية بروح خاصة لم يكن أدبا مبتكرا ، وانما كان أدبا منقولا بوجه عام ، على أن هذا النقل فى ذاته فضل يذكر لجامعة الاسكندرية بالخير ٠ فقد ظلت على الرغم من عدم اقتدارها على الابتكار فى الأدب ، تناقش قضايا العلوم المختلفة ، وتبحث فى الطب وتهتدى فيه الى حقائق قيمة لم تسبقها اليها جامعة أخرى ، حتى أسلمت هذا التراث العلمى الى أوربا ، حيث احتفظت به الأديرة والكنائس الى عصر النهضة ٠

* * *

ثم أتى على الجامعة حين من الدهر كان شر مرحلة مرت بها ، فقد عانت فيه هوانا أدبيا شديدا بسبب ما قاسته المدينة نفسها من الهوان السياسى فى عصر البطالمة المتأخر ، وكان ذلك فى الحلقات السابقة للميلاد مباشرة ٠ وليس من شك فى أن انعدام الكبرياء القومى ، وحالة الاضطراب التى سادت هذا العصر قد أديتا الى هبوط شديد فى محيط العلم الذى لا يزدهر عادة الا فى بحبوحة من الحرية والعزة القومية ٠

ونحن لا نكاد نسمع عن عالم أو فيلسوف أو أديب فذ على طول هذا العصر ٠ وفى هذا الوقت اصطدمت الجامعة صدمة عنيفة بالمسيحية ، وحدث صراع هائل بين الجامعة باعتبارها معقل الوثنية الذى تركزت فيه كل علوم الوثنيين وآثارهم ، وبين الدين الجديد ، وكان لهذا الاصطدام أسوأ الأثر على العلم الاسكندرى ٠

دخلت المسيحية مدينة الاسكندرية ، وأعلنت عداءها لكل ما هو وثنى ، وأول مظهر من مظاهر الصراع بين الوثنية والمسيحية تحويل المعابد الوثنية الى كنائس مسيحية واعدام ما بها من آثار الوثنيين ، وفى هذا الصراع العنيف ضاعت كنوز للعلم عظيمة كان يحويهـــا معبدا « القيصريون » (١) و « السرابيوم » · وجعل المسيحيون من « القيصريون » كنيسة سموها باسم كنيسة « القديس ميخائيـــــل » وجعلوا من « السرابيوم » مجموعة كنائس أطلقوا عليها أســـــــماء القديسين : « دميان » و « قزمان » و « يوحنا المعمدان » وغيرهم ·

* * *

ومما لا خلاف فيه أن هذا الحادث الجـــــلل الذى طرأ على الاسكندرية ، لابد أن يكون قد أثر فيهـــا من ناحيتين : الأولى ، أنه أفقدها ثروة علمية جليلة القيمة ، والثانية أنه اتجه بها اتجاها فكريا جديدا ·

والحق أن هذا الحادث الذى نود أن نعتبره فاصلا بين عهدين ، حادث كبير الخطر فى ذاته ، لأنه يعين فى تاريخ الجامعة عصريين متباينين كل التباين ·

العصر الأول (٣٠٦ ــ ٣٠ ق٠م)

فيه قرب بطليموس « سوتر » (٣٢٣/٢٨٥ ق٠م) أعظم رجال الأدب والفلسفة فى عصره اليه ، ساعـــده فى اختيارهم صـــديقه الخطيب الأثينى « ديمتريوس فاليروس » وهو الذى وضع أســـاس مكتبة الاسكندرية ونظم جامعتها · بنى « سوتر » المتحف الاسكندرى ، وجعل منه « أكاديمية » للعلوم والآداب · وجاء بطليمــوس فيلادلف

---

(١) بنته كليوباترة تخليدا لقيصر ، وأودعته عددا لا بأس بــه من الكتب.

(٢٤٧/٢٨٥ ق٠م) فتابع العنـاية بالمتحف ، واشـترى للمكتبة مجموعة مؤلفات « أرسطو » وأضاف اليها مصنفات أخرى يهـودية ومصرية قديمة ٠

وجاء بطليموس الثالث فاشترى لها أشهر مؤلفـات الروائيين الأثينيين التى كانت تفخر بها مكتبات « أثينا » وتحلها بين محفوظاتها مكانا محترما ، وأجبر كل من زار الاسكندرية من الكتـات على أن يترك بها قبل مغادرته لها نسخة من مصنفاته ان كان من أصحـاب التصانيف ٠

ويمتاز هذا العصر الأول بأنه عصر أدبى علمى معا ، ولقد كان فى الواقع محاولة جبارة لاستئناف الثقافة الهلينية والسير بهـا خطوات أخرى الى الأمام ، فى وقت أصبحت فيه الاسكندرية المركز الوحيد فى العالم للاحتفاظ بهذه الثقافة ، وبقيت المدينة كذلك حتى القرن السابق للميلاد ، الوقت الذى نشأت فيـه مدارس أخرى فى رودس وسوريا آخذة عن الاسكندرية نظامها وعلومها ٠

* * *

وامتد ظل هذه المؤسسة الفذة فشمل العالم المعروف فى ذلك الحين ، وبقى هذا الظل الوارف ممتدا فوق ربوعه الى أن بسـط الرومان سلطانهم السياسى على مصر ، فانتقل مركز الثقـافة من الاسكندرية الى روما ، ولم يتح للاسكندرية أن تنشىء أدبا ممتازا ، ولم يعن الاسكندريون بغير نقد الأدب القديم ، وكتبوا أدبا لم يكـن قوميا بحال ، كان كل المقصود به أن يصادف هوى الفريق المتعـلم أنى وجد فى أى بلد من بلاد العالم القديم ، ولعل هذا يفسر المهمـة المزدوجة التى أخذتها الاسكندرية على عاتقها وهى مهمة الاحتفـاظ بالتراث الهلينى من ناحية ، واشاعته والنسج على منواله لارضـاء متذوقيه من ناحية أخرى ـ لهذا عز أن يظهر فى الاسـكندرية أديب مبتدع فذ فى ابتداعه ٠

ومما ساعد على ضعف الأدب الاسكندرى ، أنه كان وليد المادة ، فقد دأب البطالمة على اجازة قائليه ، بقدر ما تورط هؤلاء فى مدحهم ، والأدب الذى يباع بيع السلع لا يمكن أن يكون أدبا حقا ٠

* * *

وكان الأديب فى ذلك العصر غير منقطع للأدب ، فكثيرا ما كان الأديب مشتغلا بمسائل العلم البحت ، ولا جدال فى أن الأديب غير العالم ، والعالم غير الأديب ولا صلة بين الأدب البحت والعلم البحت ، فكيف اذن يكون الأديب عالما فذا ، والعالم اديبا مبدعا ؟

وأشهر أنواع الآثار الأدبية فى الاسكندرية فى عصر قوة انتاجها « الشعر القصصى » ، الذى كان أكثر الأنواع تداولا ورواجا ، وكانت المقطوعة أما تاريخية أو تهذيبية أو استعراضية تشرح أمرا من أمور الحياة ، أو تعبر عن عقيدة دينية ، وكان الشاعر يحرص على أن يصب فيها كل ما وعى قلبه من حقائق العلم الانسانى وأن يودعها كل مقدرته الفنية على الصياغة والسبك وحسن الأداء ٠

ولم يكن هناك ما يمنع من أن تكون المقطوعة منظومة علمية بحتة ، تناقش الطقس أو تصف علاجا للتسمم أو عض الحيوان المفترس ، أو غير هذا وذاك من المسائل التى لا تمت الى الأدب بصلة قريبة أو بعيدة ٠

والذى يمكن أن يقوله القائل فى غير ما حرج ولا تردد ، أن الأدب فى الاسكندرية كان صناعة أخص صفاتها دقة فى التعبير ، ومراعاة للأوزان ، ومحاولة الى كل ما يجعل الفن الشعرى بالغا حدا من الكمال ، وهذه وان كانت كلها صفات لا يستقيم الأدب بدونها ، الا انها ليست أهم مميزات الأدب القيم ، فهى لا تغنى عن الابتكار والموضوعية والذوق الأدبى والصياغة الفنية ٠

وأنبغ شعراء الاسكندرية فى العصر الأول «كليماخوس» Callimachus وقد عفت معظم آثاره الأدبية ، اللهم الا بعض الأناشيد ·

ومن أوضح ألوان الأدب الاسكندرى «الشعر التمثيلى» · وقد قام سبعة من أدباء العصر الأول بتأليف « اليانة الاسكندرية » ، ولا ندرى أين يمكن العثور على هذا الأثر الأدبى الكبير ، ونشأت بالاسكندرية « الرواية الهازلة » لنفس الغرض الذى نشأت من أجله فى بلاد اليونان (١) من قبل ، ألا وهو نقد المجتمع الاسكندرى الراقى، باظهار عيوبه على المسرح ، بطريقة لاذعة أصابت هذا الفريق من الناس فى صميم مواطن الضعف فيه ·

وكانت للنقد منزلة عظمى بين فنون الأدب الاسكندرى ، وكان موضوع النقد آثار الأغريق الأدبية ، فقد تنوولت بالشرح والتعليق مدة قرنين ، فضمن لها ذلك حياة خالدة ، ووضوحا أبعدها عن اللبس والابهام ، حتى أصبحت هذه الآثار بفضل أدباء الاسكندرية ونقادها مفهومة على توالى الأيام ·

وخدمات جامعة الاسكندرية فى هذا السبيل لا تقدر ، فقد قامت بمهمة تذكر بالفضل ، أشبه ما تكون بمهمة الناشر والشارح لهذه الآثار الأدبية اليونانية ·

وليس هناك من شك فى أن مهمة النقد تحتاج الى المام تام بفروع المعرفة الانسانية ، وكانت معارف علماء الاسكندرية وأدبائها واسعة غير محدودة ، وكان ذلك من خير النقد ، ولا يبعد أن تكون

---

(١) جرى الاسكندريون من كتاب الرواية الهازلة على سنن أستاذهم « ميناندر » Menander الأثينى ، وعرفت آثارهم باسم « الكوميديا الجديدة » ·

نشأة « علم القواعد » و « تصنيف الموسوعات » ووضع « القواميس اللغوية » وغير ذلك من العلوم القريبة الاتصال باللغة قد صنحبت هذه الحركة الأدبية الواسعة النطاق ، حركة نقد الآداب اليونانية . وبذلك تكون جامعة الاسكندرية قد سبقت جامعات العالم طرا فى وضع الموسوعات والمعاجم اللغوية . .

ولولا هذه الجهود المشكورة فى الدراسات الأدبية ، لما أمكن الاستفادة من مخلفات الاغريق ، ومن أشهر النقاد الاسكندريين فى الفترة الأولى من حياة الجامعة « أرستاركس » و « كليمـــاخوس » و « زنودوتس البيزنطى » .

والى جانب المدرسة الأدبية كانت تقوم المدرسة « الرياضية » وزعيمها « أقليدس » ، ومن أشـــهر علمائهـــا « ارشميدس » (١) و «أبولونيوس» صاحب رسالة «القطاع المخروطى» Conic Section و « اراتوسثنير » أول من حاول قياس محيط الأرض و « هباركاس » أول باحث فى السموات ، وهو الـــذى قرن لأول مرة أن الشمس هى المحور الذى تدور حوله الكواكب السيارة .

ويقترن تاريخ الطب والتشريح فى هذا العصر الأول باسـمين لامعين همـــا : « هيروفيلوس » و « ايروسيتراتس » أول جراحين عرفهما العالم القديم ، ومما ساعد على تقدم الطب والتشريح بوجـه خاص أن البطالمة كانوا يمدون المتحف الاسكندرى بالمجرمين الـذين يراد تنفيذ عقوبة الاعدام فيهم لتشريح أجسامهم ودراسـتها ، على ما تقدم .

---

(١) ارشميدس لا يعتبر فى الحقيقة من علماء الاسكندرية الا أن أثره على أفراد مدرستها الرياضية كان كبيرا جدا ، طبعهم بطابعه فى البحث حتى لا يمكن لباحث أن يغفل ذكره عنـــد الكلام على تلاميذه الاسكندريين ، فاسمه علم عليهم جميعا .

وفى جامعة الاسكندرية كشفت فى هذا العصر وظيفة « الأعصاب » ونقلها لانفعالات الفرح والحزن وغيرهما من أنواع الانفعالات . وهكذا عرف الاسكندريون لأول مرة أن المخ هو جماع الجهاز العصبى . وكان علماء الطب فى الاسكندرية يفهمون « الدورة الدموية » تمام الفهم ، أما « الجهاز العصبى » ، فلم يكن قد عرف بعد معرفة تامة ، وكانت الاسكندرية بوجه عام مركز الثقافة الطبية فى العالم القديم ، يؤمها الشبان الراغبون فى تعلم الطب من كل حدب وصوب على نحو ما يؤمون الآن جامعات أوربا وأمريكا لنفس الغاية .

أما عن علمى النبات والحيوان ، فقد ظل « أرسطو » وأتباعه القادة فى هذا الميدان ، على أن الحقائق التى وصل اليها الاسكندريون كان ينقصها الكثير من الدقة لاحتوائها على بعض الأغلاط الناشئة من عدم وجود المجهر (الميكروسكوب) . وظلت الاسكندرية تحمل لواء الرياضة والفلك والطب الى ما بعد الميلاد بزمن غير قصير .

العصر الثانى (٣٠ ق.م – ٦٤٢ م)

كانت المسيحية حادثا جللا له خطره فى دائرة العلم الاسكندرى فقد أسفر النزاع بين المسيحية والوثنية عن أسوأ الآثار ، وأمحت بالتدريج روح البحث العلمى الصحيح ، وربما كان السبب فى ذلك هو زوال المراجع العلمية ، وكراهية المسيحية لكل ما هو وثنى ، ونشأت بالاسكندرية من أثر ذلك روح أخرى جديدة ، لم تعتمد على الفكر البحت ، وانما أفسحت المجال للأوهام والخيالات ، وأمدتها المسيحية واليهودية بكثير من تعاليمهما ، فنشأت بذلك مدرسة فلسفية لا تعتمد على « الفكر » الذى هو أساس الفلسفة الصحيحة ، بقدر ما اعتمدت على « الالهام » ، لاءمت هذه المدرسة الفلسفية بين عناصر يهودية وهلينية متقاربة ، فكانت بطبيعتها هذه شرقية غربية فى وقت واحد .

وأنتجت الروحانيات اليهودية ، باختلاطها بالفكر اليونانى مسألة جديدة فلسفية الذوق فى بعض مظاهرها ، آخذة بعض آراء اليهود فى الحق الالهى ـ ولقد أمدت مبادىء اليهود فى الأخلاق فلاسفة الاسكندرية بمادة فكرية لا بأس بها فى عصر أخص مميزاته جدب فكرى عظيم أخذت تعانيه المدينة على أثر دخول المسيحية فيها ٠

وهذه المسألة الجديدة التى نشأت من هذا التفاعل ، مسألة متشعبة أساسها « فلسفة افلاطون » و « فيثاغورس » وقد تسمت فى الاسكندرية باسم « الافلاطونية » الحديثة و « الفيثاغورية الحديثة »

وزعيم هذه المدرسة الفلسفية « أفلوطين » ، ومن أقدم علمائها فيلو » وهو فيلسوف يهودى كونت أبحاثه نواة هذا المذهب قبيل معرفته وذيوعه بأكثر من قرنين من الزمان ٠

* * *

على أن من أسباب ضعف الانتاج فى جامعة الاسكندرية فى هذه الفترة الثانية من حياتها ، يرجع أول ما يرجع الى الخلافات التى دبت بين أفراد البيت المالك في مصر ، فقد أدى تشاحن البطالمة فيما بينهم على اعتلاء العرش الى حروب ومنازعات افقرت خزائن البلاد وعاقت من تقدم الفكر فى الفترة التى أعقبت موت بطليموس الثالث ، أى منذ عام ٢٢١ ق ٠م ـ ففى تلك الفترة الزمنية التى تنتهى بعام ٣٠ قبل الميلاد ، كانت البلاد مسرحا للاضطراب والتدهور السريع ٠ ويعتبر ضعف الانتاج فى هذه الحقبة مقدمة لحالة الامحال الفكرى الشديد الذى أصاب الجامعة فى عهدها الثانى ٠

وعلى الرغم من ذلك ، فقد ظهرت بالاسكندرية بعد الميلاد حركات فكرية لا بأس بقوتها فى نواحى الآداب والطب والعلوم ، فى عصور سادها الصراع العنيف بين المسيحية والوثنية ـ ففى الفترة التى تنتهى بعام ٢٧٣ للميلاد وجدت الجامعة من عناية القياصرة مثل

ما وجدت من عناية البطالمة من قبلهم ، فقد كان الامبراطور «هدريان» مثلا يختلف إلى « المتحف » ويشترك فى المناقشات العلمية والأدبية فيه ـ وكان اعتماد هذا العصر على المكتبات الفرعية فى السرابيوم والقيصريون ومكتبات الأفراد • ومن أظهر شخصيات هذه الفترة من حياة الجامعة الخطيب « بولكس » Pollox الذى أنشأ له الامبراطور كرسيا لتدريس فن الخطابة فى الجامعة ، وهو ممن كانوا يحذقون قواعد اللغة اليونانية وآدابها •

على أن انعدام الحرية السياسية والفردية فى العصر الرومانى وانشغال البلاد بمصيرها السياسى ، لم يدعا مجالا للعناية بالعلوم والآداب • وأشهر انتاج موروث عن النصف الأول من القرن الأول الميلادى ؛ بعض المساجلات الأدبية التى وصلت الينا مدونة على قطعة من ورق البردى ، وبعض الأشعار من انتاج الشاعر « هليودورس » معروفة باسم « الأثيوبيات » ، وشعر هذا العصر ضعيف ينعدم فيه التجديد ويطبعه التأخر ، ومعظم كتاب هذا العصر من غير الاسكندريين • وفيه شاعت طريقة نظم العلوم فى منظومات شعرية تسهيلا لحفظها ، ومن أشهر شخصيات العصر الطبيب المشرح « كلود جالين » الذى بلغ على يديه فن التشريح مبلغا رفع من شأن الاسكندرية وخلد ذكرها فى الطب الجراحى • وكانت الدولة الحاكمة حربية الطابع لا تعنى الا بكل ما له مساس باقامة صرح الامبراطورية والى هذا يعزى ضعف انتاج العصر الثانى بوجه عام • وعلى الرغم من كل ذلك فقد أنجبت الاسكندرية المهندسين « منيلاس » الذى درس « الدائرة » و « سيرنوز » الذى خطط مدينة السويس ، فضلا عن « بابوس » الذى قرب « أقليدس » و « أبولونيوس » و « أرشميدس » الى افهام الناس ـ ولولا جهود هؤلاء وجهود العالم الجغرافى « كلوديوس بطليموس » لاتصف هذا العصر بالجدب العلمى الشديد، وللعالم « ثيون » وابنته الفيلسوفة الوثنية « هباشيا » فضل يذكر فى رفع شأن الاسكندرية فى هذا الشطر من حياتها العلمية ، وكثير من

العلماء الذين أظهرهم هذا العصر اشتغلوا بمسائل اللغة وعلقوا على الأشعار الهومرية ، ومن أشهرهم « أبولونيوس الديثكولى » .

ومن فلاسفة هذا العصر « أمونيوس سكاس » زعيم المدرسة الفلسفية المعروفة باسم « الأفلاطونية الحديثة » • وتلميذه «أفلوطين» الذى ينتسب اليه المذهب • وهما خير من يمثل الحالة الفكرية فى هذه الفترة من الزمن ، وهى حالة غلب فيها اللجوء الى الالهام فى كشف حقائق الأشياء دون المنطق ، فقد اعتقد فلاسفة الاسكندرية فى هذا العصر (وهم معلمو الأفلاطونية الحديثة) أن هناك شيئا أسمى من الفكر فى ادراك حقائق الأشياء ، هو البصيرة أو الكشف ، وهما كفيلان عندهم بادراك حقائق الأشياء • ويعزى كثير من الخسارة العلمية فى العصر الرومانى الى الصراع بين المسيحية والوثنية وضياع كثير من الكتب فى هذا الصراع ، وكان اثر الوثنيين بالغا فى حالة المدينة العلمية ، حتى بعد ذيوع المسيحية وانتشارها ــ فقد أبيح للفلاسفة الوثنيين أن يحاضروا فى الجامعة فى فترة قلت فيها روح العداء للمسيحية ، وكان لعودة الوثنيين الى الظهور على مسرح الحياة الفكرية فى الاسكندرية اثره فى انعاش الحركة العقلية فى المدينة ، والحق أن تقدم الفكر الاسكندرى أو تأخره على طول العصر الرومانى ، كان مرهونا بقيام الوثنيين أو قعودهم عن الاشتراك فى مسائل العلم والفلسفة ــ فلما أن فقدتهم المدينة نهائيا فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، بسبب قتل الامبراطور « زينو » للأساتذة الوثنيين فى الجامعة ، بدأ عهد الاسكندرية بالاضمحلال العلمى • وبفناء هذا الفريق اطرد عدد العلماء المسيحيين ، ومن أشهرهم فى القرن السادس « حنا فلبونس » اللغوى العالم بالتوحيد والمعلق على فلسفة أرسطو ، وهو من خيرة مفكرى الاسكندرية ذوى الآراء الحرة التى كانت تدنو فى نظر بعض البطارقة من الهرطقة ، وهو مؤرخ مشهور اعتمد عليه « بطلر » Butler مؤلف «فتح العرب لمصر» فى كتابه Arab Conquest of Egypt

ومن الشخصيات البارزة فى نهاية القرن السادس الميلادى «اسطفان الفيلسوف» ، وهو من الأساتذة المسيحيين الذين درسوا « أرسطو » وعلقوا عليه ، ومن الذين أضعفوا عقيدة « الطبيعة الواحدة » للمسيح . وقد حورب من أجل ذلك حتى رحل عن الاسكندرية ، وفى خواتيم هذه الفترة كانت الروح الهلينية تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وذلك بسبب إنتصار المسيحية على الوثنية واندحار الآراء الحرة ، واكتمال حركة النهوض القومى بين أقباط مصر ، وكان من جراء ذلك تدهور محسوس قضى قضاء تاما على ما كان للاسكندرية من آداب وعلوم ــ اللهم الا بقية من الطب والكيمياء أدركها العرب فى الاسكندرية ممتزجة بالمعجزات والتنجيم ، وخلاصة من الفلسفة مختلطة بالدين أشد الاختلاط .

الفصل الحادى والعشرون

فلسفة الاسكندرية

« فيلو » وبوادر فلسفة جديدة ـ أمونيوس سكاس ـ أفلوطين ومذهب الاسكندرية (الأفلاطونية الحديثة) ـ أثر الأفلاطونية الحديثة فى نشوء التصوف المسيحى ـ أثرها فى فلسفة العصور الوسطى « المدرسية » ـ أثرها فى التصوف الاسلامى ـ هل من أثر لها فى سبنوزا وديكارت ؟

فيلو : ولد فيلو سنة ٢٥ ق٠م من أبوين يهوديين بمدينة الاسكندرية ، ومات سنة ٥٠٠ بعد الميلاد ، فهو معاصر لدخول المسيحية الى الاسكندرية ، شهد صراعها مع الوثنية ، ذلك الصراع الحاد الذى كان له أثره على العلم والفلسفة ٠

وهو زعيم مدرسة فكرية أنشأها فى الاسكندرية ، جمعت بين التوحيد اليهودى وفلسفة افلاطون ٠ وما وصلنا من كتاباته يلقى ضوءا ساطعا على روح ذلك العصر ، بما كان فيه من صراع بين اليهودية والوثنية ، وبين المسيحية والفلسفة اليونانية ٠

وهو أول من وفق بين التعاليم الأخلاقية اليهودية والفلسفة اليونانية ، حاول جاهدا أن يدلل على أن كل الآراء اليونانية أو جلها مستغرقة فى مبادىء اليهود الأخلاقية ٠ والى هذا الزعم انصرفت كل جهود اليهود المشتغلين بالمسائل الفكرية فى ذلك العصر ، فكل ما وصل اليه العقل اليونانى مستمد فى نظرهم من التوراة ، ومن شريعة موسى عليه السلام ٠

وعند « فيلو » أن العقل اليونانى ، بما أوتى من مقدرة فائقة على استكناه الحقائق ، عجز كل العجز عن ادراك حقائق الأشياء ، وأن التفسير الوحيد لكل اشكال من هذا النوع يلتمس فى التوراة · فليس شيء عنده أقدر على شرح حقيقة الكون من ذلك الكتاب المقدس ·

و « فيلو » أول عقل حاد بالفلسفة عن طريقها المنطقى ، ونحا بها نحو الالهام والتصوف ـ وهو على بعد الشقة بينه وبين «سكاس» و « أفلوطين » استاذهما فى هذا المضمار · والخلاف بينهما يتلخص فى أن « فيلو » هذا مزج بين اليهودية والفلسفة اليونانية ، أما ممثلو الأفلاطونية الحديثة فقد مزجوا بين الوثنية والفلسفة اليونانية ـ وليس معنى هذا أنهم لم يقبلوا العنصر اليهودى الذى جاءهم مندمجا فى هذه الفلسفة منذ ألصقه بها فيلو ·

ويرى « فيلو » أن الحواس والعقل معياران كاذبان للمعلومات لا يصح تصديقهما ، وأن المعلومات الانسانية لدنية صرف ، نشأت فى الفكر نشوءا داخليا لا علاقة للحواس به ، وهو لا يعترف بأن الله خالق المادة ، وانما عالم المادة عنده من خلق قوى أدنى من القوة الالهية ·

وهو يشبه فكرته فى الخلق وصلة الاله بالمادة ، بانبثاق نورانى ينبع من الاله ، تمتد منه خيوط تأخذ فى الضعف والزوال عند بلوغها عالم المادة ـ فالله نور ، والمادة ظلام ، ولا علاقة فى رأيه بينهما

لم تعن جامعة الاسكندرية فى عصرها الأول بدراسة الفلسفة عنايتها بالعلوم والآداب اليونانية ، ولكن مما ليس فيه شك أن فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو كانت موضوعات للدراسة فى « المتحف الاسكندرى » وكذلك كانت فلسفة الرواقيين والأبيقوريين ··

تناول الاسكندريون هذه الفلسفات تناول المعجب بها ، وقرروا بادئها تقريرا ، من غير أن يقوموا بمجهود يذكر للانتفاع بهذه الفلسفات المختلفة فى ابداع نوع جديد • وهكذا كانت دراسة الاسكندرية لفلسفة اليونان مجرد تعلق بأهداب القديم •

* * *

ثم جاءت المسيحية بتعاليمها الجديدة ، فوقفت وجها لوجه أمام كل شىء وثنى ، تصارعه فتصرعه أو تتأثر به وتتخذه سندا لها وعونا ـ كان هذا شأن المسيحية مع فلسفة الاسكندرية ، رفضت منها الجانب الفلسفى البحت الذى لا يظاهرها ، وقبلت الجانب الذى رأته لا يتعارض مع مبادىء الدين الجديد •

وهضمت المسيحية فيما هضمت من الفلسفة جانبا يهوديا لاهوتيا مختلطا بشىء غير قليل من آراء الاغريق فيما وراء الطبيعة • رأت المسيحية وهى تحارب جامعة الاسكندرية الوثنية أن تقبل هذه العناصر مختلطة ، وأن تستعين بها جميعا على الذيوع والانتشار ، متخذة لنفسها بهذا سندا من الفكر القديم •

قبلت المسيحية بعض الآراء الفلسفية ، ولفظت بعضها الآخر ، وظهر من المتحمسين للمسيحية ، الذين رأوا ضرورة للتشبث بالفلسفة فريق خلطوا الدين بالفلسفة ، وأنتجوا نوعا من «التصوف» بنوه على أسس مشوهة من فلسفة أفلاطون •

الأفلاطونية الحديثة Neo Platonism

الأفلاطونية الحديثة آخر مدرسة فلسفية عرفها العالم القديم ، سادت تعاليمها بين اغريق الاسكندرية ابتداء من القرن الثالث الميلادى ، وهى فى مجموعها نوع من المحاولة الفلسفية التصوفية لتفسير الكون ، كما أنها فى الواقع خاتمة ثانية لفصول الفلسفة اليونانية القديمة •

حقرت هذه الفلسفة من شأن الحقائق العلمية البحت ، وجعلت للتصوف والالهام المنزلة الأولى فى تفسير الظواهر الكونية ٠

وكل مظاهر هذا الضرب من التفكير روحيــة محض ، لا تعنى بالجانب المادى من العالم ، وانما تفرغ كل عنايتها للجانب المعنـوى منه ، وهى تأخذ بنظرية « المثاليين » ولا تعترف بنظرية « الماديين » ، ترى أن الحقائق الانسانية وليدة الفكر نفسه من غير تدخل الحواس، فهى لا تصل اليه من العالم الخارجى كما يرى الماديون ، وبعبـــارة اخرى يرى أتباع هذا المذهب أن « الفكر هو الحقيقة » ٠

* * *

ومن هذا نرى أن فلاسفة الأفلاطونية الحديثة عاشوا على غذاء فكرى ضـــئيل ـ لأنهم أساءوا النقل عن « أفلاطون » ، حين تعلقوا بما أوردوه من التشبيهات التى لم يسقها الا على سبيل التمثيل، من غير أن يأخذوا عنه آراءه الحقيقية فى « المثل » ٠

وعاش الشعب الاسكندرى على ترهات وخرافــات مجـــدتها هذه الفلسفة الجديدة بكل ما وسع الفكر الشرقى من تشبث ، ومــا طبع عليه من استسلام للأوهام ٠

ونظرا لما كان للاسكندرية من مركز متوسط بين أجزاء العــالم القديم ، تلاقت فيها ألوان من الفلسفة اليونانية ، فتناولتها بالدرس والشرح والتعليق زمنا فى جامعتها ، ثم أنتجت فى عصر ضـــعف الجامعـــة نوعا من الفلســـفة عرفت به وعرف بهـــا ، هو فلسفة « الأفلاطونية الحديثة » ٠

أخذت فلسفة الاسكندرية من كل فلسفة سابقـــة بنصيب ، ثم مزجت هذا الخليط الفلسفى بالدين وبالتصوف ، فهى آخذة من أرسطو أسلوبه المنطقى ، كما هى قائمة على طريقة « اختيار » ما يحلو لهــا من المذاهب المختلفة ـ ليس لها اعتماد ما على حقائق العلم المادى ،

وعن أفلاطون نقلت كل آرائها فى « المتـافيزيقا » ومن « الرواقيين » استمدت تعاليمها الأخلاقية ، وزادت على ما أخذت عن هؤلاء جميعـا ما ساغ لها من تصوف خاص أكسبها طبيعتها المعروفة ٠

فرقت الأفلاطونيـــة الحـــديثة تفريقا واضـــحا بين الروح والمادة ، على نحو ما فرق بينهما الفلاسفة اليونانيون من قبل ، وكما فرقت « الفيثاغورية » الحديثة نفسها ، وهى تأخذ فى ذلك بالمـذهب « الاثنينى » (١) الذى يفصل المادة عن الفكر ولا يعتقد بوجود اتصال بينهما . وهذا هو العنصر الفلسفى في الأفلاطونية الحديثة ٠

وقد مر بنا أن هذه الفلسفة أضافت شيئا أسمى من الفـكر فى ادراك حقائق الأشياء هو البصيرة ، فعن طريق « الكشف » يمكن أن تدرك حقائق الأشياء . وهذا تصوف صرف لا صلة بينه وبين العقـل البحت ٠

* * *

اكتسبت الفلسفة هذه الروح الغريبة من احتكاكهـــا بالدين ، ورغبتها فى مناصرته ، وربما كانت هذه الفلسفة قد تعمدت التحقير من شأن العـــــلم المدرك بالحواس ، لتكون الى الدين أقرب ٠٠ ولا غرابة فقد كان معظم فلاسفة هذا العصر من رجال الدين ـ بل لقـد كادت الأبحاث الفلسفية بجميع أنواعها تكون وقفا على رجال الدين المسيحى أنفسهم ، وهؤلاء تذرعـوا بأساليبها فى الاقنـــــاع لنشر العقيدة المسيحية ٠

وأول مبشر بهذه الفلسفة الجديدة « أمونيوس سكاس » ٠

* * *

امونيوس سكاس : أمونيوس سكاس هو مبتدع هـذا الضرب من الفلسفة فى الاسكندرية . وأول أستاذ له ، نصرانى النشأة ، درس

---

(١) زعيم هذا المذهب « افلاطون » . وقد حاول ارســـطو أن يصحح من خطأ هذا الرأى ٠

فلسفة أرسطو وأفلاطون ، وتشبع بآرائهما ، غير أنه رأى أن العالم فى عصره تد هوى الى حضيض غلبت فيه نزعة الشر على نوازع الخير ، وانحدرت فيه النفس البشرية من سماء الطهر الى وهدة من الأدران سحيقة ، فكان لابد لها من نوع من الفلسفة يقنعها أن سموها وتحررها انما هو باتصالها بالخالق ، وابتعادها عن شرور المادة وآثامها ·

وهكذا كانت الأفلاطونية الحديثة العلاج الروحى لتلك الحالة السيئة · ولم يخلف « سكاس » أثرا مكتوبا من فلسفته ، ومات فى منتصف القرن الثالث للميلاد ·

* * *

افلوطين : أفلوطين تلميذ لأمونيوس سكاس · هضم تعاليمه لدرجة جعلته يعتبر فى نظر كثير من مؤرخى الفلسفة مؤسس « مذهب الاسكندرية » ·

ولا يعرف التاريخ كثيرا عن حياته الخاصة ، لأنه أبى أن يدون شيئا عن الجانب الجثمانى من نفسه مبالغة فى الزهادة واحتقار المادة ·

ولد فى أسيوط فى أوائل القرن الثالث الميلادى ، وتلقى علومه الفلسفية فى جامعة الاسكندرية ، وشغف بدراسة فلسفة الهنود ، وفلسفة الفرس التى درسها فى فارس عن كثب · وحوالى منتصف القرن فى الوقت الذى مات فيه أستاذه « أمونيوس سكاس » رحل الى روما وأسس هناك مدرسة أخذ يعلم فيها مذهبه فى مقاطعة (كمبانيا) مكرما من الامبراطور « جالينوس » ومن عظماء تلك المقاطعة الذين وكلوا اليه أمر تثقيف أبنائهم وتربيتهم على تعاليمه ·

وحياته الخاصة نموذج للتقشف البالغ ، كان يقل من الطعام ومن النوم ومن الشراب رجاء الاتصال الروحى بالخالق ـ ويزعم

انصار هذا المذهب ان زعيمهم استطاع بالتجرد ان يصل الى الله اكثر من مرة ، وأن يندمج معه اندماجا تاما ٠

* * *

ولأفلوطين أهمية خاصة فى عالم الفلسفة ، فهو فى الواقع آخر فيلسوف فى العالم القديم ، كما أنه المبتدع الأول (للمتافيزيقا) (١) المسيحية ، وأول مقرر فى تاريخ التوحيد المسيحى للعلاقة بين المتافيريقا والأخلاق ٠ وفلسفة أفلوطين قائمة على فكرة « أفلاطون » فى « المثل » مع شىء من التشويه ، ورأيه فى العالم أنه من خلق قوة خارقة تعجز العقول عن ادراك كنهها ، أزلية غير متناهية ؛ لا صلة للروح أو المادة بها ٠ وهذه القوة مؤثرة فى الكون ، غير متأثرة به ، ارادتها مطلقة لا راد لها ، وذاتها منزهة عن كل وصف ، لأن الوصف من مستلزمات المادة ، وهى ليست منها بحال ، لا مكان لها تستقر فيه ولا زمان ٠ وفى عبارة موجزة هى قوة تخالف ما فى الوجود من قوى ، ولا تتصل بالوجود بأى نوع من أنواع الاتصال ، لما فى ذلك الاتصال من التدلى الى حضيض المادة ٠

اذا كان هذا ، فكيف تفسر هذه الفلسفة « نظرية الخلق » ؟ كيف نشأت الكائنات اذا كان الخالق منقطع الصلة بالكائنات ؟

يرى « أفلوطين » أن الكون نشأ عن الاله بطريق « الفيض » ، على نحو ما يفيض الضوء من اللهب ، والبرد من الثلج ٠

وأول شىء فاض عن الاله بهذه الطريقة هو العقل ، وعن هذا العقل انبثقت « نفس كلية » وعن هذه النفس الكلية انبثقت « نفس جزئية » هى نفوس البشر ، وهذه النفوس الجزئية أدنى مراتب العالم الروحانى الذى يبدأ بالاله ٠ وشاء « أفلوطين » أن يخرج من النفس

---

(١) ما وراء الطبيعة ، الخالق ٠

الكلية نفسا ثانية هى « الطبيعة » ، وهى التى تتصل وحدها بالعـالم المـادى ٠

والمادة عند أفلوطين أبعد الكائنات عن الكمال ، وهى مصـدر الشرور لأنها عبارة عن العدم ، والعدم أشد درجات النقص ، وغاية الحياة التحـــرر من سلطان تلك المادة ، وما دامت المادة شرا ، فلا اتصال لها بالخالق ، لأنه خير مطلق ، ولا يمكن أن يكون للخـــير بالشر اتصال ٠

ويؤخذ على أفلوطين أنه استسلم للأوهام ، وجعلها أســـاسا لفلسفته ، وما الفيض الذى رآه الوسيلة الوحيدة للخلق الا محض خيال ووهم كبير ٠

وأسمى ما تطلعت اليه الأفلاطونية الحديثة هو الوصـــول الى حالة استقرار نفسانى ، يخرج العالم من ظلام الحيرة والشـك الذى انتـــابه فى ذلك الوقت ـ اذ لم يكن بد فى وقت ســـاد فيه مذهب الشك (١) (الذى يقرر أن العقل لا يستطيع الوصول الى حقـــائق الأشياء بالفكر) من وجود فلسفة تخرج الانسان مما يعانيـــه من الحيرة ، ترى فى الكشف والالهام طريقا للوصول الى « الحقـائق » التى قرر « الشكاكون » عجز الفكر عن ادراكها ، وهذا هو التصوف الذى دارت حوله الأفلاطونية الحديثة ٠

ويصعب أن يقبل الفلاسفة هذا الضرب من التفـــكير على أنه فلسفة ، ولا حاجة بهم الى اخضاعه لقوانين المنطق الصارمة اشفاقا عليـه منهـا ٠

ولأفلوطين فى الوصول الى حالة التجرد والاتحاد مع ذات الله خطوات لابد « للمريدين » من سلوكها :

---

(١) Scepticism

الأولى : ـ التحلل من شرور المادة وسلطانها القاهر بالرياضة على شظف العيش والتقشف ٠

الثانية : ـ التأمل والتفكير للوصول الى الحقيقة العليا ٠

الثالثة : ـ الوصول الى حقائق الأشياء بطريقة لدنيـــة بحت سبيلها التحلل من شرور المادة بالزهادة فيها ، والتفــكير فى ادراك الحقيقة العليا بالتأمل العميق ٠

الرابعة : ـ الاتحـــــاد مع الله والانــدماج فى ذاته والتجلى الأعظم ، فاذا نعمت النفس الانسانية بهذا الاتصال الالهى ، أستقرت فى مقامها الأول ، وسعدت بذلك المقام زمنا ٠

ولا سبيل الى التجرد والاتصال بالخــالق الا بترويض النفس على الزهادة والتقشف ٠

* * *

وقدر لمذهب الاسكندرية هذا أن يتشكل فى سوريا وروما واثينا بعض التشكل ، مع محافظته على أســـاسه التصوفى فى كل مكان ـ ففى روما اتخذت الأفلاطونية الحديثة على يد زعيمهـا هنــاك « بروفيرى » (فورفيروس) شكلا قل فيه الاعتماد بعض الشىء على التصوف ، امتاز بالوضوح لأنه كان منطقيا ـ وفى ســوريا زادت حدة النزعة الدينية فى الأفلاطونية الحديثة ، وازدادت غموضا هناك على يد ممثلها « جامبليكوس » ٠

وبعد القرن الخامس الميلادى انزوت الأفلاطونية الحديثــة فى وكر الفلسفة الأول ، فى « اثينا » حيث علمها « بروكلوس » آخــر معلم للفلسفة القديمة ، وعلى يديه ناصبت الأفلاطونية الحديثــة المسيحية العداء ، واشتدت حماستها للموسوية والوثنية ٠

وفى ســنة ٥٢٩ م اغلق « جستنيان » المدارس الفلسفية التى

التصوف الاسلامى سابق فى وجوده على دراية العرب بهذه الفلسفة .
ومن الانصاف ن نعيد القول هنا بانها لم تخلق التصوف الاسلامى ـ
وانما دخلت عليه فقط ، فلم ير فيها ما يخالف طبيعته ، فقبلها ، وأخذ
منها ما يقوى هذه الطبيعة ، كان ذلك فى العصر العباسى حين ذاعت
فلسفة الاسكندريين بين العرب على يد السريان .

* * *

والمتأمل فى فلسفة « سبنوزا » و « ديكارت » يرى أنهما أخذا
أصولا لفلسفتها من الأفلاطونية الحديثة ، ويرجع الفضل فى ذلك الى
يهود العصور الوسطى ، وليس مذهب « فطرية الأفكار » عند
« ديكارت » الا رجوعا الى ما قرره أفلوطين من أن النفس كانت بادىء
ذى بدء نقية تكدست حولها الأدران ، فلو أنها استطاعت أن تنقى
ذاتها لشعرت أنها لا تحتاج الى مزيد من العلم يأتيها عن طريق
الحواس ـ عندئذ تهتدى النفس الى كل شىء بهدى الهى هو الأفكار
أو حقائق الأشياء الحالة فيها « بالفطرة » .

وأشهر الآثار الفلسفية الباقية من هذه الحقبة « التاسوعات » Enneads
وتقع فى أربع وخمسين مقالة ، ظهرت لها طبعة
لاتينية عام ١٤٩٢ م ، ثم طبعت فى أواخر القرن التاسع عشر ، طبعها
« ملر » Müller ثم ترجمها الى الانجليزية « ماك ـ كنا » سنة
١٩١٧ م :

وخير من تناول أفلوطين وفلسفته بالكتابة « انج » الذى وضع
كتابه « فلسفة أفلوطين الدينية » (١٩١٤) ، و كتابه « فلسفة
أفلوطين » (١٩١٥) .

* * *

وقد سبق لنا أن قلنا أن العرب كانت لهم طريقتهم فى الأخذ
عن فلسفة أفلوطين ، وسقنا فى هذا المجال مثالا من تناول الشهرستانى
لهذه الفلسفة ، وهذا مثال آخر :

وجدها في أثينا وسوريا وروما . فقد من وجهة « دمامسكياس » الدمشقي الى بلاط « كسرى » ملك الفرس ومعه عدد من أتباعه يبتغون عنده نصرة لمذهبهم الفلسفي ، ولكنهم باءوا بالخيبة فيما هاجروا من أجله ، وضمن لهم « كسرى » عند « جستنيان » بعد عودتهم من بلاد الفرس حياة وأمنا .

وفى القرن السادس الميلادي قضى على الفلسفة بكل أنواعها قضاء تاما ، فلم تعد تدرس هنا أو هناك ، وحلت محلها آراء ومذاهب دينية مسيحية شغلت الأذهان فى القرون الوسطى ، طرأ عليها ما طرأ من الفساد حتى أدركها الاصلاح على يد « كلفن » و « ولوثر » وغيرهما .

وليس معنى هذا أن الآثار الفلسفية ذاتها أمحت من الوجود ، بل كل ما حدث أنها فقدت الألسنة الناطقة بها والعقول الباحثة فيها والقوة الناشرة لها ، واستكنت فى خزائن الأديرة والكنائس زمنا ، يقرؤها رجال الدين فى صمت عجيب ، ويفيدون منها ما يفيدون ، الى أن جاء عصر احياء العلوم ، فقدر لآثار أرسطو وأفلاطون والاسكندريين أن ترى النور من جديد ، وأن تنال على ضوء العقل الحديث ما تستحق من تقدير ونقد .

* * *

ومال العرب فى العصر العباسى الى دراسة الفلسفة اليونانية عامة ، فأخذوا عن اليونان أساليبهم فى الفكر وأقيستهم فى المنطق ، ومسلكهم فى الحوار ، وأدخلوا بذلك على الدين الاسلامى حركة تعقلية امتاز بها العصر العباسى الأول ، هى حركة « الاعتزال » ، ثم نقلوا عن فلسفة « الاسكندرانيين » روحها التصوفية ، لأنهم وجدوا فيها ملاءمة تامة بين الدين والفلسفة ، فمالوا اليها وانتفعوا بها .

واذا حق القول بأن هذه الفلسفة أنشأت التصوف المسيحى انشاء ، فلا يمكن الذهاب الى أنها أنشأت التصوف الاسلامى ، لأن

يقول فى علاقة الله والعقل بالمادة فى كتاب « الملل والنحل » :

« وقد ارتفع أليك خصمان منك يتنازعان ، بك أحدهما محـق والآخر مبطل ، أحدهما العقل والثانى الطبيعة أى المادة » .

ويقول فى الاله : « ليس للمبدع الأول تعالى صورة ، ولا حلية مثل صور الأشياء العالية ، ولا مثل صور الأشياء السافلة ، ولا قوة له مثل قواها ، لكنه فوق كل صورة وحلية وقوة ، لأنه مبدعها بتوسط العقل ، المبدع الحق ليس شيئا من الأشياء ، وهو جميع الأشـــياء ، لأن الأشياء منه . وقد صدق الأوائل الأفاضل فى قولهـــم : مالك الأشياء كلها هو الأشياء كلها ، أو هو علة كونهـــا ، (والمقصـــود بالأفاضل الأوائل فلاسفة اليونان) وهو قديم دائم على حاله لا يتغير ، والعاشق يحرص على أن يصير اليه ويكون معـــه ، وللمعشوق الأول (الاله) عشاق كثيرون ، وقد يفيض عليهم كلهم من نوره ، من غير أن ينقص منه شىء ، لأنه ثابت قائم بذاته لا يتحرك » .

هذا مثل آخر من أمثلة أخذ العرب عن الاسكندريين وأسلوبهـم فى التناول ، وهو يطلعنا على أن الأفلاطونية الحديثة لا تجعل صلة بين الاله والمادة ، فان جعلت هناك صلة بينهما ، فبطريقة نابية عن المنطق كما ترى .

الفصل الثاني والعشرون

تحقيق القول فى أمر مكتبة الاسكندرية

أبو الفـرج بن العبرى يذيع فرية كبرى أن العرب احرقوا مكتبـة الاسـكندرية عند فتحهم للمدينـة ـ الأدلة على أن العرب لم يقترفوا هـذا الاثم ـ خلو الاسكندرية من مكتبة عامة عند فتح العرب لمصر ـ خلاصة آراء المؤرخين المحدثين ٠

نقل « ابو الفرج بن العبرى » Bar Hebraeus عن أبى الحسن على بن يوسف القفطى (٥٦٨/٦٤٦هـ) رواية مؤداها أن « عمـرو ابن العاص » احرق المكتبة الكبرى التى كانت بالاسكندرية عند فتح العرب لها ، ثم تداول الرواية من بعده نفر من المؤرخين ، منهـم عبد اللطيف البغدادى وتقي الدين المقريزى ٠

وتتلخص الفرية فى أن حنا الأجرومي Johannes Grammaticus شهد فتح العرب للمدينة ، ودخل مرة على عمرو بن العـاص فاكرمه عمرو وافتتن به ، وقربه من نفسه ـ فطلب « حنا » الى عمرو أن يهبه « كتب الحكمة فى الخزائن الملوكية » فاعتذر عمرو بأنه لا يستطيع أن يتصرف فيها بأمر الا بعد أن يستأذن أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » وكتب عمرو الى الخليفة عمر فى شأن ذلك ، فجاءه كتـاب الخليفة يقول : وأما الكتب التى ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ، ففى كتاب الله ما يغنى عنها ، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فلا حاجة اليها ٠٠ تقول الرواية ، فأخـذ عمرو يوزع كتب المكتبـة على حمامات الاسكندرية لتحرق فى مواقدها !! (كذا) ٠

وحنا الأجرومى هذا هو بعينه « حنافلبونس » John Philoponus

الذى عاش فى حكم جستنيان (٥٢٧/٥٦٤) وكتب مقالات عدة هاجم فيها رجال الدين المسيحيين ـ والمرجح أنه لم يكن على قيد الحياة عند فتح العرب للاسكندرية عام ٦٤٢ م ، ولو كان حيا حينذاك لنيف عمره على مائة وأربعين سنة»(١) .

* * *

ذكر « بلوتارخ » ونفر من المؤرخين الذين أتوا من بعده أن حريق « البروكيوم » سنة ٤٨ ق٠م أصاب المكتبة الملحقة بالمتحف الاسكندرى ، وقضى على ما يقرب من أربعمائة ألف مجلد ٠ ولا يحتمل أن يكون « سترابون » قد سكت عن حادث كبير كهذا ، بل الأقرب الى العقل أن يكون المؤرخ الكبير قد ذكر الحادث فى بعض تاريخه المفقود ، لأن الرواية تواترت على ذكره ، ولم يعد حريق « البروكيوم » ، واحتراق المكتبة التى كانت به أمرا يقبل الشك والتكذيب ٠

على أن المعروف أن « مارك أنطوان » عوض المدينة عن الخسارة الفادحة التى حلت بها باهدائها كتب مكتبة « برجاموس » كلهـا أو جلها ، أما المكان الذى أودعت فيه هذه الكتب المهداة فمحل خلاف بين المؤرخين ، والبعض يرى أنها أودعت فى مكان ما بالقصور الملكية حتى تم تشييد معبد « القيصريون » ٠ ومهما يكن من الأمر ، فقد كان فى هذه الهدية خير العوض عما فقدته مكتبة المتحف ، وظلت كتب هذه المكتبة مرجع العلماء والمتعلمين على طول العهد الرومانى

على أن الصراع العنيف الذى مر بنا ذكره بين المسيحيين والوثنيين ، والذى قضى على كل الآثار الوثنية تقريبا مع خواتيم القرن الرابع الميلادى بتدمير « السرابيوم » ، لابد أن يكون قد قضى على ما كان فى المدينة من آثار الوثنية وأخصها الكتب ، سواء أكان ايداعها فى المتحف أم فى « القيصريون » أم فى « السرابيوم » .

---

(١) راجع ترجمة حنا فلبونس فى مكان آخر من هذا الكتاب ٠

على أنه لو كان ايداع هذه الكتب فى المتحف أو قريبا منه ، فمما لا شك فيه أن « أورليان » فى اخماده ثورة الاسكندرية عام ٢٧٣ م ، قد قضى عليها فى مكانها ، وان كان قد نجا من هذه الكتب شىء نقل الى السرابيوم ، فلم ينقض القرن الرابع الميلادى حتى كانت كتب الوثنيين قد زالت من الوجود ، اما بسبب هدم معبد القيصريون عام ٣٦٦ للميلاد ، أو تدمير السرابيوم عام ٣٩١م وانطفاء جذوة العلم فيه بسبب زوال هذه الثروة القيمة .

ويذكر « افثونيوس » Aphthonius ، وهو ممن عاصروا تدمير السرابيوم أن مكتبة كبرى كانت وثيقة الاتصال بأبنيته ، ولابد أن يكون التخريب التام الذى نال المعبد قد قضى على هذه المكتبة فيما قضى عليه ، وان كانت مخازن الكتب قد بقى بعضها الى أوائل القرن الخامس الميلادى ، (على ما يقرر المؤرخ « أوروسيوس » Orosios) ، فقد كانت خالية من الكتب — وعلى هذا يصعب أن يعتقد الإنسان أنه قد بقيت بالاسكندرية مكتبة عامة ، والحق أنه لم يكن بالمدينة عند فتح العرب لها عام ٦٤٢ للميلاد غير بعض المكتبات الخاصة يملكها نفر من محبى العلم من أمثال العالم « كزماس » الذى كان يعير من كتبه فى كثير من الرغبة فى الافادة ، ومكتبة مطران « آمد » وهو من كبار علماء السريان فى مصر ، ومكتبات الأديرة والكنائس ، وكانت كتبها فى الغالب مسيحية (١) .

وهكذا يتأكد القول بعدم وجود مكتبة عامة بالاسكندرية ، يمكن أن يضع العرب عليها أيديهم عند الفتح .

* * *

وفيما يلى اجمالى لرأى الدكتور « بطلر » فى شأن هذه المكتبة — يقول فى آخر الفصل الذى عقده لهذا الغرض فى كتابه ، معربا بقلم الأستاذ محمد فريد أبى حديد :

---

(١) بطلر : فتح العرب لمصر .

١ ـ أن قصة احراق العرب للمكتبة العامة لم تظهر الا بعـــد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة التى تذكرها القصة ·

٢ ـ أننا فحصنا القصة وحللنا ما جاء فيها فألفيناه سخافات مستبعدة ينكرها العقل ·

٣ ـ أن الرجل الذى تذكر القصة أنه كان أكبر عامل فيها وهو (حنا الأجرومى) مات قبل غزوة العرب بزمن طويل ·

٤ ـ أن القصة قد تشير الى واحدة من مكتبتين : الأولى مكتبة المتحف ، وهذه ضاعت فى الحريق الكبير الذى أحـــدثه « قيصر » ٤٨ ق·م ـ وأن لم تتلف عند ذلك ، كان ضياعها فيما بعـد فى وقت لا يقل عن ثلثمائة عام قبل الفتح (١) ـ وأما الثانية وهى مكتبـــة « السرابيوم » فاما أن تكون قد نقلت من المعبد قبل عام ٣٩١ للميلاد وقت ثورة تيوفيلوس ، وأما أن تكون قد هلكت أو تفـرقت كتبهـــا وضاعت ـ فتكون على أى حال قد اختفت قبل فتح العرب بقـــرنين ونصف قرن من الزمان ·

٥ ـ أن كتاب القرنين الخامس والسادس الميلاديين لا يذكرون شيئا عن وجود مكتبة عامة ، وكذلك كتاب أوائل القرن السابع ·

٦ ـ أن هذه المكتبة لو كانت لا تزال باقية عنـــدما عقـــد « قيرس » صلحه مع العرب على تسليم الاسكندرية ، لكان من المؤكد أن تنقل هذه الكتب الى خارج الاسكندرية ، وقد أبيح ذلك فى شروط الصلح الذى كان يسمح بنقل المتاع والأموال فى مدة «الهدنة» الواقعة بين عقد الصلح ودخول العرب المدينة ، وقدر ذلك بأحد عشر شهرا ·

٧ ـ لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت ، أو لو كان العرب قـد أتلفوها حقيقة ، لما أغفل ذكر ذلك كاتب من أهل العلم كان قريب العهد

---

(١) بسبب ثورات المسيحيين على الوثنيين ·

من الفتح هو « حنا النقيوسى » (١) ، ولما مر على ذلك بغير أن يكتب حرفا عنه .

ولا يمكن أن يبقى شك فى الأمر بعد ذلك ، فان الأدلة قاطعة ، وهى تبرر ما ذهب اليه « رينوذو » من الشك فى قصة أبى الفرج ، وما ذهت اليه « جبون » من عدم تصديقها ، ولابد لنا فى النهاية أن نقـــول أن رواية أبى الفرج لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخــرافة ليس لها أساس من الصحة .

* * *

وفيما يلى اجمالى لرأى شارل ديل Ch. Diehl الأسـتـاذ بالسربون ، فى كتاب « تاريخ الأمة المصرية » لهانوتو .

١ ــ لم يذكر حنا النقيوسى الذى يكاد يكون معاصرا للفتــح العربى ، والذى كان رجلا عالما ، شيئا عن حريق المكتبة .

٢ ــ اختفت المكتبة التى كانت فخر المتحف منذ أمد بعيد قبـل الفتح العربى بشهادة بلوتارخ ، وسنكا ، ودايون كاسيوس ، و « أمين مرسلين » ، و « أوروز » فى الحريق الذى صحب ثورة الاسكندريين على قيصر .

٣ ــ أما تلك المكتبة الشهيرة التى أسست بعد سنوات فى بعض جهات « السرابيوم » ، فقد اختفت على الأرجح سنة ٣٩١ بعد الميلاد حينما خربه المسيحيون فى ثورتهـــم على الوثنيين ــ أو اغتصبت وتفرقت كتبها أيدى سبا .

---

(١) مؤرخ قبطى مصرى كتب تاريخا قيما لحوادث عصره باللغة القبطية ، والنسخة الخطية لكتابه موجودة فى المتحف البريطانى ، نقلها الانجليز اتفاقا فيما نقلوا من كتب (مجدلة) احدى بلاد الحبشة

٤ ـ لم يذكر واحد من كتاب القرن الخامس الذين زاروا الاسكندرية ، ولا سيما « حنا مسكوس » الذى كان مشغوفا بالمسائل الفكرية ، شيئا عن وجود مكتبة كبرى فى الاسكندرية ٠

وأنت ترى إنه لا يكاد يختلف « ديل » عن « بطلر » فى الرأى ، وبهذه التدليلات القاطعة انتفت تلك التهمة التى كان « القفطى » أول من ذكرها ، والتى روجها « أبو الفرج بن العبري » المؤرخ اليهودى

الفصل الثالث والعشرون

اشــــهر الأعــــلام

كاليماخوس العـــالم بالمكتبات ـ أقليـــدس أبو الهندسية ـ مانيتون المؤرخ ـ ثيوكريتس الشـــاعر ـ أراتوسبثنيز واســـتاركاس ـ كلــوديوس بطليمــوس الجغرافى ـ ديوفانتس عالم الجبر ـ ثيون وهباشيا ـ جالينوس الطبيب ـ حنا الأجرومى ـ بولس الأجانيطى ٠

كليماخوس (١)

امتازت المدرسة الأدبية الاسكندرية بأنها ناقلة فى مجموعها ، معلقة على هذا النقل ، ناقدة له ومصنفة فى الوقت نفسه أنواعا من التصانيف كانت بدء العناية بالعلوم اللغوية ـ ولو لم يكن للاسكندرية غير هذا الفضل لكفى ٠

واكثر الأسماء تداولا فى مضمار الأدب الاسكندرى كليماخوس الأديب الشاعر ، وهو كبير الأثر فى الحركة الأدبية فى الاسكندرية ، عهد اليه بطليموس الأول أمر ترتيب مكتبة المتحف ، وبفضـله غدت المكتبة بنظامها الدقيق تقدم أعظم التسهيلات لأســـاتذة جامعـــة الاسكندرية وطلابها ٠

وهو أول أمناء المكتبات فى الشرق فى نظر البعض ، وضــع فهرسين لمكتبة المتحف الاسكندرى ، أحدهما بأسماء المؤلفين ، والآخر بأسماء الموضوعات ٠

---

(١) Callimachus ٣٢٣/٢٨٥ قبل الميلاد

وهو أول من فكر فى تقسيم الملفات البردية الى أجزاء ٠ ومن هنا كان تقسيم الأشعار الهومرية وتاريخ هيرودوت وغيــر هذين من الآثار الأدبية القديمة الى أجزاء أو مجلدات ٠

وبفضل هذا الترتيب أصبح لمكتبة الاسكندرية مركز ممتــاز فى عالم التصنيف والبحث ، وغدت المرجع الوحيد الذى اعتمد عليه الناقلون ، وأصبح العالم كله لا يثق الا فى مخطوطات الاسكندرية ، وعن مخطوطات المكتبة الأولى التى نظمها كليماخوس والمكتبة التى كانت فى السرابيوم ، نقلت جميع النسخ الخطية وملفات البردى التى لم تعصف بها أحداث الزمن الى المكتبات الأوروبية المختلفة ٠ وبطريق هذا النقل شاعت فى أوربا آثار هومر وزنفون وأرسطو وأفــلاطون وفيثاغورس واقليدس وأفلوطين وغيرهم من العلماء والفــلاسفة والأدباء من الأغارقة والاسكندريين ٠

اقليــــدس (١)

امتازت جهود الاسكندرية بأنها كانت فى مجموعها جهــــودا أدبية ، غير أنه لم يكن هناك غير حاجز رقيق يفصل الأدب عن العلم ، وكثيرا ما كان يتلاشى ذلك الحاجز ، فلا يكاد الانســــان يفرق بين ما هو أدب وما هو علم ــ ولا بين أديب وعالم ، اذ كان انتاج الفـكر اليونانى الأول « كلا » متصلا يصعب أن يفصله الانسان الى شعاب ، ففى تلك الحقب السحيقة امتزج الأدب بالعلم امتزاجا شديدا ــ فكان الأديب عالما والعالم أديبا والطبيب شاعرا وناقــدا للأدب فى وقت واحد ، وهكذا كانت المعلومات الانسانية كما واحــدا لا سبيل الى تفصيله ، ولكنه كان هناك من العلماء رغم ذلك من عكف على ناحيــة واحدة من نواحى العلم وأمعن فى مباحثها امعانا كاقليدس ٠

---

(١) Euclid ٢٨٣/٣٠٦ قبل الميلاد ٠

ويختلط اسم « اقليدس » الاسكندرى باسم اقليدس الفيلسوف الميغارى . واقليدس الميغارى هذا معاصر لأفلاطون ، أما اقليدس الاسكندرى فقد جاء متأخرا عنه بزمن ، ويحتمل أن يكون قد تلقى علومه الرياضية فى « أثينا » ، ثم رحل الى الاسكندرية ، واسس بها مدرسة رياضية فى عصر « بطليموس سوتر » (٣٠٥/٢٨٣ق.م) ، وفى شخصيته تتمثل أقوى نزعة علمية رياضية عرفت عن الاسكندرية ، وهو يلقب بأبى الهندسة . بتتلمذ عليه العاهل بطليموس الذى يحكى عنه أنه سأل مرة أستاذه اقليدس عما اذا كان هناك طريق مختصر الى الهندسة ، فأجابه إقليدس على الفور « يا مولاى : ليس هناك طريق ملكى الى الهندسة » .

ويروى كذلك أن تلميذا من تلاميذه سأله يوما عن الفائدة التى يجنيها الانسان من دراسة الهندسة ، فما كان من اقليدس الا أن استدعى رفيقا له وأمره أن ينقد الطالب بعض النقود ، فكان ذلك نقدا لاذعا وتهكما بارعا على سؤاله .

وذلك واضح الدلالة على أن العلم كان فى الاسكندرية على يد اقليدس علما قصد لذاته ـ لا للمادة . وقد ضرب اقليدس برده على بطليموس أول مثل على حرية الرأى الجامعى ، وأستن بذلك سنة ما تزال مرعية فى الجامعات حتى الآن .

وينسب الى اقليدس أنه غير وجه الهندسة تغييرا تاما وافترض لها فروضا جديدة جعل بها الفروض القديمة بالية غير ممكنة التطبيق .

وأشهر مؤلفاته « الأصول » Elements وتتكون من ثلاثة عشر جزءا ، وأهم الموضوعات التى عالجها اقليدس :

١ ـ محاولة عنيفة لتربيع الدائرة ، وقد ثبت أخيرا أن هذه المحاولة غير مجدية .

٢ ــ هندسة الأجسام المنتظمة الخمسة (ذو الثمانية أوجه ــ ذو الاثنى عشر وجها ــ ذو العشرين وجها ــ الهـــرم الثـــلاثى ــ المكعب) .

٣ ــ طريقة « أيودوكسوس » فى « الاستنفاد » (١).

٤ ــ الهندسة الفيثاغورية ، وهو الذى أخضعها الى نظـــام البرهنة النظرية ، وكانت قبل ذلك هندسة تعتمد على القياس بالـــة القياس ، لا على البرهنة النظرية التى عمادها المنطق .

٥ ــ هندسة القطاعات (من مباحث الهندسة الفراغيـــة) . ويعزى اليه أنه رتب النظريات وجعل أساس صحتها البراهين النظرية المعتمدة على استخدام المنطق ، وهو أول من اعتمد فى البرهنة على « البديهيات » ، وتعرف الهندسة التى هذبها اقليدس باسم « الهندسة الاقليدية » .

ولا تزال هندسة « اقليدس » تكون جزءا من منهج الدراسة فى المدارس الانجليزية والمدارس المصرية وغيرهما بالاضافة إلى الهندسة الفيثاغورية التى يرجع اليه فضل تهذيبها .

ولا شك أن فن البناء الذى اشتهرت به الاسكندرية اســـتفاد كثيرا من هندسة اقليدس ، حيث لابد أن تكون قد طبقت فيها نظرياته تطبيقا عمليا .

---

(١) Eudoxus's Method of Exhaustion

مانيتـون (١)

« مانيتون » كاهن مصرى ـ اغريقى ولد فى سبنيتس (سمنود) من أعمال الدلتا ، عاش فى القرن الثالث قبل الميـــلاد فى عصرى بطليموس الأول وبطليموس الثانى • شغف بدراسة التاريخ المصرى القديم ودونه فى عصر بطليموس فيلادلف وبأمر منه ، وضع لمصــر تاريخا بالأغريقية حافلا بالحقائق ، مستمدا من أوثق المصــــــادر التاريخية : من النقوش الهيروغليفية وأوراق البردى وسجلات المعابد، وكان يقع فى ثلاثة أجزاء : الأول يتناول التاريخ من بدء الخليقة حتى الأسرة الثانية عشرة الفرعونية ، والثانى يتناول الفترة الواقعة بين الأسرة الثانية عشرة والأسرة التاسعة عشرة ، والثـــالث يتناول الفترة الواقعة فيما بين الأسرة العشرين والفتح الفارسى الثانى •

---

(١) وعلى ذكر مانيتون Manethon المــؤرخ المصرى ، نذكــر « بروســــص » الكــاهن الكلداتى الذى وضـــع لكلديــا تاريخا له قيمته العلمية ، ولكنه كتاريخ مانيتون مفقود الآن • ويرجح أن يكون مانيتون قد حاكاه فى ذلك ، فوضع تاريخا مماثلا لمصر هو الذى نشير اليه •

ثم بوليبيوس Polybius ٢٠٣/١٢١ ق٠م الذى وضع تاريخا مفصلا لفتوحات الرومان • وتتلخص قيمة هذا المؤلف فى أن واضعه دون فيه حوادث كان فيها شاهد عيان لسطوة روما وعنفوانها •

ثم ديودور الصقلى الذى وضع تاريخا للعالم محوره تاريخ روما •

ثم هيرودوت المؤرخ الأغريقى الذى يلقب بأبى التــــاريخ ، وتاريخه خير ما كتب الأقدمون جميعا ، وقد جعل محـــوره تاريخ الفرس والأغريق •

ولا يفوتنا أن نذكر بلوتارخ Plutarch أمير كتاب التـــاريخ ، كتب عن الشخصيات المعاصرة له من ساسة الأغريق والرومان ورجال الحرب ، ولكتاباته نزعة خاصة القصد منها تمجيد أبطال (هلا) ـ ومؤلفه معروف فى الفرنسية باسم : Vie des hommes illustres

وتاريخ « مانيتون » مفقـــود لا أثر له ـ الا ما نقـــله عنـــه المؤرخ اليهودى « جوزيفس » ثم « يوزيب » بعده بزمن • وبقى ما نقل جوزيفس عن « مانيتو » الحجة التى اعتمد عليها كتاب التاريخ ، حتى عثر « شمبليون » على حجر رشيد وفك طلاسم الهيروغليفية ، وأمكن بذلك استقاء التاريخ من أوثق مصادره ـ ألا وهى النقوش المصرية القديمة •

ثيوكريتس (١)

من أشهر شعراء الاسكندرية « ثيوكريتس » الصقلى الأصل ، عاش فى عصر بطليموس فيلادلف (٢٤٧/٣٨٥ ق٠م) مقربا منـه حتى قيل أنه كان شاعر البلاط • كتب أشعارا معظمها أغانى تصـور الحياة الريفية فى صقلية أبدع التصوير • وظل اسم هذا الشـــاعر جاريا على الألسنة نحو ألفى عام فى عصور نضب فيها معين الأدب بعد سقوط الاسكندرية فى قبضة الرومان •

والأدب الاسكندرى المعروف لنا بعضه من نتـــاج الاسكندرية الخالص ، وبعضه من نتاج عقول انتجعت الاسكندرية وكتبت فيهـا بوحى من الطبيعة الأجنبية ـ ومن ثم لم يكن غريبا أن يكتب شـــاعر اسكندرى الموطن شعرا عن أرض « هلا » ببلاد اليونان ، أو أن يتصور « البادة جديدة » أو يصف روابى صـــــقلية ووهادها ومنحدراتها ومروجها النضرة ، كما فعل « ثيوكريتس » •

والواقع أن البحر المتوسط برمته كان « موضوع العناية » ، فقد كان من الوجهة السياسية مطمع ساسة الاسكندرية الأكبر ، وظلت الرغبة فى السيادة عليه سبب التنازع بين ملوك اليونان وملوك مصر من البطالمة زمنا ، ومن الوجهة العلمية كان العلماء لا يؤثرون بغض

---

(١) Theocritus ٢٤٧/٢٨٥ قبل الميلاد •

جهاته على بعضها الآخر ، فكثيرا ما انتجعـــوا جزيرة ساموس ، وجزائر ايونيا ، وجزيرة رودس وجزيرة صـــــقلية ، وكان لهم فى هدوئها جميعا وانعزالها انتاج علمى وادبى فائق نسب الى اثينا وقت سيطرتها ، والى الاسكندرية فى عهد تقدمها السياسى والعلمى ٠

وأغلب الظن أن فروعا تتبع جامعة الاسكندرية كانت منتشرة فى بعض جهات البحر المتوسط ، على النحو الذى نعـــرفه الآن من وجـــود فروع للجامعـات الكبرى في مواطن أخـرى داخل مصر وخارجها ٠

اراتوســتنيز (١)

ولد « اراتوستنيز » فى اقليم برقه عام ١٧٦ قبل الميلاد ، وتتلمذ على «كليماخوس» ، ودرس الفلسفة على أعلامها فى أثينا ، استدعاه بطليموس الثالث ليكون أمينا للمكتبة ، وكانت أمانة المكتبة توكل عادة الى ألمع شخصيات العصر ٠

وكان « اراتو » صديقا للعلم على حد تسميته لنفسه ، بلغ من سعة معارفه وعلو مداركه أن عرف باسم « افلاطون الثانى » بسبب من شدة اعتناقه لآراء افلاطون ودفاعه عنها ٠

الف فى الفلسفة وعلوم اللغة والهندسة والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والفلك ، وله فى التاريخ كتاب مفقود عن الاسكندر الأكبر وتعليقات على تاريخ مانيتون ٠

وابرز اعماله الباقيات قياسه لمحيط الأرض بطريقته الفلكيـة المعروفة ، فقد رصد الزاوية المحصورة بين الشمس وهى عمـــودية على الجندل الأول عند « سيين » (أسوان) والاسكندرية ، فوجدها

---

(١) Eratosthenes ١٩٦/٢٧٦ قبل الميلاد ٠

سبع درجات وخمس الدرجة ، ثم قاس المسافة الواقعة بين « سيين » والاسكندرية فوجدها ٥٠٠ ميل تقريبا ، فاذا كانت كل سبع درجات وخمس الدرجة من محيط الأرض تعادل ٥٠٠ ميل ، فان المحيط كله يعادل ٢٥٠٠٠ من الأميال ـ وعلى هذا التقدير يكون قطر الأرض ٧٩٥٠ ميلا ٠ وهو حساب لا يختلف عن الواقع الا فى حوالى ٥٠ ميلا ، ويعتبر أراتوستنيز بحق مؤسس المذهب العلمى فى « الجغرافية » ٠

و « أراتوستنيز » أول من وضع مصورا علميا ذا خطوط للطول وخطوط للعرض يشمل العالم المعروف حينذاك (أوروبا وأفريقية وآسيا) ٠ ويمتاز مصوره بوضوح الأجزاء المحيطة بالبحر المتوسط وضوحا تاما ٠

وتعتمد جغرافية « أراتوستنيز » على حقائق اعتبرها الجغرافيون المحدثون صحيحة فى جملتها ، وقرروا أنها أقرب الى العلم الصحيح من المعلومات التى وضعها سابقوه ٠

هباركاس (١)

عنى البطالمة بالفلك عنايتهم بالرياضيات ، وبنوا المراصد من أجل ذلك فى الاسكندرية وكانوب (أبى قير) ٠

والغالب أن تكون هذه المراصد الفلكية قد حققت لهم بعض المشاهدات الفلكية الهامة : ويرجح أن تكون عناية البطالمة بالفلك قد بدأت منذ أهتم به العالم « أراتوستنيز » ، منذ بذل محاولته الأولى لقياس محيط الأرض بطريقته المعروفة ٠

---

(١) Hipparchus ‎١٦١/١٢٧ ق٠م

ويذكر اسم « هباركاس » فى رأس المشتغلين بالفلك البحت ، قضى حياته الأولى فى جزيرة « ساموس » ثم رحل الى الاسكندرية وأهم أبحاثه نظريته فى النظام الشمسى التى قرر فيهـا لأول مرة فى التاريخ أن الأرض والكواكب تدور حول « الشمس » • ولم يصدق قوله أحد من فلكيى العصر الهلينى والعصور التالية ، وظل مناقضوه فى الرأى على خطئهم يعتقدون أن « الأرض » هى المركز الذى تدور حوله الشمس والكواكب الأخرى ، وقد أثبت « كوبرنيق » البولنـدى صواب رأى هباركاس ـ ولهذا يعتبر « هباركاس » المقرر الأول لنظرية « النظام الشمسى » Solar System التى تثبت أن « الشـمس » هى المركز وأن الكواكب تدور حولها •

كلوديوس بطليمـوس (١)

ولد « كلوديوس بطليموس » فى بلوزيوم (الفرما) ، فهـو مصرى المولد والحياة •

جاء بطليموس متأخرا فى القرن الثالث الميلادى ، فلخص كل ما كتب سابقوه ، واعتبر فى العصر الرومانى الحجة فى كل ما عرف من علمى الفلك والجغرافية •

ووقع بطليموس فى الخطأ الذى وقع فيـه كثيرون غيره وبقى شائعا قرونا عديدة ، الا وهو الاعتقاد بدوران الشمس حول الأرض، ورغم ما وقع فيه من خطأ جسيم فى هذه الناحية ، فقد ظل رأيه هـذا متداولا فى العصور الوسطى ، وعرفت نظريته المخطئة هذه باسـم « النظرية البطليموسية » فى النظام الشمسى •

---

(١) Claudius Ptolemy عاش بالاسكندرية فى القرن الثـالث الميلادى •

وقد فطن الى خطأ نظرية بطليموس « كوبرنيق » البولندى ، الذى شاد بفكرة الفلكى الاسكندرى المتواضع « ارستاركاس » الذى وصل مبكرا الى الحقيقة فى أمر دوران الأرض حول الشمس دون أن يعترف له بالفضل أحد فى أيامه ٠

وتدهور الفلك البحت بعد بطليموس تدهورا عظيما واختلط بالتنجيم ، ووضع بطليموس قبل وفاته كتابا عن « التنجيم البابلى » يدل على انه لم ينج من التأثر بروح العصر التى غلبت عليها الخرافة، وكادت الروح العلمية البحت على عهده تتلاشى من العالم ، ودقت نواقيس الظلام ، وأسلم العلم زمامه نهائيا للجهالة التى خيمت على العالم فى عصور الصراع بين الوثنية والمسيحية ، وهو معتمد فى كثير من آرائه على الفلكى القديم « هباركاس » الذى اشتغل بالفلك فى الاسكندرية فى عصر بطليموس الرابع ، واعتماده كذلك معروف على « مارينوس الصورى » الفلكى السورى الشهير ٠

وأشهر مؤلفاته « المجسطى » ، وهو عمل علمى جغرافى جليل ، شغل ثلاثة عشر مجلدا ، وفيه يقرر بطليموس نظامه الشمسى ويقسم العالم السماوى الى أبراج يستقر فى كل منها عدد من الأجرام السماوية ٠

ولبطليموس خريطة للعالم من نوع خريطة « أراتوسثنيز » تمتاز بكثير من الدقة واستفاضة المعلومات ٠

وكانت « كانوب » مسرح أعماله الفلكية ، وكان له بها مرصد خاص ، ولم تقتصر جهود بطليموس على الفلك والجغرافية ، فله جهود مشكورة فى الرياضيات وعلى الأخص حساب المثلثات وفى الهندسة ، كما أن له مصنفات فى الموسيقى والفلسفة والتاريخ العام ٠

وترجم كتابه « المجسطى » Almagest الى الفارسية والعبرية واللاتينية ، وأقدم ترجمة له هى اللاتينية التى أمر بها « الفونس »

ملك قشتالة ، وهى ترجمة مقرونة بالأصل العربى • وفى عصر « أبى جعفر المنصور » ترجم « المجسطى » الى العربية ، ولكن مما يؤسف له أن الترجمة العربية ليست موجودة فى أية مكتبة من مكتبات الغرب أو الشرق • والمجسطى يحوى « زيجا » زمنيا وحسابا لحـــركات الشمس والقمر وجداول بأسماء النجوم الشمالية وحركات الكواكب، وطريقته علمية منظمة ، وآراؤه قيمة ، وظلت كتابات بطليموس العماد الذى أعتمد عليه جغرافيو العصور الوسطى •

ديوفانتس (١)

ديوفانتس ، واضع علم الجبر ، اما يونانى أو مصرى ــ والذين يميلون الى جعله يونانيا هم أنصار الفكرة القائلة بأن نشأة علم الجبر يونانية ، والذين يلحون فى جعله اسكندريا عاش فى القرن الثـالث أو فى القرن الخامس الميلادى ، يريدون بذلك نسبة هذا الفضل العلمى الى الاسكندرية ، وهؤلاء يؤكدون أن نشأة علم الجبر « اسكندرية » لا يونانية •

وعلى يدى « ديوفانتس » بدأ الجبر يتبوأ مكانة ساميـــة بين فروع الرياضيات • يقال أنه وضع كتابا فى علم « العدد » يتكون من ثلاث عشرة مقالة ، وصل الينا منها ست وبضع مقالة ، وهذا المؤلف يعتبر أساسا متينا لتطور علم الجبر ، وهو خليط بين الجبر الصرف وبقية الفروع الرياضية •

ويميل مؤرخو الرياضة الى الاعتقاد بأن ما كتب «ديوفانتس» كان معروفا من قبل ، والحق أنه يصعب أن يصل الانسان الى شىء قاطع فى أمر « ديوفانتس » ــ غير أن الشائع المعروف عنه أنه الواضع

(١) Diophantes

لعلم الجبر ، أو أنه على أقل تقدير أول من جعل أولياته علما منظما يتخذ لنفسه مكانة محترمة بين شعب الرياضة ·

يقولون أن علم الجبر لم يتقدم خطوة عما تركه عليا « ديوفانتس » ، أدركته النهضة الأوربية فنقلت ما خلف « ديوفانتس » فى هذا العلم ، وأضافت اليه أبحاثا جديدة ـ وقد عثر على كتابه بمكتبة « الفاتيكان » فى القرن السادس عشر مكتوبا باليونانية ·

ثيون وهيباشيا (١)

« ثيون » فيلسوف رياضى أدرك القرنين الرابع والخامس الميلاديين فعاش بينهما مشتغلا بمباحث الرياضة ، ولا سيما الهندسة والفلك والجبر ·

وتقترن جهود « ثيون » عادة بجهود ابنته الفيلسوفة النابغة « هيباشيا » التى ولدت بالاسكندرية ، ونشأت نشأة أبيها العلمية ، وعاونته كثيرا فى بحوثه الرياضية ، وتزعمت المدرسة الفلسفية الوثنية المعروفة باسم الأفلاطونية الحديثة

يقال علقت « هيباشيا » على ما كتب ديوفانتس فى الجبر ، ولكن تعليقها هذا مفقود الآن ، كما علقت على كتاب « أبولونيوس » فى القطاعات المخروطية Conic Sections

« وهيباشيا » عالمة فذة ، راحت ضحية التعصب الدينى ، حيث مثل بها المسيحيون فى أوائل القرن الخامس الميلادى أبشع تمثيل حين قتلوها وهى تدافع عن عقيدتها ·

---

(١) Theon-Hypatia

وموضوع جهادها ومقتلها يكون قصة رائعة للكاتب الانجليزى الأشهر « تشارلز كنجزلى » Charles Cingslay عنوانها Hypatia :

هذا وقد عرفت مبادىء « التحليل الجبرى » الى حد ما على يد « ثيون » وابنته « هيباشيا » ـ وكان القدماء لا يعرفونه ، وان كانوا قد عرفوا « التحليل الهندسى » على وجه التأكيد ٠

وفى مأساة هيباشيا يتمثـــل الصراع بين الوثنية والمسيحية بأجلى مظاهر القسوة المعروفة عن ذلك العصر المضطرب ، كما يتمثل فى شخصها الجمع بين الفلسفة بمباحثها المختلفة والاشتغال بالعلوم الرياضية ٠

جالينوس الطبيب (١)

يمثل «جالين» أو جالينوس الطبيب البرجامى الأصل المتوفى سنة ٢٥ م آخر عهد الاسكندرية بالروح العلمية فى الطب ٠ وهو صاحب المقالات الست عشرة الشهيرة فى المباحث الطبية ، وهو أستاذ الأواخر من علماء الطب الاسكندرى ـ له من المؤلفات الطبية كثير ، لكن علماء المدرسة الطبية المتأخرة فى الاسكندرية ، الذين أدركهم الفتح العربى، كانوا قد اختاروا من بين مقالاته ست عشرة مقالة ترجموها وجعلوها برنامج الدراسة الطبية فى المدينة ، وعلى مر الزمن شاهت هـــذه المقالات واختصرت واختلطت بالتنجيم ، وأدرك العرب الاسـكندرية وهى على هذه الحال ، فانتقل منها الطب الى الشرق الأدنى مختلطا بالشوائب التى طالما نسبت ظلما الى العقل العربى ـ نسب المتعصبون الى جالينوس ميلا الى التنجيم والشعوذة مرجعه فى الحقيقة الى جمود الاسكندرية آخر عهدها بالحياة العلمية ٠

---

(١) Claud Galien

وجالينوس الاسكندرى أستاذ من أشهر أساتذة الطب القديم ، لا يقل أثره فيه عن أثر « أبقراط » اليونانى — ومن مجموع تعاليمهما معا تكونت برامج الدراسة فى مدارس الاسكندرية الطبية — تأثرت هذه التعاليم بروح الجهالة أحيانا ، وفقدت قيمتها وشاهت ، واقتصرت فى العصور المتأخرة على رءوس موضوعات كان لابد لدارس الطب من الالمام بها والاجتهاد على أساسها • ويعوض هذا النقص الذى أعتور الحركة الطبية حين بلغت هذا الدرك ، اجتهاد الاسكندريين وانصرافهم الى الابتكار فى مجالات الطب والكيمياء والعلوم الطبيعية ، ومن ثم كان ازدهار المدرسة الطبية النسبى فى الاسكندرية عند الفتح العربى وقبله بزمن •

حنا فلبونس

من علماء القرن السادس الميلادى ، وهو المعروف عند العرب باسم « حنا الأجرومى » (جراماتيكوس) Grammaticus ، علق على أرسطو ودرس الطب الاسكندرى ، وذاع صيته فى الوقت الذى أغلق فيه الامبراطور جستنيان مدارس « أثينا » الوثنية عام ٥٢٩م •

ويزعم أبو الفرج بن العبرى (المتوفى ١٢٨٦ م) أن حنا هذا هو الذى طلب الى « عمرو بن العاص » أن يعطيه من كتب « الخزائن الملوكية فى الاسكندرية » قبل احراقها ، لأنه كان من هواة الكتب ، وقد برهنا بالأدلة التى سقناها عن « بطلر » و « شارل ديل » على سقم هذه الرواية وعدم استقامتها •

ولا يمكن عقلا أن يكون « حنا » هذا قد أدرك الفتح العربى حيث ثبت أنه كان يدرس ويكتب فى الاسكندرية منذ أوائل القرن

السادس ، ولو أدرك القرن السابع لبلغ من الكبر عتيا وقعد عن الكتابة وطلب الكتب ، وتحقيق تاريخ حياته مرتبط بمسألة اتهام العرب باحراق مكتبة الاسكندرية ارتباطا وثيقا (١) — وقد أدى بحث الدكتور بطلر لهذه المسألة الى كذب رواية أبى الفرج التى أوردها فى كتابه « نظم الجوهر » ، وهى الرواية التى لا تعتمد على سند معلوم من التاريخ فى اتهام العرب باحراق مكتبة الاسكندرية ٠

وحنا فلبونس هذا من أفذاذ علماء الاسكندرية ، ومن المشتغلين فيها بالفلسفة والطب ، ومن محبى القراءة والاطلاع فى عصر من أشد عصور الاسكندرية غموضا من الناحية العلمية ، هو القرن السادس الميلادى ٠

ولحنا فلبونس تعليقات على تدريس علم المنطق وعلى فلسفة أرسطو ، وكان من شيوخ اليعاقبة المنتقضين على الكنيسة الرسمية ٠ وجد فيه اليعقوبيون زعيما لهم ، وكان من المنتظر أن يأخذوا بتعاليمه فى المنطق ، ولكنهم بالاشتراك مع النساطرة آثروا مختصر

---

(١) ثبت أن فلبونس هذا نزح الى الاسكندرية فى أوائل القرن السادس الميلادى ، وأنه كتب أول تعليقاته على أرسطو بتاريخ ١٠ ياخون من عصر الشهداء ، الموافق ٥ مايو ٥١٧ ميلادية ، وأن مؤلفه عن « خلود العالم » الذى حارب فيه الأفلاطونية الحديثة وضع عام ٥٢٩ للميلاد ، وأنه كتب الى الامبراطور جستنيان كتابا دافع فيه عن فكرة الطبيعة الواحدة للمسيح عام ٥٥١ للميلاد (تحقيق ماكس مايرهوف فى عجالته : نهاية مدرسة الاسكندرية) ٠

— واذا كان فلبونس قد اشتغل بوضع أول تعليق له على أرسطو عام ٥١٧م ، فانه كان لابد يبلغ من العمر اذ ذاك عشرين عاما على أقل تقدير ، وعلى هذا الاعتبار يكون قد ولد عام ٤٩٧م ، فليس معقولا اذن أن يكون قد عاش حتى أدرك الفتح العربى عام ٦٤٢م ، اذ لو عاش حتى ذلك العهد ، لبلغ عمره ١٤٥ سنة !

فورفيروس الصورى المعروف باسم « ايساغوجى » واتخذوه مدخلا لهذا العلم

وله تصانيف فى قواعد اللغة الاغريقية والعلوم الرياضية ، ومن المحتمل انه كان أستاذا يدرس فى الجامعة ، ما لبث تحوله من الوثنية الى المسيحية ووضعه كتابا هاما ضد التعاليم الوثنية أن أكسباه مكانة ممتازة • ومؤلفه « خلود العالم » : Sur L'Eternité du Monde ، شنها على فلاسفة الأفلاطونية الحديثة • وله مؤلف دافع فيه دفاعا مجيدا عن المسيحية ، وكان فى كل ما كتب يتبع أسلوب أرسطو فى الاقناع ، وهو من أوائل من أخضعوا الدين للقوانين المنطقية اخضاعا صارما • ومن بعده لعب المنطق دورا هاما بين اليهود والعرب المسلمين والمسيحيين اللاتينيين فى العصور الوسطى • وقد دافع فلبونس عن فكرة الطبيعة الواحدة للمسيح Monophysism دفاعا مجيدا •

وهو يعتبر بحق أصدق ممثل للحركة العلمية فى الاسكندرية فى القرن السادس الميلادى ــ ومن أواخر رجالها •

بولس الاجانيطى (١)

أدرك العرب الاسكندرية وبولس الأجانيطى يدرس بها تعاليم جالينوس وأبقراط فى الطب على شكل متون لا سبيل الى التحوير فيها ــ كأنما هى منهاج من السماء !

وبولس الأجانيطى هذا أستاذ العرب والسريان فى الطب ، وبفضله ذاعت تعاليم « جالينوس » من الاسكندرية آخر عهدها

(١) Paul of Aeginae

بالدراسة الطبية ، وكونت نواة المدارس الطبية فى انطاكية وحران وجنديسابور وغيرها من مراكز العلم فى الشرق الأدنى عامة ٠

والمعروف عن الطب الاسكندرى فى ذلك الوقت ، رغم رواج دراسته على يد « بولس الأجانيطى » وزملائه ، انه اختلط بالتنجيم ، فى وقت فسدت فيه مذاهب العلم اجمالا ، وتسلط الجمود على العقول ، وأتيح للطلاسم والأحاجى أن تعمل عملها فى تشويه الحركة العلمية عامة ، والطبية خاصة ٠

واسم هذا الطبيب اكثر الأسماء تداولا فيما نقل السريان والعرب من طب الاسكندرية ، وهو معاصر للفتح العربى ومن أواخر ممثلى الحركة العلمية الاسكندرية قبل أن تلفظ الجامعة آخر أنفاسها ٠

ولبولس الأجانيطى مقالات فى « فن التوليد » ، عرفها العرب ونقلوها فيما نقلوا غداة الفتح ٠

وظلت كتبه الى جانب غيرها مادة للدراسة الطبية فى القرون الوسطى ، فى العربية واللاتينية على السواء ٠

الحمد لله فى البداية والنهاية

المصـــادر العربية

(١) ابن ابى اصيبعة . . طبقات الأطباء
(٢) ابن خلدون . . . المقـــدمة
(٣) ابن خلـكان . . . وفيات الأعيان
(٤) ابن قتيبة . . . . كتاب المعارف (وستنفلد ١٨٥٠م)
(٥) البلاذرى . . . . فتوح البلدان
(٦) ابو الفرج بن العبرى . مختصر الدول
(٧) الشهرستانى . . . الملل والنحل
(٨) المســـعودى . . . مروج الذهب
(٩) المقريزى . . . . الخطط « كتاب المواعظ والاعتبار »
(١٠) احمـــد امين وزكى نجيب
محمود . . . . قصة الفلسفة اليونانية
(١١) احمـــد امين . . . فجر الاسلام وضحى الاسلام
(١٢) اسماعيل مظهــر . . تاريخ الفكر العربى
(١٣) حافظ عفيفى . . . الانجليز فى بلادهم
(١٤) لجنة التاريخ القبطى . تاريخ الأمة القبطية
(١٥) سعيد بن بطــريق . . نظم الجوهر
(١٦) محمد أحمد حسين . . مكتبة الاسكندرية فى العالم القديم
(١٧) محمد كــرد على . . الاسلام والحضارة العربية
(١٨) مصطفى أمين . . . تاريخ التربية
(١٩) ياقــوت . . . . معجم البلدان

المصادر الأجنبية

1) Bevan (Ed.) : A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty.
2) Breasted : Ancient Times.
3) Breasted : Ancient Coptic Churches of Egypt.
4) Bury (J.B) : Gibbon's Decline and Fall of the Roman Empire.
5) Casanova : L'Incendie de la Bibliothèque à Alexandrie, (1923).
6) Champolleon : L'Egypte sous les Pharaohs.
7) Hammerton : Concise Universal Biography.
8) Hanouteaux : Histoire de la Nation Egyptienne.
9) Heath : History of Mathematics.
10) Jondet (G.) : Atlas Historique de la Ville d'Alexandrie, (1921).
11) Kippel : Uber das Alexandrinische Museum, (1828).
12) Mahaffy : The Empire of the Ptolemies.
13) Maspero (G.) : Comment Alevander devint dieu en Egypte.
14) Matter : Essai Historique sur l'Ecole d'Alexandrie, (1820).
15) Mayerhoff (M.) : La Fin de l'Ecole d'Alexandrie d'apres quelques auteurs Arabes.
16) Milne : Egypt under the Roman Rule.
17) Farthey : Das Alexandrinische Museum, (1838).
18) Susemihl (F.) : Geschichte der Griechischen Litteratiure in der Alexandriner Zeit, 1891).
19) Encyclopedia Britannica (14th Edition).
20) Encyclopedia Halensis (Vol. 23).



فهرس

صفحة

صفحة

المطبعة العالمية ١٧٠١٦ ش ضريح سعد بالقاهرة